آفاق في الوعي السنني

ISLAMIC REALISM
IN THE CIVILIZATIONAL EFFECIENCY LINE

الواقعية الإسلامية
في خط الفعالية الحضارية

الطيب برغوث

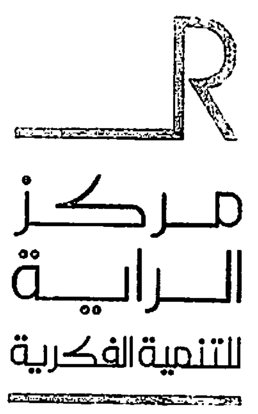



من إصداراتنا
آفاق في الوعي السنني
Pivotality of the Cultural Aspect in the Civilizational Renewal Strategy According to Malik Ibn Nabi
محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي
الطيب برغوث
تحديات الإصلاح في العالم العربي
Challenges of Reformation in the Arab World
الحياة في الإسلام
Life in Islam
Leben in Islam
ماذا يقرأ عرب اليوم
أشرف بكر
The Other.. and the Rights of Citizenship
الآخر وحقوق المواطنة
احترام الإنسان
ثقافة السؤال
محمد محفوظ
عبد الحليم أبو شقة
Criticising Contemporary Muslim Culture
نقد العقل المسلم
الأزمة والمخرج
عبدالإله بكار
The Most Wonderful Messages
أحلى الرسائل القصيرة



الواقعيّة الإسلاميّة

في خط الفعالية الحضارية



www.alraya-center.com

الجمهورية العربية السورية
دمشق ص.ب: ٩١٨٤
هاتف: ٦١١٩٣٦١ ١١ ٠٠٩٦٣

المملكة العربية السعودية
جدّة ـ شارع الستّين
مركز نصّار التجاري
الدور الرابع - مكتب رقم ٤٠٥
هاتف: ٠٠٩٦٦٢٦٦٨٦٨٢٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٢٦٦٨٦٨١٠
جوّال: ٠٠٩٦٦٥٠٣٦١٥١٩٠

الطبعة الأولى
لمركز الرايـة
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

آفاق في الوعي السنني.
الواقعيّة الإسلاميّة في خط الفعالية الحضارية
المؤلف : د. الطيب برغوث
قياس الصفحة: ١٢×٢٠سم
عدد الصفحات : ٤٩٦ صفحة
التنفيذ الطباعي:
مركز الراية للتنمية الفكرية

آفــاق فـي الوعـي السنني

الواقعيّة الإسلاميّة

في

خط الفعالية الحضارية

د. الطيب برغوث

مـركــز الـرّايــة

للتـنـمية الفـكرية

مؤسسة ثقافية ناشرة تعنى بالفكر الإنساني وتجلياته الإبداعية، وتسعى لبعث ثقافة منفتحة تعانق الآخر ولا تستبعده أو تقصيه، وتنمي أنهار المعرفة بتغذيتها بفكر حر متجدد.

يقوم المركز على ثوابت و قسمات هوية الأمة الرئيسة ليؤصل مفاهيم حضارية مثل:

- ✓ العقلانية والرشد الفكري هما ركيزتا البعث الحضاري المنشود للأمة.
- ✓ استلهام الدروس والعبر من الماضي لعيش الحاضر بعين مبصرة واستكشاف المستقبل بروح متبصرة.
- ✓ التركيز على عوامل العطل والكلالة والاستنبات التي أدخلت الأمة في نفق الصوت لا الفعل، ومحاولة الكشف عن جذورها ورصد تفرعاتها المتعددة وصولاً إلى حلول لأمراضنا الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية و...و..
- ✓ إغناء عقل القارئ العربي بما فيه المتعة والفائدة، وجذب القراء بمختلف شرائحهم العمرية بإصدار ما يتفق مع طموحاتهم و ينمي وعيهم ويفتح آفاق المعرفة أمامهم.
- ✓ إصدارات أكثر تنوعاً وغنى لوضع أسس جديدة في تفهم الذات والتعامل مع الآخر وذلك من قبل مجموعة من المفكرين المتميزين بفكر حر أصيل.

الإهــداء

إلى روح من أسقط جهاده الحضاري أسطورة الجزائر الفرنسية، وأنقذ منطقة المغرب العربي من مصير أندلس ثانية!

إلى الرجل الذي كان يعلم الأجيال: بأن الإسلام يريد أن يكون سيداً عادلاً في الأرض، ويربيهم كيف يعتزون بذلك، وينذرون حياتهم لخدمة هذه الغاية، حتى يلقوا ربهم وهم على ذلك، لا مغيرين ولا مبدلين!

إلى الرجل الذي جسد أمامنا حقيقة الرسالية، ومنحنا القدوة النموذجية الفذة في ذلك، بعد أن كادت ظلمات الليل الاستعماري، وغمم التخلف الحضاري، أن تجعل من الرسالية حديث خرافة وحكايا قصاص!

إلى الرجل الذي علمنا بجهاده النموذجي الممتد

بلا فتور، أو انقطاع، أو شذوذ، أو التواء.. كيف يتحول الفرد بالرسالية إلى أمة كاملة!

إلى هذا الرجل الذي علمنا أن المسلمين لا ينهضون، ولا يستعيدون دورهم القيادي المتميز في العالم «إلّا إذا صلح علماؤهم، وأن علماءهم لا يصلحون إلّا إذا صلح تعليمهم، وأن تعليمهم لا يصلح إلّا إذا تأسس على روح الإسلام، واستوحى منهج النبوة في منهجه ومحتواه ورسالته»!

إلى هذا الرجل الأمة! الذي علمنا كيف يكون في حقنا شاغلٌ لنا عن باطل المبطلين، الذين يريدون صرفنا عن التركيز المطلوب في جهادنا الحضاري، بشغلنا عن الأولويات التي تقتضيها أصالة التغير وفعاليته واستمراريته!

إلى هذا الرجل الذي علمنا بأن الظروف والتحديات التي تحيط بجهادنا الحضاري، تستطيع أن تكيفنا وتكيف مناهج جهادنا، ولكنها لا تستطيع بإذن الله، مهما اشتدت

وطأتها علينا، وتكامل حصارها لنا، أن تتلفنا أو تنال من روح المكابدة والصمود لدينا!

إلى هذا الرجل الذي علمنا بأن الأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد، وأن الاختلاف لا يمنع وحدة الموقف، وتناسق الجهود، وتكامل المبادرات.. بين المعنيين بحركة النهوض بالأمة!

إلى الإمام العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه، الذي تمثلت فيه، وتجددت به الروح الصحابية في القرن العشرين! فكان بذلك أكثر من تأثرت بهم وأحببتهم، وتمنيت أن أقترب من سفوح القمم التي ارتقوا إليها في الرسالية!

محبّكم الطيّب برغوث

بين يدي الطبعة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصّلاة والسّلام على من علمنا منهج تحقيق الصلاح في أنفسنا، والمساهمة في نقله إلى واقعنا، لينخرط كله في حركة الإصلاح الدائم لحياتنا وعالمنا وعصرنا.

وبعد: أود أن أشير بين يدي هذه الطبعة من كتاب «**الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**»، إلى فكرة منهجية أساسية تخص موضوع ومهمة هذا الكتاب، ضمن مجموعة الكتب التي وفقني الله سبحانه وتعالى لإنجازها حتى الآن، وهي أن هذا الكتاب ـ وكتباً عديدة غيره ـ يندرج في سياق البعد أو الجانب التطبيق لنظرية «**التدافع والتجديد**» التي شرحتها في كتابي: «**مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**» و «**الفعالية الحضارية والثقافة السننية**» بصفة خاصة، واعتبرتها

تمثل جوهر رؤية الإسلام لفلسفة التاريخ والحضارة، أو لحركة الاستخلاف البشري في الأرض بصفة عامة.

فنظرية **التدافع والتجديد**، تمثل أساس المنظومة السننية الرباعية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد، وهي **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، حيث أن سنة **الابتلاء** بوصفها مقوماً مركزياً لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، تتحقق في حياة البشر عبر حركة **التدافع** التي تفضي باستمرار إلى **تحقيق التداول** الحضاري بين الأمم والجماعات البشرية الكبرى على مسرح التاريخ، بحسب أصالة وفعالية واطرادية هذا التدافع، الذي تحكمه بدوره سنة **التجديد** بشكل مطرد؛ إذ كلما تمكنت أمة من تحقيق تجددها الذاتي؛ الشمولي التكاملي المتوازن المطرد، قويت حركة دفعها الاجتماعي والحضاري، واستطاعت بذلك أن تعزز فترة مداولتها الحضارية، وتحافظ على استمراريتها في الصدارة، إن كانت من أهل الصدارة الحضارية، أو تعزز من فرص وشروط نهضتها،

أو مواكبتها أو مشاركتها في المنافسة الحضارية.

وهذا الكتاب وغيره من كتبي، كما قلت، هو محاولة لتطبيق هذه النظرية من خلال سنة محورية أساسية من سنن **«نظرية التدافع والتجديد»** وهي سنة **أو قانون الواقعية**، بكل ما تعنيه من فهم شمولي تكاملي متوازن لمرجعية التغيير والإصلاح، وفهم صحيح ودقيق للواقع المراد تغييره وإصلاحه، وقدرة على التخطيط الاستراتيجي التكاملي الفعال لعمليات التربية والدعوة والبناء والمواجهة، وقدرة على فعالية الإنجاز الاجتماعي المتدرج، وقدرة أكبر على الوقاية المواكبة والاستراتيجية أو البعيدة لمنجزات التغيير والبناء.

ونظراً لانشداد وعي جمهرة أجيال الصحوة إلى مرجعية التوجيه المركزية في حياة الأمة، وهي الكتاب والسنة والسيرة النبوية ابتداء، ثم إلى رشد خبرات وتجارب السلف عامة، فإن المنهج التربوي الوظيفي اقتضى مني أن أكثر من

استثمار معطيات هذا الإطار الثقافي المرجعي، في تأطير الموضوع وخدمة أغراضه الفكرية والمنهجية والتربوية والحركية، وهو ما يعفيني من الملاحظة التي قد يبديها البعض حول كثرة لجوئي إلى المادة التاريخية أو التراثية في تأصيل قضايا الموضوع المختلفة، بالرغم من أنني شخصياً أؤمن بشمولية المعطيات الفكرية للتأصيل، التي لا تنحصر عندي في المعطيات التي تمنحنا إياها منظومة سنن الهداية وحدها، ممثلة في الكتاب والسنة والسيرة النبوية أساساً، ثم في بقية معطيات الخبرة التراثية الاجتهادية الأخرى المتنوعة المنبثقة منها، بل تمتد معطيات التأصيل إلى استثمار بقية منظومات سنن التسخير الأخرى في الآفاق وفي الأنفس وفي التأييد، وهو ما تحاول دراساتي أن تستفيد منه كله حسب الحاجة والإمكان من ناحية، كما تحاول تأسيس الوعي به لدى أجيال المجتمع والأمة من ناحية أخرى، حتى نتجاوز مفهوم التأصيلية الجزئية أو التجزيئية إلى مفهوم التأصيلية السننية الكلية، التي تؤمن بشمولية سلطان السنن الإلهية،

ولا تفرق بين هذه السنن ولا تفاضل بينها، بل تُعمل الجميع كل في مجاله أولاً، ثم تكامل بينها لتغطية بقية احتياجات حركة التأصيل الفكري والتسخير الاجتماعي ثانياً.

كما لا أنسى هنا أن أشير إلى أن المنهج الذي أحاول اعتماده في كل دراساتي، هو ما أسميه بـمنهج «المعرفية أو السننية التربوية»، والذي أزعم أنه يمثل جوهر المنهج القرآني بل والرسالي عامة، على اعتبار أن المعرفة روح الحياة، وأن المنهج روح المعرفة، وأن السنن روح المنهج، وأن التربية هي روح ذلك كله ومقصده الأساس باستمرار. وكل حياة لا تتأسس على المعرفة فهي بلا روح، وكل معرفة لا تتأسس على منهج فهي فوضى، وكل منهج لا يتأسس على سنن الله في خلقه فهو تخبط. وكل حياة أو معرفة أو منهج أو سنة.. لا تستهدف تحقيق الترقي التربوي النوعي المستمر، فهي هدر للوقت، وتبديد للجهد، وتكريس للاختلال، وتعميق للضعف في حياة الأفراد والمجتمع والأمة، وتنكب عن

طريق ومنهج الاستخلاف الذي كرم الله به بني البشر.

فالتربية بما هي عملية ترقية فكرية وروحية وسلوكية واجتماعية وحضارية، نوعية شاملة ومتكاملة، على طريق الاقتراب الدائم من آفاق استراتيجية أو مشروع الإحسان، الذي طرحه الإسلام كأفقِ استقطابٍ كليٍّ لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، يجب أن تظل حاضرة في عمق اهتمام المجتمع وأولوياته بشكل مستمر، لأن أي نقص أو خلل يحدث في أولوية الاهتمام التربوي الكلي، ينعكس سلباً على مجمل أصالة وفعالية واطرادية النفَس الحضاري للمجتمع والأمة، ويؤثر بعمق، إن عاجلاً أم آجلاً، على أدائهما في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تدفع بهما إلى هوامش ومستنقعات الغثائية الحضارية المذلة.

من هذه المنطلقات أحرص باستمرار على أن استثمر «منهج المعرفية أو السننية التربوية» في مساهماتي الفكرية، وأرجو أن أكون قد وفِّقت ولو جزئياً في استثمار هذا المنهج

في هذه الدراسة وغيرها، فأعطيت الجانب الفكري المعرفي بعض حقه، ولم أقصر في وصل هذا الجانب المعرفي للدراسة بمقصده التربوي الأساس، الذي يساهم في عملية التأطير الفكري والمنهجي والروحي والسلوكي لجهد الفرد والمجتمع، وحركة الأمة من أجل النهوض الحضاري.

وككل جهد بشري فإنه يظل ناقصاً، وفي حاجة دائمة إلى الاستدراك والتكميل، وهو ما نأمل تحقيقه مع مرور الزمن وتراكم التجارب والخبرات ومساهمات القراء وملاحظاتهم، التي نرجو ألا يبخلوا بها علينا وعلى جمهور الكتاب.

وأخيراً ندعو الله تعالى ألّا يحرمنا أجر الصواب، وأن يتجاوز عنّا عما جانبنا فيه الصواب.

النرويج

الطيّب بن مبارك برغوث

٥ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ

الموافق: ١٢ آذار / مارس ٢٠٠٥

مقدمة الكتاب

في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، كتبتُ رسالة بعنوان «الواقعية في الدعوة إلى الإسلام» نشرتُها في إطار «سلسلة مفاتيح الدعوة» التي شرعت في إصدارها لمواكبة حركة الصحوة الإسلامية المباركة، بل واستباق خطواتها التي كانت لا تزال تتحرك على رمال المثالية والعاطفية البريئة أو الساذجة، وتحف بها أخطار الاتباعية الحرفية التبسيطية، والنزعات الاستعجالية المتشنجة، والمكر الداخلي والخارجي المتمرس، ولم يكتمل لديها الوعي بالبعد الواقعي لمعادلة التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري بعد. وقد نفدت طبعة هذه الرسالة من الأسواق في أقل من ثلاثة أشهر، وكان ذلك مؤشراً كبيراً - بالنسبة إليّ على الأقل - على حيوية المفاهيم التي استهدفت تثبيتها في البنية الفكرية والمنهجية للمنظومة الثقافية لأجيال الصحوة عامة، ونخبتها الرسالية خاصة.

ونظراً للأهمية الحيوية البالغة لموضوع الواقعية في حركة التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري، من الناحية المبدئية السننية العامة، التي تؤكد أنّ **الواقعية الحركية المنضبطة**، في جميع مراحل **«الدورة الإنجازية»** للفعل التغييري، تُعد من المقومات الشرطية اللازمة لأصالة التغيير وفعاليته واطرادية تأثيره.

ونظراً لكون هذه الواقعية الحركية المنضبطة، تعد من الخصائص المبدئية الكبرى للإسلام، وتشكل أحد أهم المقومات الجوهرية لمنهجه في الدعوة والبناء والمواجهة، كما سيرد الحديث عن ذلك مفصلاً في هذه الدراسة.

ونظراً لحاجة الصحوة الإسلامية الملحة، إلى تعميق الوعي بالبعد الواقعي في منظومتها الثقافية، ومنح أجيال الصحوة شرط الفعالية الإنجازية، أو التسخيرية عامة، تجاه التحديات المتلاحقة لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، التي تضطلع بها هذه الأجيال لتجديد الأمة، واستكمال نهضتها الحضارية المنشودة.

ونظراً للإخفاقات التي سجلتها الكثير من التجارب التربوية والدعوية، وآلت إليها العديد من المبادرات

الاجتماعية والسياسية، في نهايات القرن الماضي وبدايات هذا القرن، وخلفت وراءها الكثير من المضاعفات السلبية، التي شكلت وتشكل عائقاً نفسياً وتاريخياً كابحاً، ما انفك يشوش على المكاسب الكبيرة لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، التي تضطلع بها الصحوة الإسلامية المعاصرة، لاستكمال بقية مراحل دورات التجديد الحضاري للأمة.

ونظراً للدور السلبي لقصور الوعي بالواقعية الحركية المنضبطة، لدى فئات كثيرة من قطاعات الصحوة، وما نجم عن ذلك من تخبط واضطراب في تفسير النصوص، وتحقيق مناطات الأحكام، واستشراف آفاقها المقاصدية، وسوء تحليل وتقدير لمعطيات الواقع الموضوعي المعيش، وذهول عن الانتباه لمآلات وعواقب العجز عن تحقيق الموازنات المطلوبة، بين كل مكونات وأبعاد ومراحل «الدورة الإنجازية» للفعل المعرفي، أو التربوي، أو الدعوي، أو الاجتماعي، أو السياسي.. الذي غالباً ما يولد منقوصاً، مشوهاً، معلولاً، لا يقوى على تشكيل إضافة نوعية صحية، أو حتى كمية متكاملة في ميدانه، بل يضيف متاعب كمية ونوعية جديدة، ويستنزف

طاقات وإمكانات إضافية، على حساب التكاملية المطلوبة في عملية البناء والتغيير الاجتماعي والحضاري.

نظراً لكل ذلك، فقد رأيت أنه من المفيد بل من الضروري أن أعود إلى تعميق النظر في الموضوع، في إطار «**سلسلة آفاق في الوعي السنني**» التي شرعت في إصدارها مع مطلع هذا القرن، للمساهمة في ترقية فكرة الواقعية إلى مستوى النظرية، كما هي عليه فعلاً في واقع حالها السنني، وسميت الكتاب على بركة الله: «**الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**»، بعد أن كنت قد عزمت على تسميته قبل ذلك بـ«**التجديد الحضاري وقانون الواقعية**» كما ظهر ذلك في هوامش بعض كتبي المطبوعة، لاعتقادي فعلاً بأن الواقعية كما تتجلى في ضوء منظومتي سنن **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من جهة، وسنن **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من جهة أخرى، المهيمنتين على الصيرورات الحضارية للحركة الاستخلافية في الأرض، ترتقي إلى مستوى السنة أو القانون الكلي العام المطرد في الحياة البشرية.

فقد استبان لي من خلال الدراسة المعرفية للموضوع، والمتابعة العملية له في نطاق الممارسة التاريخية والآنية، أن **الواقعية ترتقي إلى مستوى السنة أو القانون الاجتماعي الكلي المطرد** في حركة التغيير والتجديد الحضاري؛ دعوة وبناء ومواجهة، من دونها يفقد التغيير والتجديد ركناً أساساً من أركان إنجازهما، ويتعذر عليهما بل ويستحيل تحقيق أهدافهما في **الأصالة والفعالية والاطراد** من ناحية، وإدراك غاياتهما في **العالمية والإنسانية والكونية** من ناحية أخرى.

فالواقعية بما هي عملية وعي معرفي **ومنهجي وتسخيري متكامل ومتجدد، بأبعاد ومعطيات وآليات ومراحل «الدورة الإنجازية» للفعل التغييري**، الذي يواجه به الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم.. تحديات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** الملازمة لحركة الحياة، فإنها ترتقي فعلاً إلى مستوى السنن والقوانين الاجتماعية العامة، الفاعلة في الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ باطراد.

لذلك ينبغي أن نؤصل الوعي بالطابع السنني أو القانوني

الكلي لمبدأ الواقعية، حيث يشكل ذلك أساساً راسخاً للوعي التسخيري والاستخلافي لدى الأفراد والجماعات والمجتمع.. لأن ذلك هو الشرط الثاني الأساس للفعالية الحضارية، بعد شرط الأصالة أو المشروعية، بل وأحياناً قد يتقدم شرط الواقعية على شرط الأصالة، عندما يصبح تحقيق الأصالة أو ضمانها والمحافظة عليها، مرهوناً بمدى فعالية المواجهة للتحديات التي تجابهه، فتعطى له بعض الأولوية المنضبطة لتحقيق ذلك، كما سترد نماذج تطبيقية كثيرة عن ذلك في مباحث الكتاب المختلفة، وخاصة في مبحث الوسائل الاستثنائية.

وعدم ارتقاء الوعي بمبدأ الواقعية إلى مستوى السنة أو القانون الكلي العام، يعد من نواحي القصور الهيكلية في منظوماتنا الفكرية والسلوكية والاجتماعية.. التي تفسر لنا جانباً مهماً جداً من جوانب الضعف الكبيرة في أدائنا الحضاري المعاصر، المتسم بالجزئية والآنية والتنافرية والاهتلاكية والاستئنافية واللاجدوى.. في كثير من الأحيان، وهو ما أثَّر ويؤثر بعمق في موقعنا على خريطة حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري، وجعلنا فريسة سهلة

للاستضعاف والغثائية والتبعية الذليلة! التي تضاعف باستمرار وتائر «مديونيتنا الحضارية» وتباعد بيننا وبين طموحاتنا في النهضة والمشاركة والمنافسة والقيادة الحضارية.

ولعل أشد ما يؤلمني وأنا أكتب هذه المقدمة، هو تأخر ظهور هذا الكتاب كل هذه المدة، رغم أنه كان جاهزاً للطبع، فحُرم ـ أي الكتاب ـ من فرص التعميق التي تتيحها له ملاحظات القراء الكرام من جهة، وتفرزها حركة ملامسة الكتاب للواقع المتحرك من جهة أخرى، كما حرم القراء أنفسهم من الاستفادة منه، وخاصة شباب الصحوة الإسلامية المباركة، الذين كتبت لهم هذه الرسائل، التي استوحيت فيها آمالهم، واستهدفت من خلالها تحقيق طموحاتهم، والمشاركة في تذليل بعض العقبات التي تواجهها مبادراتهم وتضحياتهم من أجل النهوض بالأمة، وتمكينها من استئناف رسالتها في **الدعوة والقدوة والقيادة والقوامة والشهادة.**

فأنا ومن خلال نشأتي في أحضان الصحوة الإسلامية المباركة؛ تلميذاً، فطالباً جامعياً، فمشاركاً متمرناً في النشاط الدعوي الرسمي والشعبي، فأستاذاً بالجامعة، فمشاركاً في

تأطير النشاط الفكري والتربوي للاتجاه الحضاري في الحركة الإسلامية بالجزائر خاصة.. عرفت من الداخل، الكثير من هموم الصحوة ومشكلاتها وأمراضها، كما عرفت مكامن القوة والخير والبركة فيها، وهو ما أزعم أنه يعطي كتاباتي بعض مصداقيتها، لدى نوعية خاصة من النخبة الرسالية التي عرفتها في تيارات الصحوة المتعددة، والتي أسميتها بتيار الاتجاه الحضاري في الحركة الإسلامية، الذي أعتبره بكل موضوعية مضغة حركة التغيير ومصبّها في المجتمع والأمة والإنسانية.

فهذا التيار المضغة أو المصب، الذي يشكل الوسطية الإسلامية المتوازنة، كما يسميها بعض أجلة علمائنا ومفكرينا، هو الذي تستهدفه كتاباتي في الأساس، وهو الذي يقدِّر بخلفيته الفكرية والمنهجية والإيمانية المتكاملة والمتميزة! الأبعاد والآفاق المعرفية والحركية للأفكار التي تعرضها هذه الكتابات، وهو ما يغذي لدي روح المكابدة من أجل الاستمرار في المشاركة في بناء الأرضية الفكرية للاتجاه الحضاري في الحركة الإسلامية، والدأب في توسيع دائرة الانتفاع به من كل فصائل واتجاهات

الصحوة الحضارية للأمة.

فأنا أعتقد بأن النهضات الحقيقية المؤسِّسة للدورات الحضارية الكبرى، ذات النفس العالمي والإنساني والكوني في التاريخ، تبدأ انطلاقتها الصلبة، عندما يتحول الوعي السنني المتكامل عند الفرد والمجتمع والأمة، إلى مصب أو مستقطب تلتقي فيه بقية روافد الوعي والحركة الأخرى في المجتمع والأمة، مع احتفاظ كل رافد بخصوصيته المعرفية، ومهمته الوظيفية، في إطار الوظيفة التكاملية العامة المغذية للوعي السنني الشامل، الذي يدفع بحركة التطور والترقي الحضاري إلى آماده البعيدة في العالمية والإنسانية والكونية.

وأن التراجعات الكبرى في مسارات الحضارة، يبدأ عدها العكسي المتقهقر، عندما يأخذ الوعي السنني المتكامل - عند الأفراد والمجتمع والأمة - يخلِّي موقعه كمصب أو مستقطب لحركة التاريخ، لصالح بعض روافده المعرفية والحركية المتضخمة، لتتحول تدريجياً أو من خلال طفرات خاصة، إلى مصب جديد لحركة التاريخ، ولكن بطاقة أو سعة

استيعابية ذات نفس غير عالمي أو إنساني أو كوني، أي غير حضاري، فتدخل في دوامات التنافرية والإقصائية والاهتلاكية المزمنة.. مع بقية الروافد الأخرى التي عجزت عن استيعابها، وهو ما يؤدي إلى الإنهاك وتقلص إمكان النفوذ وشروطه، والدخول مبكراً في مراحل الهامشية والغثائية والتبعية الحضارية المذلة! كما حذر من ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال ٨/ ٤٦].

وحذرت منه السنة في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «...**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1]. أي إنّ حركة المجتمع والأمة والحضارة.. إذا هيمنت على تخطيط وصياغة وتأطير مسيرتها، أفكار واتجاهات ومؤسسات وقيادات.. ليس لها أفق حضاري شمولي متكامل، فإن مآلها المزيد من التنافر والاهتلاك والضعف وذهاب الريح!

من هنا فإنه يجب الاستيقان تماماً، بأنه ما لم يتكون هذا

---

(١) رواه البخاري.

المصب أو المستقطب الرئيس لحركة التغيير، فإن حركة النهضة الحضارية ستكون متعسرة، بل ومتعذرة، بسبب حالة الاستقطاب التنافري الاهتلاكي بين روافدها الجزئية، التي يناوئ بعضها بعضاً، ويقصي أحدها الآخر، في مداولة انتقامية إجهاضية مزمنة؛ شعورية ولا شعورية، لا تنتهي إلّا على أنقاض حركة النهضة والتجديد الحضاري!! ومنذ القدم نبهت الخبرة البشرية إلى أن البنيان الاجتماعي والحضاري، لايمكن أن يبلغ تمامه، إذا رافقته عملية الهدم الذاتية أو الخارجية! فكان جزء من المجتمع أو الأمة يبني، وأجزاؤه الأخرى تهدم! وهو ما تعرضت له، مع الأسف، حركة النهضة الإسلامية الحديثة، فطال بها الطريق، وتشعبت أمامها التحديات وتكاثفت، في غياب الوعي بالواقعية الحركية المنضبطة، التي تستلزم موازنات دقيقة ودائمة بين الأولويات والخيارات، والبدائل والمواقف، والوسائل والأساليب.. ولا تقبل العاطفية الساذجة، والوتيرية الجامدة، والذاتية المزاجية، والارتجالية المربكة..

ولما كانت الواقعية الحركية المنضبطة، هي باستمرار فعل معرفي واجتماعي مركب، تتكامل فيه أبعاد ومعطيات شرعية وتاريخية ونفسية وفكرية واجتماعية وسياسية.. مؤتلفة ومختلفة، فقد حرصنا في هذه الرسالة وغيرها من كتبنا، على الجمع بين الأبعاد التأصيلية والتحليلية والتطبيقية والتربوية.. في المنهجية التي نبني بها موضوعاتنا، ونؤسس لها ذاتيتها أو هويتها المعرفية، التي تصب في اتجاه تأسيس وتعميق الوعي السنني لدى أجيال الأمة عامة، ونخبها الرسالية خاصة، باعتبار هذا الوعي هو الشرط الجوهري الأساس لأصالة وفعالية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، التي تتوقف عليها الصيرورات الحضارية المتعاقبة لحركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، الفاعلة في التاريخ البشري باستمرار.

وأخيراً فإننا بذلنا ما استطعنا من الجهد في استيعاب الموضوع والإحاطة بكلياته، فإن وُفقنا في ذلك فالحمد والشكر لله على ما ألهم ويسر وأنعم، وإن قصرنا أو جانبنا الصواب أحياناً، فحسبنا أننا لم نألُ جهداً في تحري التوفيق،

ونطمع في نصيحة أهل الذكر، ومبادرتهم لاستدراك ما فاتنا، فمسؤولية الكمال موقف مشترك بين الكاتب والقارئ، يؤدي فيه كل منهما دوره بأمانة ونزاهة وإخلاص وموضوعية وحكمة وبصارة؛ خدمة للحقيقة المعرفية أولاً، والمصلحة العملية المرتبطة بالارتقاء بفعالية الأداء الاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة، في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري ثانياً، وهو ما نسأل الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطانا فيه،وأن يلهمنا رشدنا، ويجنبنا مواطن الفتن، ويقود خطانا إلى مرضاته، إنه سميع قريب مجيب.

۞ ۞ ۞

مدخل
معرفي ومنهجي إلى الدراسة

سؤال البداية

يثور في أذهان المسلمين منذ زمن غير يسير سؤال حائر مؤرّق، في حاجة إلى أجوبة موضوعية متوازنة، تعيد تأسيس الوعي الحضاري لدى الأمة، وتصحح علاقة المسلم بدينه وتراثه ووظيفته ورسالته، وتجدد فعالية الفرد والجماعة والمجتمع والأمة في معترك التدافع الحضاري، وهو: **لماذا لا نجد تناسباً معقولاً بين جهد المسلم؛ فرداً وجماعة ومجتمعاً وأمة، ونتيجة هذا الجهد الذي يستهدف النهوض بالأمة؟!** لماذا نرى هناك جهوداً كبرى تبذل في كل الأقطار الإسلامية، منذ قرنين من الزمن تحت شعار النهوض الحضاري بالأمة، ومع ذلك فإن هذه النهضة الحضارية لم تتحق؟

وفي ثلاثينيات القرن الماضي، طرح السؤال نفسه

بصيغته التأسيسية الأولى: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ الذي كان من الطبيعي أن يعقبه السؤال التقويمي السابق، لنعرف أين نحن بعد قرنين من محاولات النهوض والتجديد الحضاري للأمة، التي تمت على امتداد الساحة الإسلامية الواسعة ؟

فنحن نلاحظ، أن أعمالاً كثيرة ومتنوعة تقام في جميع أرجاء الوطن الإسلامي وخارجه باسم الإسلام، للانتقال بالأمة من هوامش التاريخ ومستنقعاته، إلى عمق المسرح التاريخي، قوةً حقيقية للتوازن والرشد الحضاري. ومع مرور الزمن يكتشف المسلم أنه يزداد بعداً عن غايته التي رسمها له الإسلام، وهي تحقيق العبودية الخالصة لله؛ في نفسه أولاً وفي الحياة الإنسانية من حوله ثانياً، من خلال ترقي معرفي وروحي وسلوكي واجتماعي وعمراني متكامل ومطرد.

فلماذا هذا الخلل المزمن بين الجهد ونتيجته؟ أو لماذا هذه اللافعالية في الجهد التجديدي للأمة؟ وما الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ذلك؟ وما المخرج منه؟

وقد علل قوم ذلك بضعف الإيمان، وأجاب غيرهم بضعف صلة المسلم بالحياة المعاصرة، وعزا آخرون ذلك إلى الاستلاب الحضاري، وحمّل ناس الاستعمار ما نحن فيه من ضعف، ودفع بعضهم بفكرة الابتداع ومجافاة الإتباع للسنة ومنهج السلف الصالح.. إلى مسرح المبادرات التفسيرية للظاهرة... إلى غير ذلك من الأطروحات التي تلاشى كثير منها في الجزئية والتبسيطية والإسقاطية... مع أن تفسير الظواهر الحضارية يحتاج إلى المنهج الاستقرائي التحليلي التكاملي، الذي يحيط بجميع المؤثرات المستقلة والتابعة، الفاعلة في تشكل الظواهر وتفاعلاتها الداخلية والتبادلية، وهو منهج الإسلام في تفسيره للظواهر وتعاطيه معها!

الإطار المعرفي والمنهجي لتحليل المشكلة وتفسيرها

ونحن نعتقد أن البحث عن الجواب الصحيح لهذا التساؤل الكبير، يتم عبر المحاور الخمسة الأساسية الآتية:

- محور خلوص النيات وتمحيض[1] القصود لدى الأفراد

(١) التمحيض: الإخلاص. يُقال: محض: صافٍ، ويُقال: محضه الود: أخلص له.

والجماعات العاملة.

- ومحور انشحاذ الإرادات النفسية أو الروحية للصفوات العاملة.
- ومحور انشحاذ القدرات الفكرية والفهمية لهذه الصفوات الرسالية.
- ومحور انشحاذ القدرات الإنجازية للأفراد والمؤسسات العاملة.
- ومحور انشحاذ القدرات الوقائية لمنجزات الأعمال لدى الأفراد والمؤسسات.

إذ إنّ الأسباب المعيقة لفعالية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، لا تخرج عن كونها تكمن أو تعود في الغالب الأعم إلى:

- **نقص في النيات واضطراب في القصود:** واهتزاز في صفة التجرد والاحتسابية لله في العمل، الأمر الذي يؤثر بعمق على فعالية الجهد، ويوفر المناخات الصراعية

المبددة والمذرذِرة للجهد.. وكما هو معلوم فإن كل مالا يراد به وجه الله يضمحل، قال ابن الجوزي: « إنما يتعثر من لم يخلص». وأن الإنسان يجد من العون على قدر إخلاصه في عمله لله. كما قال الكيلاني: «رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية»[1].

- **ضعف في انشحاذ الإرادات الباعثة على العمل:** وقلة حماسة القلب وشغفه بالدعوة إلى الله، وتجاوبه مع الهموم والاهتمامات الكبرى للأمة والإنسانية. لأنه قد يخلص المسلم في عمله ويتجرد فيه لله، ولكنه لا يعطي من جهده ووقته إلّا النزر اليسير الذي لا يحرك ساكناً، وهو ما جعل الإمام المودودي رحمه الله يكاشف العاملين في سبيل الله في هذا الأمر، ويقول لهم: «اسمحوا لي أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة، بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم، وآبائكم

(١) نقلاً عن الراشد في العوائق ١٢٣.

وأمهاتكم، فإنكم لابد أن تبوءوا بالفشل الذريع..

إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة، تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً، ولا يدعه حتى يجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده...

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم، وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية، وتركزوا عليها جهودكم وأفكاركم، حيث إن شؤونكم الشخصية، وقضاياكم العائلية، إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتوا إليها إلّا مكرهين.. وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم، لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم»[1].

فالطموح أو الإخلاص رغم أهميتهما، وكونهما الأرضية

(١) المودودي، تذكرة دعاة الإسلام ٥٧-٥٩ بتصرف.

الصلبة لأية مبادرة أصيلة بناءة.. من دون إرادة قوية تترجم الطموح والإخلاص والتجرد.. لا يجديان نفعاً،لأنهما إمكان أولي لا تتوافر له الطاقة النفسية التي تستثمره، وتحوله إلى إمكان معرفي وسلوكي واجتماعي وحضاري.

- **نقص في انشحاذ القدرات الفهمية:** لأنه قد يخلص المسلم في عمله، ويتجرد فيه لله، وتتوافر لديه الإرادة والحماس الإيماني القوي، ولكنه لا يفهم طبيعة هذا العمل وحقيقته، وأهدافه وشروطه، وأولوياته، والمراحل التي يجب أن يمر عبرها نحو غاياته.. فيهتم بأعراضه أو بظواهره أو هوامشه وجزئياته، ويهمل جوهره...

وهذا ما نجده في أعمال كثيرة، توافرت فيها النية والحرص على الاعتصام بالدين، وشدة الاندفاع لذلك، لكنها كانت تفتقر إلى الفهم الصحيح، الذي يحدد بدقة مكان المرض، وطبيعته، وخصائصه، ومدى عمق الإصابة به، أو عرضيته.. إلى غير ذلك مما تلزم مراعاته في بناء «الدورة الإنجازية» للفعل أو الموقف. كما نلحظ ذلك على

سبيل المثال في موقف رسول الله ﷺ وعمر ﵁ من ظاهرة النفاق، إذ كانت وجهة نظر عمر تأديب زعماء المنافقين والتخلص منهم، في حين كان أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام، الترفق بهم وحسن صحبتهم[1]، حتى لا يقول الناس: إنّ محمداً يقتل أصحابه، فينفر منه الرأي العام، ويجد المناوئون له فرصة لتأليبه ضد المسلمين، وتطوير المعركة ضد الدعوة، بل ربما افتتن بها بعض المسلمين أنفسهم!

وكل ذلك يترك آثاراً سيئة على الحركة العامة للإسلام لا تتحملها ظروف الدعوة، وهو الأمر الذي أدركه عمر بعد ذلك حينما قال له رسول الله ﷺ: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته ـ يعني ابن أبي ـ يوم قلت لي: أقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته**». فقال عمر: «**قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري**»[2].

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٧٦.

والأمر نفسه، نلاحظه في موقف عمر ﷺ، عندما أخبره أحد المسلمين بأن قوماً يخوضون في أمر الخلافة والخليفة، فغضب وأراد أن يجمع الناس لينبههم ويحذرهم[1]، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وألّا يعوها، وألّا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه، وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة»[2].

انظر إلى أهمية الفهم السليم لطبيعة المشكلة، والقدرة على تقدير الظروف المحيطة بها، واستشراف آفاق خطورة

(١) الموافقات ٤/ ٩٠.

(٢) رواه البخاري.

الإخفاق في فهمها والتعامل معها على الموقف الدعوي العام. لذلك أعطى الإسلام أولوية مطلقة للعلم والمعرفة في حياة الإنسان.

- **ضعف انشحاذ القدرات الإنجازية**: أما السبب الرابع في الحد من فعالية العمل في سبيل الله للنهوض بالأمة، فيعود إلى ضعف شحذ القدرات الإنجازية، وعدم ملاءمة المناهج والوسائل والأساليب والمواقف المعتمدة، أي كيفية مباشرة العمل، لأن العمل لا يكون حضارياً أصيلاً وفعالاً ومطرداً، بمجرد توافر النية والفهم والإرادة فيه، بل لابد من توافر شرط رابع، وهو انسجام المنهج ومكافأة الوسيلة وفعالية الأسلوب والموقف..

لأن العامل في سبيل الله قد يوفق في تخليص نيته مما علق بها من الشوائب، وفي الفهم الجيد للأمر المراد إنجازه، وفي امتلاك قوة وحماسة التغيير، ولكنه قد يخفق في عملية الإنجاز ذاتها، بسبب ضعف القدرات الإنجازية المتصلة باستخدام الوسائل والأساليب والمناهج الفعالة.. واستثمار الإمكانات

المتاحة، والظروف المحيطة، فتكون نتيجة العمل زهيدة.

- **نقص في انشحاذ القدرات الوقائية:** التي تحمي حركة البناء وتحافظ على منجزاتها من الهدر والتبديد الذاتي، أو العبث والتدمير الخارجي. على اعتبار أن حماية مكتسبات العمل وضمان استمرارية حركة البناء، شرط أساس لنجاح عملية التغيير والتجديد الحضاري، من دونه تفقد مصداقيتها، وتدفع بالمجتمع والأمة إلى مستنقعات الغثائية الحضارية الذليلة!

ومن هنا فإننا لو تأملنا أي موقف من مواقف النبي ﷺ، لوجدناه مستوفياً لهذه الشروط الخمسة السابقة، الأمر الذي جنب الدعوة الإسلامية في زمنه عليه الصلاة والسلام مخاطر الاستنزاف، ومكنها من السير قدماً إلى غاياتها دون توان أو تعثر، حتى أدركتها في زمن حضاري قياسي وبأقل التكاليف.

بينما لو تأملنا في كثير من مواقف المسلمين بعده، وخاصة المعاصرين منهم، لوجدناها دون المستوى المطلوب بكثير، إن لم نقل: إنّ بعضها يكاد يخلو تماماً إما من:

- خلوص النية وتجريد القصد.
- قوة الإرادة وحماسة القلب.
- الوعي والفهم.
- فعالية الإنجاز.
- فقه الوقاية والحماية.

الأمر الذي أثر كثيراً في نتائج الجهود التجديدية، وساهم في اختلال التوازن بين الجهد المبذول والنتيجة المحصلة، وعمق الفجوة بين الإسلام والمسلمين من جهة، وبينهم وبين القوى المضادة من جهة أخرى.

ويكفي أن يلاحظ المسلم بعض مواقفه وتصرفاته وأعماله، ويحلل «دورتها الإنجازية» على ضوء الشروط الخمسة السابقة، ليرى مدى بعده عن حقيقة العمل الذي يريده الإسلام ويلزم أتباعه بإنجازه. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك ٦٧/ ٢].

والعمل الأحسن هو الذي استوفت «دورته الإنجازية» الشروط السابقة جميعاً، فكان خالصاً لله وسليماً من العلل الفكرية والنفسية والاجتماعية.. أي موافقاً لسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله عندما سئل عن معنى هذه الآية فقال: «أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإذا كان صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة»[1]. أي على منهج النبي ﷺ وطريقته في مباشرة شؤون الأفراد والجماعات، تغييراً وإقراراً، وتربية وتوجيهاً وتنظيماً ووقاية...

فالواجب الدائم إذن، هو أن يجتهد المسلم الذي يتصدى لحمل أعباء الدعوة لهذا الدين العظيم، ويتشرف بالانخراط في حركة تجديد الأمة، لتحقيق أعلى وأرفع مستوى:

- في صفاء النية وخلوص القصد لله، أي في انشحاذ

(١) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد ٣٢٩.

الفعالية الروحية للمسلم وتصاعد وتائرها باستمرار.

- في انشحاذ قوة إرادته وحماسة قلبه للإسلام، واندفاعه لخدمته بكل شوق ورغبة واعتزاز.
- في انشحاذ قدراته الفهمية؛ دقة وشمولية وعمقاً، وانسجاماً مع سنن التسخير في أبعادها أو منظوماتها الأربع.
- في انشحاذ قدراته الإنجازية، التي تجمع بين انسجام المنهج وكفاءة وسائله وفعالية أسلوبه وشرعيتهما معاً.
- وفي انشحاذ قدراته الوقائية التي تحمي حركة التربية والدعوة والبناء، وتحافظ على منجزاتها بشكل مطرد، يسمح بتراكم الخبرات، وتعاظم الإمكانات، وتطوير فعالية الأداء.

وبعد أن يحقق هذا في عمله هو، يجب عليه أن يدعو غيره من المسلمين إلى تحقيق ذلك في عمله، مستعيناً بكل وسيلة شرعية ممكنة.. وبهذا تعود للمسلم فعاليته، وتتقلص تلك

الهوة الرهيبة بينه وبين مطالب دينه، ويعود التوازن المنشود بين الجهد المبذول والنتائج المحصلة، بل ستتضاعف هذه النتائج بفعل مباركة الله لها، وتدخّل إرادته المباشرة فيها، من خلال منظومة سنن التأييد بالخصوص، كما هو معلوم في تاريخ الإيمان وفلسفة التاريخ والحضارة. قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة ٢/ ٢٤٩]. وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر ٤٠/ ٥١]. وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد ٤٧/ ١٨].

وهذه الرسالة التي نضعها بين يدي المهتمين بقضية التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري للأمة، دعوة إلى العناية الجادة بشروط الفعالية الخمسة وهي:

- شحذ الفعالية الروحية.
- شحذ القدرات الإرادية.

- شحذ القدرات الفهمية.
- شحذ القدرات الإنجازية.
- وشحذ القدرات الوقائية.

لضمان أصالة وفعالية واطرادية ومصداقية الجهود الدعوية التجديدية، التي تبذلها الأمة على امتداد رقعة العالم الإسلامي خاصة،وفي كل بقاع الأرض عامة، من أجل تجاوز أوضاع التخلف والتبعية، وتأسيس دورة حضارية أخرى، تستعيد فيها الأمة حيويتها وعنفوانها وسلطانها الحضاري في:

- التربية: كعملية منهجية شاملة ومتكاملة لتثقيف المجتمع ورفع وعيه إلى مستوى ما تستلزمه سنن الله في الخلق والتسخير والاستخلاف.
- الدعوة: كحركة تعريف بالإسلام وتأسيس للوعي به وبسنن الله في التمكين له في الأرض.
- القدوة: كحركة تجسيد ذاتي له في حياة الأفراد وأداء المجتمع والأمة.

- **القيادة**: كحركة تجسيد اجتماعي للإسلام في واقع الحياة، بما يسمح له بأن يقود أو على الأقل يساهم بفعالية في قيادة حركة التدافع والتداول والتجديد الحضاري في الأرض.

- **القوامة**: كحركة تأطير للفعل الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعمراني عامة في العالم، بما يسمح لحركة الاستخلاف البشري في الأرض أن تسير في اتجاه الخيرية والتكاملية الحضارية.

- **الشهادة**: كحركة تقويم ومعايرة،وتقويم وحكم على مصداقية الجهد العمراني البشري في عالم الشهادة، ومواجهة تقويمية للبشر في عالم الآخرة بعد ذلك.

ومع أن كثيراً من الشباب المسلم، يتحرك للعمل في سبيل الله بإخلاص وحماسة واحتسابية، وأن معظم هفواته تأتي من اضطراب الفهم والوعي، وعدم كفاءة واستقامة وسائل وأساليب الإنجاز، أي البعد المنهجي في «الدورة الإنجازية» لفعله، فإننا مع ذلك ندعو إلى شمول العناية للأبعاد الخمسة السابقة في مناهج التربية والتكوين، وبرامج

الدعوة والبناء والمواجهة أو الحماية، حتى نضمن شروط التوازن في الفعل الالتزامي الذاتي للمسلم، وفي فعله الدعوي التجديدي الرسالي على حد سواء.

إن المسلم المعاصر يقوم بدوره الرسالي في عالم تعيش فيه البشرية ثورة مدهشة في القدرات الإنجازية، أي في طرق ومناهج تحري الدقة في فهم الأمور، وإنجاز الأعمال، مكنت القوى المناوئة للإسلام من تعويق حركته، بل من شلها في بعض الظروف والأماكن، وهو ما يستدعي حركة بنائية مكافئة في أصالة وفعالية واطرادية ومصداقية فعلها الدعوي التغييري التجديدي.

إنه من غير المقبول أن يظل الجهد الإسلامي هزيلًا ضعيفاً، وهو ينتسب إلى الإسلام، هذا الدين العظيم الذي يتفجر حيوية وعنفواناً وقوة،ويستوعب كافة الظروف التي من شأنها أن تلم بالإنسان، ويضع بين يدي أتباعه المعالم الهادية للتكيف واطراد الفعالية، كما نبه إلى ذلك العلامة ابن باديس رائد التجديد الحضاري في الجزائر والمغرب العربي

عندما قال: «تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولكنها لا تستطيع بإذن الله أن تتلفنا».

أي إنّ الظروف مهما بلغت قسوتها علينا، ومعارضتها لآمالنا أحياناً، فإنها لن تستطيع أن توقفنا عن الحركة الفاعلة - ولو كانت بطيئة - نحو غايتنا التي نستميت من أجلها وهي:

- أن نعيد تأسيس وعي المسلمين برسالتهم في الحياة.
- أن نجعلهم يعيشون الإسلام عقيدة ومنهاجاً ونظاماً للحياة.
- أن يعيشوا له بعد ذلك بكليتهم، وأن يكون ولاؤهم له وحده، في بناء مجتمعاتهم، وتهيئة الشروط الموضوعية لإعادة بناء وحدة أمتهم، واستئناف دورتهم الحضارية الثانية من جديد.
- أن يضطلعوا برسالتهم الحضارية التنويرية في العالم، بوصفهم قوة توازن عالمية وإنسانية وكونية مركزية، من خلال واجبات الدعوة والقدوة والقوامة والشهادة، التي تخولها لهم المرجعية الرسالية المتميزة، التي استأثرت

بجوهر الوعي الرسالي ورشده كله.

ونحن إذ نركّز في هذه الرسالة على الواقعية في الدعوة إلى الإسلام، وفي التمثُّل الذاتي لقيمه، وفي التجسيد الاجتماعي لنموذجه الحضاري، وفي المحافظة على منجزاته، فلاعتقادنا أنها من أبرز سمات الإسلام وخصائصه الفريدة المعجزة من جهة، وليقيننا كذلك أنها من الشروط الجوهرية التي تحقق أصالة وفعالية الفعل الدعوي التجديدي من جهة أخرى، وتضمن اطراديته ومصداقيته من جهة ثالثة.

فالواقعية كما يعرضها الإسلام في مضمونه العقدي والمعرفي والمنهجي، تعتبر أمراً ضرورياً لازماً للحياة البشرية، لا تستطيع أن تنهض من دونه. ذلك لأن الحياة «معاناة واقعية»، وهو ما يسميه القرآن بالمكابدة في مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد٩٠/ ٤]. سواء في مرحلة التدافع، أو مرحلة التداول، أو مرحلة التجديد، ومحاولة دائمة لمواجهة واقع معين لا مفر من مواجهته، بما فيه من مشكلات أو مشاق، ويحتاج الأمر دائماً

إلى «الروح الواقعية» في هذه المواجهة، وإلّا تراكمت المشكلات والمشاق بدلاً من أن تحل، وأصبحت الحياة غير محتملة أو غير معقولة، أو غير ممكنة على الإطلاق"[1].

فالواقعية كما نريد عرضها في هذه الرسالة، وندعو إلى العناية الخاصة بها، هي شرط التوازن الذاتي، وسبيل إعادة الحيوية والقوة والتأثير للفعل الدعوي التجديدي الإسلامي المعاصر، من دونها يظل هذا الجهد التجديدي عرضة للتناقض والإهتلاك والتآكل الذاتي، والهدر والاستنزاف الخارجي.

❁ ❁ ❁

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية ٢/ ٣٥٢.

الباب الأول [1]

الخصائص المبدئية
للدعوة الإسلامية ومقوماتها الحركية

(١) ويحتوي على فصلين.

الفصل الأول:

خصائص الواقعية المنهاجية للدعوة الإسلامية

الفصل الثاني:

مقومات الواقعية الحركية للدعوة الإسلامية

تمهيد

يتمحور اهتمامنا في هذا الباب حول تبيان:

- المنطلقات والخصائص المبدئية العامة للدعوة الإسلامية، التي تعتبر غايات يستهدفها نشاط الإنسان المسلم، ويتجه نحو تحقيقها، وموجهات يتحرك في إطارها، ويتأطر بثوابتها بصفة مستمرة، للمحافظة على ذاتيته الثقافية وهويته الحضارية، فلا يتبعثر، ولا يتنافر، ولا يتآكل، ولا يتميع أو ينحرف عن غاياته الروحية وأهدافه الاجتماعية والحضارية.

- المقومات والضوابط الحركية الكلية، التي تحكم نشاط المسلم وتوجهه بأصالة وفعالية واطراد، نحو تحقيق هذه الغايات والأهداف الكبرى، التي فيها قوة الفرد والمجتمع والأمة.. وسعادتهم في العاجلة والآجلة.

والذي يتأمل في مقاصد وغايات هذا الدين، ويدرس أسلوبه ومنهجه في تحقيق مقاصده في الخلق، يجد أن أبرز خاصية فيه هي خاصية الواقعية:

- **واقعية المبادئ والأهداف**: أو التصميم النموذجي الذي يعطي للإنسان رؤية شمولية متكاملة ومتوازنة عن «دورته الوجودية» في أبعادها ومراحلها المختلفة، فيتحرك في هذه الحياة وهو على وعي كامل بذاته وطاقاته ووظيفته.. والعلاقات التي تربطه ببقية الكائنات الأرضية والكونية الأخرى، فيأخذ ما له ويعطي ما عليه، وينأى بنفسه عن كل ما لا يحافظ على شرف آدميته، أو يمس بكرامته.
- **واقعية التطبيق والممارسة**: أي بناء القدرات الإنجازية عند الإنسان، عبر تأسيس الوعي بالكليات الأربع الناظمة لحركة الاستخلاف في الأرض، وهي **كلية الابتلاء**، و**كلية التدافع**، و**كلية التداول**، و**كلية التجديد** من جهة، وتعميق الوعي

بمنظومات سنن التسخير؛ في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من جهة أخرى، التي أودع فيها الله سبحانه كل الطاقات والإمكانات والقوانين التي تتطلبها حركة الاستخلاف في الأرض، وتستلزمها مواجهة التحديات التي تفرزها حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** باستمرار.

فمبادئه كلها واقعية ممكنة الفهم والتطبيق، بل واجبة التطبيق، لأن التوافق النفسي والانسجام الاجتماعي والتكامل الكوني.. في حياة الكائن البشري، لا يتم إلّا بهذه المبادئ مجتمعة. فكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق، وإذا لم يأكل، أو يشرب يموت، لمخالفة سنن الله في الحياة، فإن أي انحراف عن أي جزء من أجزاء الإسلام، يحمل في طياته عقوبته التي تحيق بالمنحرفين عنه. فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان أو للطبيعة المسخرة له، ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر، ومن فرط في واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب في يوم آخر.

وهكذا دواليك، فما من انحراف عن أي جانب من جوانب الإسلام، إلّا وتقابله عقوبة تليق به في الدنيا قبل الآخرة! لأن الانحراف عن قوانين الله في الكون والإنسان والاجتماع، دائماً ليس لصالح الإنسان، بل هو تدمير له وتعذيب"[1].

لقد كتب على البشرية أن تؤدي ضريبة الانحراف والنكوص عن سنن الله،كما نبه إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه ٢٠/ ١٢٤].. حروباً رهيبة ضحاياها بالملايين، قتلى وجرحى ومشوهين، ومعتوهين ومعذبين، وأزمات تلو أزمات إذا قلّ الإنتاج، وأزمات إذا زاد الإنتاج... وأزمات إذا قل النسل، وأزمات إذا زاد النسل، وتخبط من هنا وتخبط من هناك، وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار، وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم"[2].

وسنحاول هنا إجمال القول في الواقعية الإسلامية، من

---

(١) سعيد حوى، الإسلام ٤/ ٧، ٢٣.

(٢) سيد قطب، معالم في الطريق ٥.

خلال محورين أساسيين هما:

- **محور الواقعية المنهاجية**: الذي نستعرض فيه بتركيز، البنية الهيكلية الفكرية العامة، التي تتأسس عليها نظرة الإسلام إلى الإنسان والحياة والكون، والعلاقات التسخيرية التكاملية المترابطة التي أرادها الله سبحانه أن تكون بينها من ناحية، ثم العلاقة العقدية التي يجب أن تكون بينها مجتمعة وبين الله الخالق المستخلِف من ناحية أخرى.
- **محور الواقعية الحركية**: الذي نستعرض فيه بشيء من التفصيل، الأصول الكلية العامة التي تتأسس عليها المنهجية الإجرائية أو الإنجازية المتكاملة، التي يضمن الإسلام عبرها أصالة التغيير، ويحقق بها فعاليته الاجتماعية والحضارية، ويوفر له حيوية الاطراد والتجدد بشكل دائب.

۞ ۞ ۞

الفصل الأول

خصائص الواقعية المنهاجية

مفهوم المنهاجية

ونقصد بالمنهاجية هنا: المنهج محتوى عقدياً ومعرفياً وثقافياً معيارياً أو مرجعياً ضابطاً، يتضمن كليات وأصول تأسيس الوعي «بالدورة الوجودية» للإنسان؛ في منشئه وطبيعته ووظيفته ومصيره، وكليات القيم الاجتماعية التي تحكم أنظمة حياته وتوجهها باستمرار، نحو المزيد من الانسجام والتكامل والأصالة والفعالية.

ولا شك أن تأسيس الوعي بهذه المنهاجية العقدية والمعرفية والاجتماعية.. شكل القضية الوجودية أو الفلسفية المحورية الكبرى، التي تمحور ويتمحور حولها الهم

والاهتمام البشري باستمرار، والتي اضطرب فيها الفكر الوضعي وصنوه الغيبي المنحرف، قديمًا وحديثاً، اضطراباً كبيراً، نجمت عنه كل المآسي التي عاشتها وتعيشها الإنسانية، وستظل تعيشها إلى أن تغير ما بها من انحراف في الوعي والسلوك وأنظمة الحياة.

فنحن هنا سنركز على تبيان لماذا كانت مبادئ الإسلام واقعية بهذا الشكل الفذ المعجز؟ وسوف لن نتوسع في الحديث، لأن الذي نريد الاهتمام به هو الواقعية الحركية خاصة، التي تُعدّ في الحقيقة تعبيراً عن الواقعية المنهاجية وتجلياً عملياً لها.

سنحاول رسم الخطوط العريضة لواقعية المنهج الإسلامي، من خلال إبراز أهم خصائصه المبدئية، التي تحكم الواقعية الحركية وتوجهها وتكيفها باستمرار، لأننا نلاحظ أن بعض الجهود الدعوية التجديدية، حولت بعض القواعد والوسائل والأساليب والآليات الحركية بصفة عامة.. إلى مبادئ وغايات تقصد لذاتها! والسبب في ذلك ـ كما نرى ـ هو

ضعف الوعي بهذه الخصائص المبدئية أو نسيانها والغفلة عنها، ولو أن هذه الخصائص كانت نامية وواضحة في أذهان وعقول بعض الفعاليات الدعوية، لما استقطبتها بعض المفاهيم الجزئية بهذه الحدية الصارمة، ولما ناهضت استعمال بعض الوسائل والأساليب المرحلية؛ باسم المبدئية والاتباعية ومناهضة الابتداعية..! أو لما تسيب بعضها وتميعت الجهود الدعوية على يديه؛ باسم المرونة والمصلحة، وطلب السلامة والرفق، والحذر والاحتياط...! إلى ما هنالك من العوامل والأسباب والمؤثرات الموضوعية وغير الموضوعية التي يُتذرع بها لتبرير هذه المواقف والمسلكيات.

الأهمية الوظيفية للوعي بالخصائص المنهاجية للدعوة

فالخصائص المبدئية تؤدي دوراً وظيفياً جذرياً في تأطير عملية الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة على السواء، فهي:

- تؤدي دوراً أساسياً في إبراز الذاتية العقدية والروحية للدعوة الإسلامية، وتمييز هويتها الحضارية المستقلة، عن بقية الذاتيات والهويات الثقافية والحضارية

الأخرى، المنافسة أو المناوئة، ووقايتها من أي تشويه أو تمييع أو تحريف.. قد يسيئ إليها، أو يؤثر سلباً على طبيعتها واستقلاليتها وتميزها ومصداقيتها.

- وتقوم بدور الموجه والمنظم أو المؤطر لحركة الالتزام الذاتي للأفراد والجماعات، وتحميها من أي تشويه أو تمييع أو انحراف.. بما تضعه أمامها من موازين وقيم معيارية كلية ضابطة، تستقطب اهتمامها دوماً، وتمارس دور المصحح والمقوم لجهدها الالتزامي؛ في خاصة نفسه أولاً، ثم في سائر علاقاته الاجتماعية الأخرى ثانياً.

- وتؤدي كذلك دور الموجه والمنظم أو المؤطر لحركة الدعوة والبناء والمواجهة؛ بما هي حركة تأسيس للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، وتغيير للواقع الاجتماعي، وارتقاء مستمر به، نحو المزيد من الانسجام والتكامل والأصالة والفعالية واطراد الحيوية الحضارية.

فالخصائص المنهاجية للدعوة الإسلامية، ومن خلال

هذه الأدوار الحيوية الرئيسة التي تؤديها، تحفظ حركة التغيير والتجديد من الانحراف نحو التفريط أو الإفراط، وتشدها شداً محكماً نحو الوسطية الإسلامية المتوازنة، التي تمنح الحركة التدافعية للمجتمع والأمة.. فعاليتها البنائية والإشعاعية النموذجية القصوى، في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري.

لذا يجب الاهتمام الشديد بها، والعمل على استيعابها جيداً، وتعميم نشرها بين المسلمين كلهم؛ عامتهم وخاصتهم، مع الحرص على ضبط مفهوماتها ومضامينها العقدية والفكرية والوظيفية أو الحركية.. ضبطاً دقيقاً محكماً، حتى لا تبقى عرضة للتأويلات الشاذة، والتفسيرات المغرضة، والقراءات الإسقاطية المستلبة.

وهذه بعض الخصائص المبدئية الكبرى التي نركز عليها هنا في هذه الرسالة[1]:

(١) للتوسع انظر: خصائص التصور الإسلامي، ومقومات التصور الإسلامي لسيد قطب، الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي، أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، المذهبية الإسلامية لمحسن عبد الحميد، معالم المنهج الإسلامي لمحمد عمارة..

ربانية المصدر والوجهة

ونقصد بها هنا: أن الدعوة الإسلامية تستمد مصدر شرعيتها وأصالتها وحجيتها.. من الإيمان بالله وحده، وما ينبثق من ذلك من قيم عقدية، ووعي بسنن التسخير والاستخلاف، تفسر حركة الاستخلاف، وتؤطر صيروراتها الحضارية المتعاقبة.

فالربانية اعتقاد جازم راسخ، بأن الإسلامية شرعة الله الذي خلق الإنسان فسواه وعدله، وأودع فيه من الطاقات العقلية والعاطفية والروحية والجسمية.. ما يعينه ويؤهله لتحقيق شروط الاستخلاف في هذه الأرض، عبر العبودية لله؛ بكل ما تعنيه من شكر لنعمة الوجود والتكريم والتسييد والهداية والرعاية من ناحية، وسير دائب في مناكب الأرض لعمارتها والاستمتاع بخيراتها من ناحية أخرى، وتوقان متجدد إلى وراثة الجنة والفوز برضوان الله تعالى في نهاية المطاف الوجودي.

ومن هنا فإن الربانية بوصفها خاصية أساسية للدعوة

الإسلامية، تعني أن يستمد المسلم كل تصوراته ومفاهيمه عن «دورته الوجودية»،وعن أحكامه ومواقفه وسلوكاته.. من شريعة الله المفصلة في الكتاب والسنة، فهي المحور الذي تدور عليه حركته كلها، والقطب الذي تتجه وتنجذب نحوه هذه الحياة برمتها.

وكون الشريعة الإسلامية ربانية المصدر والوجهة، يعني أنها واقعية بالضرورة، لأنها صادرة من خالق الإنسان والحياة، فهي متضمنة لكل ما يحتاجه هذا الإنسان لتوافقه النفسي وانسجامه الاجتماعي والكوني، في جميع الحالات التي يكون عليها والظروف التي يمر بها.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة الكبرى، يجب أن يستيقن كل مسلم، وخاصة من أكرمه الله تعالى بإمامة المتقين،وقيادة الخلق إلى التوافق الذاتي والاجتماعي والكوني، أن من مستلزمات الربانية:

- وجوب خضوع نشاط المسلم؛ في دوافعه ومبرراته وآلياته الإنجازية.. للضوابط الشرعية باستمرار، من

خلال محاكمة كل مبادراته الفكرية والاجتماعية.. إلى المرجعية الإسلامية، ومعايرتها إليها؛ في أصولها وثوابتها العقدية والفكرية والمنهجية العامة.

وفي الحديث الصحيح، نبّه عليه الصلاة والسلام بوضوح وحسم، إلى فرضية وضرورة الحرص على مشروعية الفعل باستمرار، وحذر من أخطار الغفلة عن مراعاة المشروعية والأصالة، في كل ما يصدر عن المسلم فرداً أو مجتمعاً.. من أفعال ومواقف ومبادرات فقال عليه السلام: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**[1].

فالفعل يكتسب من الأصالة والفعالية والقابلية للاطراد، بقدر ما تستكمل **«دورته الإنجازية»** للبعد التأسيسي الأول فيها، وهو بعد المشروعية، وتضعف أصالته وفعاليته وقابليته للاطراد، بقدر ضعف استكمال بعد المشروعية في هذه الدورة.

- وجوب تصحيح القصد والتوجه، ليكون خالصاً لله

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٣٢٤٢.

وحده على الدوام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف ١٢/ ١٠٨]. وقال سبحانه كذلك: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل ١٦/ ١٢٥].

فالدعوة تكون ربانية، إذا كانت وجهتها مرضاة الله تعالى، وسبيلها شرعه وسننه سبحانه وتعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وتفقد صفة الربانية والمشروعية والأصالة، إذا كانت دعوة لشخص أو مذهب أو جماعة أو حزب أو طائفة على حساب قيم التوحيد والوحدة... أو كانت تستهدف تحقيق غرض من أغراض الدنيا المعزولة عن الآخرة، كالحصول على منصب رفيع، أو تحقيق جاه عريض، أو جمع مال وفير، أو امتلاك القدرة لتنفيذ شهوة، كالانتقام من الآخرين، أو هتك ما حرم الله من الأعراض...

فالحركة في سبيل الله، ملزمة شرعاً باستشراف كل أبعاد ومعاني الربانية، في خطواتها العملية وسيرها الميداني، لأن نجاحها متوقف على مقدار ما تحققه وتتحقق به من شروط الربانية، المجملة في قول الفضيل بن عياض رحمه الله، تعقيباً على قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك٦٧/ ٢]، فقال: «أي أخلصه وأصوبه».

عالمية المدى والإطار

أي إنّ الدعوة الإسلامية دعوة للبشر كافة، لا تختص بقوم دون قوم، أو مجتمع دون مجتمع، أو طبقة دون طبقة.. ولا تستأثر بها فئة من الناس دون غيرها.. كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان ٢٥/ ١]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ ٣٤/ ٢٨]. وقال كذلك: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف ٧/ ٥٨].

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث طويل: «أُعطيتُ

خمساً.. » وذكر منها: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة» (متفق عليه).

وعلى هذا الأساس، فإن عمل المسلم كله، يجب أن يندرج في سياق تحقيق عالمية الدعوة،بل وكونيتها، وأن يحررها من النزعات الذاتية والقبلية،والفئوية والطبقية، والإقليمية والقومية العرقية.. لأن ذلك يسيء إلى قيمة جوهرية فيها، وهي إنسانيتها وكونيتها، التي تمتد لتحقيق التناغم والانسجام؛ ليس بين البشر فيما بينهم فحسب، بل بين البشر وبقية العناصر والمكونات الكونية الأخرى، ذات العلاقة التسخيرية والاستخلافية بالإنسان.

فمن يدرس شريعة الإسلام يلحظ كيف تتجه قيمها وأحكامها وتوجيهاتها ـ في أصولها الكلية ـ للإنسان عامة، وتلبي حاجاته الروحية والفكرية والاجتماعية، وتحفظ حقوقه الآدمية بغض النظر عن دينه وعرقه ومركزه الاجتماعي.. وبذلك يبلغ الإسلام قمة الواقعية المنهاجية أو التشريعية، التي بإمكان كل البشر أن يتنسموا فيها أجواء

الحرية، ويساهموا في إغناء حركة الاستخلاف والخيرية في الأرض. وهو ما نجده مجسداً فعلاً في الحضارة الإسلامية على مر التاريخ، حيث عاشت في ظل الحكم الإسلامي كل الأجناس والثقافات والديانات[1].. ولم تهضم حقوق أصحابها، أو يمتد إليهم التضييق، إلّا في حالات معدودة، كانوا هم السبب في وضع أنفسهم تحت طائلة القوانين السارية في المجتمع، بما كان يحدث من بعضهم من خيانات عظمى، وخروج عن الأعراف المعروفة، وتهديد للمصالح العليا للمجتمع والأمة!

شمولية التأطير والاهتمام

ونقصد به امتداد عناية الشريعة الإسلامية لتغطية كافة اهتمامات الإنسان العقدية والروحية والفكرية والاجتماعية.. وتأطير حركة حياته بما يسمح لفطرته واستعداداته وعبقريته من التفتح والتكامل والتوازن والانسجام، وهي المطالب

(١) انظر: من روائع حضارتنا للسباعي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للقرضاوي، عالمية الدعوة الإسلامية لعلي محمود عبد الحليم، شمس العرب تسطع على الغرب لزيغريد هونكة، حضارة العرب لغوستاف لبون...

الكبرى التي أخفق الفكر الوضعي والديني المحرف في تحقيقها، وظلت تشكل معضلات إنسانية كبرى، تحد بصورة خطيرة من طموح البشرية إلى الاستمتاع المتوازن بالحياة.

فالدعوة الإسلامية وسعت بشمول مبادئها وأحكامها الفرعية جميع شؤون الحياة، واستوعبت حاجات الإنسان كافة، ووفقت بين مقاصده جميعاً[1]؛ العقدية والروحية والفكرية والاجتماعية.. من خلال:

- **تنظيم وتأطير علاقة الإنسان بخالقه:** وتخليصه من الفراغ القاتل الذي يحدثه القصور أو الإخفاق في منح الإنسان الإجابة عن أسئلة البداية والمنشأ والطبيعة والوظيفة والمصير.
- **تنظيم وتأطير علاقة الإنسان بنفسه:** وتغطية كل حاجاته الجسمية والفكرية والروحية.. بتوازن وتكامل وانسجام، يحفظ وجوده من التجزيئية والتصادمية التي كثيراً ما لا تسمح بالتنمية الشاملة لكل أبعاد ومكونات الكيان الإنساني.

(١) حسن الترابي، الإيمان وأثره في الحياة ٩٧.

- **تنظيم وتأطير علاقة الإنسان بغيره من الناس:** ووضع خريطة محكمة لمنظومة الحقوق والواجبات والأفضليات والأريحيات.. التي تحفظ توازن المجتمع، وتمنحه أجواء الحرية المبدعة.

- **تنظيم وتأطير علاقة الإنسان بالمحيط الكوني:** بكل عناصره ومكوناته المنظورة وغير المنظورة، ذات العلاقة التسخيرية والاستخلافية بالإنسان.

فالدعوة الإسلامية من خلال هذا الشمول في الاهتمام، نظرت إلى الإنسان نظرة واقعية سليمة متوازنة، خالية من كل غلو أو تطرف، فهو في منظورها مخلوق متميز، مكرم مسؤول، مكلف بعبادة الله وطاعته، عن طريق تحقيق شروط ومستلزمات الاستخلاف في الأرض.

وفي علاقته بنفسه بينت له أنه مادة وروح، وعقل وعاطفة، وفرد وجماعة.. وليس هو واحداً من هذه الجوانب فقط، بل إنّه هي جميعاً مؤتلفة متكاملة متسقة.

وفي علاقته بغيره من الناس، بينت له حقوقه وواجباته:

- في الأسرة: ذكراً وأنثى، صغيراً وكبيراً، ابناً وأباً وأماً، وعماً وخالاً قرابة عامة..

- في المدرسة: معلماً ومتعلماً، مسؤولاً وعاملاً...

- في المجتمع: فقيراً وغنياً، مريضاً ومعافى، ظالماً ومظلوماً، عالماً وجاهلاً، مسلماً وغير مسلم...

- في العلاقات بين الدول والكتل الحضارية: ضبطت قواعد محكمة لتوجيه السير، وضمان حقوق العباد.

- وهكذا، فما من شيء صغير أو كبير، له صلة قريبة أو بعيدة بشؤون الحياة الإنسانية، إلّا وللشريعة حكم وتوجيه فيه، سواء بالنص أو بالقرينة أو بالإحالة على حركة الاجتهاد المقاصدي المنضبط.. قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام ٦/ ٣٩]. وقال تعالى متوعداً أولئك الذين يحاولون تجزئة الإسلام، والاكتفاء منه ببعض ما يوافق أهواءهم ويلبي رغباتهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا

جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة ٢/ ٨٥].

- فالدعوة الإسلامية تستلهم في خطواتها العملية التفصيلية، كل هذه المعاني والأبعاد، وتتحرك عبر هذه الآفاق الواسعة، لتغطي كل حاجات الإنسان، وتجيب عن جميع تساؤلاته، حتى ما يتعلق منها بعالم الآخرة. وأي غفلة عن أي جانب من الجوانب السابقة، ستظهر آثاره الخطيرة في حياة الإنسان وحركة المجتمع، في شكل أمراض عضوية نفسية واجتماعية وفكرية.. تهدد أمن واستقرار البلاد والعباد.

- فكل دعوة تقوم باسم الإسلام، لا يتسع مشروعها ومنهجها ليشمل:

- حياة الإنسان كلها: الروحية والعقدية والفكرية والسلوكية حركة المجتمع كلها: الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.. تعتبر دعوة جزئية، لا يمكنها أن

ترقى إلى مستوى عظمة الإسلام، ولا إلى مستوى التحدي الكبير الذي تواجهه الأمة الإسلامية خاصة والإنسانية عامة.

وهذا لا يعني أن هذه الاتجاهات الجزئية لا دور لها في حركة الدعوة والتجديد، بل يعني فقط أن اعتقادها بأنها وحدها البديل الإسلامي المطلوب، خطأ كبير يجب تصحيحه، بإعادة هذه الاتجاهات إلى وضعها المناسب، وإطارها الحقيقي «كجزء من كل»، فتعمل وتساهم على هذا الأساس الذي يعطيها القوة والفاعلية، لأنها اختصت في مجال محدد وتفرغت له.

جذرية أو عمقية النزعة والتوجه

إذا كانت الشمولية تعني في ظاهرها الامتداد الأفقي، الذي يغطي كل مظاهر الحياة الإنسانية، عبر تنظيم العلاقات الخارجية داخل المجتمعات، والتنسيق بين مختلف جوانب مكونات الشخصية الإنسانية، فإن الجذرية تعني الامتداد الرأسي أو العمودي أو «العمقي»... أي إنها تمثل

البعد السنني الفطري الإنساني للتغيير والتجديد:

- في النفوس: فكراً وتصوراً وسلوكاً..
- في العلاقات: والنظم والأدوار الاجتماعية..

حيث تستهدف عملية التغيير والتجديد.. التوافق والانسجام مع النظم أو الأنساق السننية الفطرية المرجعية للحياة، ولا تتوقف عند الأنساق المرجعية العرفية التاريخية، باعتبارها أنساقاً تابعة، وليست أنساقاً مستقلة مثل الأنساق السننية الفطرية.

فالنزعة الجذرية توق أو طموح واقعي متجدد، ينقل الأفراد و المجتمعات والحضارات، عبر مراحل متدرجة، من التسيب إلى الالتزام، ومن تذرذر الولاء وتميعه إلى انشحاذه وتحريره، ومن التلفيق إلى التعميق، ومن المصادمة للسنن إلى الانسجام والتناغم مع هذه السنن.

فالجذرية رفض للسطحية والشكلية أو المظهرية في التغيير الإسلامي، ودعوة أصيلة إلى استئصال مظاهر الانحراف العقدي والفكري والسلوكي والاجتماعي.. من

جذورها في أغوار النفس، وفي أعماق المجتمع، كما يؤكد ذلك القرآن وينبه إليه في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد١٣/ ١١].

وعلى هذا الأساس، فإن الحلول التجزيئية والترميمية أو التلفيقية.. لا يقبلها الإسلام إن كانت هي الهدف النهائي لأصحابها، بل يدعوهم إلى استكمال التغيير، ويلزمهم بذلك إلزاماً، كل حسب ظروفه وإمكاناته، ولا يكلف الله نفساً إلّا وسعها، إن لم تفرط أو تتعسف..

هذا من الناحية المبدئية، أما من الناحية الإجرائية أو الحركية، فالأمر له وجهة أخرى، يمكن أخذ صورة عنها في الفقرات اللاحقة، التي تتحدث عن الواقعية الحركية نظرية وتطبيقاً.

ثباتية الأصول والمقومات

ويعني أن هناك أصولاً ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، هي ركائز مستقرة تدور عليها حركة الحياة الإنسانية؛ الروحية والنفسية والفكرية والاجتماعية.. والفردية والجماعية، يجب أن تنشد إليها الحياة البشرية على الدوام، وألّا

تتهاون في أمرها أبداً، لأنها الأساس الذي تقوم عليه هذه الحياة وتأخذ معانيها وأبعادها الإنسانية.

وهذه الثوابت لها صلة مباشرة بفطرة الإنسان والنظام الهيكلي للحياة، فهي تدخل في نطاق مكونات النفس البشرية، ومكونات الأنساق الهيكلية البنيوية الثابتة للحياة الاجتماعية، لذلك فهي غير قابلة للتعديل أو التطوير في ذاتها، وأي مساس بها، أو تعديل في بنيتها الهيكلية، تنعكس آثاره السلبية المدمرة على حياة الإنسان، وحركة المجتمع والحضارة..

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم ٣٠/ ٣٠]. وقال سبحانه في آية أخرى، مبيناً خطورة الخروج عن هذه الثوابت، والانفلات من هذه الضوابط والمستقرات: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/ ٧١].

قال ابن كثير تعليقاً على هذه الآية: «والمراد، لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، أي لفساد أهوائهم واختلافهم. ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وتدبيره لخلقه»[1].

وهذا مشاهد في حياة الناس، فالظروف تختلف من شخص إلى شخص، ومن بيئة إلى أخرى، والمصالح مختلفة ومتعارضة بشكل حاد... فلو فسح المجال لكل فرد ليعمل ما يشاء، مما يراه محققاً لمصلحته، لاضطرب نظام الحياة، ولفني الجنس البشري في زمن قصير!

وخير دليل على هذا ما يعيشه الإنسان الغربي ـ ومن يقلده من المسلمين وغيرهم ـ عندما آمن بالتطور المطلق وسيلة وأسلوباً في الحياة، فأدى به الاندفاع وراء رغباته وشهواته إلى الطريق المسدود، ودفع ضريبة الانفلات من كل القيود

(١) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٠.

الأخلاقية والضوابط الفطرية. كما يقول (رينيه دوبو): «إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن، تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية. إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة، عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم من دون أي تفكير..»[1].

والإسلام لكونه شريعة ربانية، جاء متضمناً لمبادئ وأصول الحياة الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، حكم بها حركة التطور في حياة الإنسان؛ الفردية والاجتماعية، ليجنب الإنسانية كل شذوذ أو فوضى، ومن هذه الأصول والثوابت: القضايا العقدية، والشؤون العبادية، والأخلاق الأساسية للمجتمع.. كالصدق والوفاء والأمانة والعفة... والآداب الاجتماعية المرتبطة بالنظام العام للشريعة، كالتسمية على الطعام، وغسل اليدين قبله وبعده، وإفشاء السلام، وعدم خلوة الرجل بالأجنبية... والنظريات الأساسية للتشريع، في

---

(١) إنسانية الإنسان ٣١.

مجال الأسرة والإرث، والعقوبات، ونظام صرف واستثمار الأموال، وقواعد الحكم، ونظام السلم والحرب.

فهذه الجوانب، من المستقرات التي لا يدخلها التطور مهما تبدلت الأوضاع والعادات والأزمان[1]. بخلاف غيرها من الجوانب المتعلقة بالوسائل والأساليب، والكيفيات التي لم ينص عليها، فإنها تتطور باستمرار تطوراً محكوماً وموجهاً بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وكما هو واضح، فإن هذا من واقعية التشريع الإسلامي المبني على علم محيط بما يحقق النمو المطرد في حياة الإنسان، وهو ما يجب على حركة الدعوة والتجديد التحرك في إطاره، وعدم الغفلة عنه مهما كانت الظروف، لأن ذلك وحده كفيل بإبراز ذاتية الدعوة الإسلامية، والمحافظة على هويتها الحضارية، وضمان أصالتها وفعاليتها واطراديتها ومصداقيتها.

اخلاقية المحتوى والوجهة

أي إنّ الدعوة الإسلامية دعوة أخلاقية في أساسها

(١) مصطفى السباعي، هذا هو الإسلام ٢/ ٩.

وآفاقها.. فهي تسعى إلى تعريف الناس بالأخلاق الربانية، ثم دعوتهم إلى إحيائها في نفوسهم، والتزامها في جميع شؤون حياتهم الفردية والجماعية؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحربية..

لأن الأخلاق هي جوهر الدعوة الإسلامية، فقد لخص رسول الله ﷺ مهمته ومضمون رسالته بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»وفي رواية: «**صالح الأعمال**»[1]، وجسّد ذلك في حياته أعظم وأروع ما يكون التجسيد، فاستحق من الله سبحانه وتعالى هذه التزكية وهذه الشهادة العظيمة، التي جاء فيها: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم ٦٨/ ٤].

ومن أتباعه نكتفي بهذه الشهادة البليغة الدقيقة، من السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، التي عاشت في بيت النبوة طويلاً، وخبرت حياة رسول الله من الداخل، وعرفت دقائقها، فقالت عندما سئلت عن خلقه ﷺ: «كان خلقه

(١) رواه مالك في الموطأ.

القرآن»[1]. أي صار امتثال القرآن بالنسبة إليه سجية وخلقاً، وترك طبعه الجبلي، فما أمره القرآن فعله وما نهاه عنه تركه»[2].

وفي هذا السياق الذي يبرز عظمة الأخلاق ومكانتها في الإسلام، يقول ﷺ فيما رواه عنه أنس بن مالك ﷺ: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم**»[3]. ويقول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق**»[4].

وقد أورد ابن الأزرق في بدائعه نموذجين تطبيقيين، لآثار حسن الخلق نذكر أحدهما على سبيل المثال:

قال: كان محمد بن سحنون أيام قضائه بإفريقية، إذا

(١) رواه أبو داود والنسائي.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٦/ ٧.

(٣) انظر كذلك حديث: «أتدرون من المفلس..؟»، وحديث: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»...

(٤) الهيثمي، مجمع الزوائد ٨/ ٢٠.

قعد للتدريس أتاه إنسان يتخطى رقاب الناس حتى يصل إليه، فيحدثه ساعة في أذنه ثم ينصرف، فبقي كذلك مدة، وكان إذا أقبل يقول القاضي لجماعته: أفسحوا له، ويأتي فيفعل العادة، ثم انقطع بعد ذلك مدة، فسأل عنه من حضره، فقالوا لا نعرف خبره، فقال: اطلبوه فإذا وجدتموه فأتوني به، فوجدوه فأتوا به إليه، فأخذه وخلا به وقال له:

ما منعك من عادتك، فقال له: يا سيدي لي بنات قد كبرن واحتجن إلى التزويج، وأنا فقير فقال لي بعض الناس: إن أغضبت فلاناً فنحن نزيل فقرك، ونجهز بناتك، أو كما قالوا،فبقيت تلك المدة أجيء إليك، فأقذفك وأشتمك، وأفعل ما قد رأيت، لعلك تغضب يوماً، ليحصل لي ما اتفقوا عليه، فلما أيست من غضبك، تركت ذلك، إذ لا فائدة فيه، فقال له: لو أخبرتني كنت أقوم لك بضرورتك، ثم قال له: أعليك سفر؟ فقال يا سيدي أي شيء أشرت به علي فعلته، فأمر الكاتب أن يكتب له كتاباً بالوصية عليه إلى نوابه في البلاد، وأنه مستحق ممن يعتني به القاضي، فسافر إلى البلاد،

ثم رجع ومعه من الأموال ما أزال فقره وجهز بناته[1].

وذكر بعضهم علامات لحسن الخلق، ونبه إلى أن من استوفاها من الناس، كان متخلقاً،واستحق بذلك نيل رضا الله تعالى، وكُتب له القبول عند الخلق، والحظوة بمحبتهم ومتابعتهم له، إن كان من أئمة الإصلاح والتجديد.

فقال الإمام الغزالي رحمه الله، نقلاً عن يوسف بن أسباط: علاماتها عشرة أشياء:

- قلة الخلاف وحسن الإنصاف.
- ترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من سيئات.
- التماس المعذرة واحتمال الأذى.
- الرجوع بالملامة على النفس،والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره.
- طلاقة الوجه للكبير والصغير، ولطف الكلام لمن دونه وفوقه.

(١) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ٢/ ٨٥٩.

فكل من قرب منها، فهو قريب من الله تعالى... وكل من جمع كمالها استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً، يرجعون إليه ويقتدون به"[1]. وهي نعمة عظيمة لا يدركها إلّا الربانيون المجتبون.

إن الأخلاقية خاصية أساسية من الخصائص المبدئية للدعوة الإسلامية، من دونها تفقد هذه الدعوة صفتها الإسلامية، وتستوي مع غيرها من الدعوات الوضعية التي لا تهتم إلّا بما يحقق مصالحها الذاتية، ولو كان فيه هدر للكرامة الإنسانية، واعتداء على مصالح الآخرين وتفويت لها، وإشاعة للرذائل، كالكذب والغدر،والمداهنة والنفاق، والخيانة وإفساد القلوب...

فالمسلم وهو يسعى ليعيش الإسلام في نفسه، ويساعد غيره من الناس لفهم حقيقة دعوة الإسلام، والالتزام العملي بها، ملزم شرعاً بتحقيق أخلاقية تحركه كله، مهما كانت الظروف والأعذار، لأنه ثبت بالتجربة المستفيضة، أن

(١) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ٢/ ٨٥٨.

نجاح الدعوة مرتبط بأخلاقية الحركة به،وفشلها غالباً ما يأتي من التسيب الأخلاقي الذي يعتري سلوك ومواقف وأعمال بعض من يحمل دعوته،وينخرط في حركة تجديده.

قال تعالى منبهاً إلى دور الانضباط الأخلاقي في نجاح دعوة النبي ﷺ واستقطابها للناس: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران ٣/ ١٥٩].

إنسانية المحتوى و المسعى

وهي جزء أساس من خاصية الأخلاقية، أفردناها بالحديث هنا لأهميتها الخاصة في الدعوة والتجديد [1].

ونقصد بالإنسانية هنا: تناغم قيم ومقاصد الدعوة مع فطرة الإنسان، واستجابتها العميقة لطموحه أو توقانه نحو الكمال والمطلق، ومراعاتها في الوقت نفسه لثقل البشرية أو الترابية في حياته، فتتحرك به باستمرار من الواقع إلى الكمال

---

(١) انظر التفاصيل في رسالتنا عن: التغيير الإسلامي: خصائصه وضوابطه.

والمطلق، الذي ينسجم فيه مع ذاته، ومع محيطه الاجتماعي والكوني.

من هنا فإن الدعوة تعمل على تنمية ذلك الإحساس الوجداني العميق الذي يغمر كيان المسلم، بسبب تنامي حب الخير للناس، والشفقة عليهم، والرحمة بهم في نفسه، فهو دائم التفكير فيهم، شديد الاهتمام بهم، يقلقه بل ويؤلمه انحرافهم، ويؤرقه احتياجهم، ويفرحه بل وتسعده استقامة حالهم، وتحقق مصالحهم...

ويكفي أن يتأمل المسلم نماذج من سيرة رسول الله ﷺ، من خلال بعض التوجيهات القرآنية والمواقف العملية، ليدرك مدى القمة التي بلغها في نمو الخصائص الإنسانية في حياته عليه الصلاة والسلام.

النموذج الأول: ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة ٩/ ١٢٩]. أي إنّه ﷺ يشق عليه ضرركم، وتعظم رغبته في

إيصال خيري الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق، والأب الرحيم في حقكم"[1].

لذلك يحزن ويتألم وتذهب نفسه حسرات، عندما يرى الناس من حوله ناكصين عن الحق، شاردين في متاهات الضلال. قال تعالى مسلياً رسول الله ﷺ، وموجهاً إياه للاهتمام بالدعوة والتذكير، وتنويع الوسائل والأساليب، والتقليل من هذا التحسر على إمعان المشركين في غيهم: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل ١٦/ ١٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر ٣٥/ ٨].

وفي سورة الكهف جاء قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف ١٨/ ٦]. أي لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم، فإنّا بعثناك منذراً ومبشراً، فأما تحصيل الإيمان في

(١) الرازي، التفسير الكبير ١٦/ ٢٣٥.

قلوبهم فلا قدرة لك عليه[1].

النموذج الثاني: وفي السيرة أنه عندما خرج ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة، ويبحث للدعوة عن منافذ جديدة، أوذي إيذاء لم يؤذ مثله في حياته قط كما صرح بذلك في إحدى أحاديثه مع السيدة عائشة رضي الله عنها[2]... وبينما هو في تلك الحال جاءه ملك الجبال وعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: **«لا بل استأن بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً»**.

وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تطيع، فقال: **«أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم»**. وقال كذلك عليه السلام: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**[3].

فالذي يتأمل هذه المواقف العملية، يلاحظ مدى حرص

(١) الرازي، التفسير الكبير ٢١/ ٧٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٣٢.

النبي ﷺ على إيصال الخير للناس جميعاً، ولو تلقى في سبيل ذلك المتاعب الجمة. وهذا دليل على ما أُشرِبَه قلبه من حب الناس، والشفقة عليهم، والرحمة بهم.. وهي خصال لا يحصلها إلّا الربانيون الذين صفت نفوسهم، وزكت أرواحهم، وتجردوا لله تعالى، وباعوا له نفوسهم وأموالهم...

إن القلب المفْعم بحب الناس، والشفقة عليهم، والرحمة بهم.. عندما يتحرك صاحبه نحو المجتمع ليبلغه هداية الله، فإن جميع الشروط تتهيأ له لينجح في عمله، حتى ولو استغرب الناس في أول الأمر دعوته، ووقفوا في وجهها، وتداعوا لصدها، بسبب الخوف الذي يعتريهم، والهواجس التي تستبد بهم، لبعدهم عن الدعوة والداعية، وعدم توافر الفرصة لهم ليتعرفوا عليهما بهدوء وروية.

وتاريخ الدعوة الإسلامية زاخر بالمواقف التي كان للروح الإنسانية فيها دور حاسم في استيعاب الدعوة لجماهير الناس، حتى أولئك العتاة المعاندون الذين أوقفوا أموالهم وأنفسهم وجاههم وسلطانهم، وسخروا عقولهم للكيد

للإسلام، والفتك بدعاته، فلما أتيحت لهم الفرصة، وجلسوا بين يدي الدعاة، وتفحصوا مواقفهم وأعمالهم، ثابوا إلى رشدهم، وارتموا في أحضان الدعوة الإسلامية، ليصبحوا جنوداً وقادة مخلصين أوفياء لها، في جبهاتها المتقدمة، ولسان حالهم جميعاً يردد: «كنا وما كان على وجه الأرض دين أبغض إلينا من هذا الدين، ولا ناس أبغض إلينا من هؤلاء الناس، فأصبحنا بعد الاقتراب منهم، ما على وجه الأرض دين، ولا ناس أحب إلينا، وأعز علينا من هذا الدين وهؤلاء الناس»[1].

بخلاف القلب الجافي، المملوء حقداً على الناس، وتطلعاً للانتقام منهم، فإنهم يزدادون من صاحبه نفوراً وبعداً، مهما تكلف الحب لهم، واصطنع الشفقة عليهم والرحمة بهم، لأن الأيام ستكشف حقيقة أمره، ومخبوء نفسه المريضة!

لهذه الاعتبارات كلها، كان التزام الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى بالروح الإنسانية في تعاملهم مع جماهير الناس، فريضة

---

(١) انظر تفاصيل ضافية في: الإصابة لابن حجر، صفوة الصفوة لابن الجوزي، وحياة الصحابة للكندهلوي..

شرعية،وضرورة دعوية، تحتِّمُها إنسانية المحتوى الرسالي للإسلام من جهة، ومصلحة الدعوة إليه من جهة أخرى.

إن هذه الخصائص المبدئية أو المنهاجية؛ من ربانية وعالمية وشمولية وجذرية وثبات وأخلاقية، وإنسانية.. هي الإطار المبدئي الهيكلي العام، الذي يجب أن يتحرك في مجاله نشاط الإنسان المسلم، وتتكيف به حركته الفكرية والاجتماعية باستمرار.. ليضمن له قدراً مقبولاً من الأصالة الواقعية، التي تضمن بدورها وتعطي لهذا العمل مداه التأثيري في صياغة الأحداث وتوجيهها وجهة تحقق مصلحة حركة الدعوة والتجديد.

إن العمل الذي لا يُحكم بهذه الضوابط، ولا يتجه لخدمة هذه المبادئ، عمل جزئي قد يؤدي بصاحبه إلى نقض إسلامه من حيث يدري أو لا يدري، الأمر الذي يفرض على المسلم القائم بأمر الدين، أن يستفرغ وسعه في محاولة إدراج جميع مواقفه وأعماله ومبادراته.. في سياق التأطُّر والانضباط بهذه المبادئ الكلية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وأي تهاون أو غفلة عن ـ تمثل أو استيحاء ـ أي خاصية من هذه الخصائص المبدئية، ستكون له آثار سلبية خطيرة على أصالة وفعالية واطرادية ومصداقية الجهد التجديدي، وهو ما يجب أن يحذر منه دعاة الإسلامية أشد الحذر، ويتوقوه أشد ما يكون التوقي،حتى لا يشملهم الوعيد الرباني الذي جاء فيه: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف ١٨/ ٩٩]. قال ابن كثير معلقاً على الآية: «إن هذه الآية الكريمة، تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود... وأضاف قائلاً: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾. أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة»(١).

(١) الصابوني، مختصر ابن كثير ٢/ ٤٣٨.

فليحذر العاملون في سبيل الله من تجزئة الإسلام، والجمود عند بعض جوانبه، والاعتقاد بأنها وحدها هي المقصودة دون باقي خصائصه المبدئية الأخرى، لأن ذلك يناقض «مبدأ الواقعية» الذي بنيت عليه هذه الشريعة كلها، مبدءاً وحركة، ويعطل فاعليتها في الحياة، ويوهم قاصري الوعي بالإسلام من عامة المسلمين وغيرهم من الناس، بقصور الشريعة الإسلامية، وعدم مقدرتها على استيعاب الحياة الإنسانية المعاصرة، بما فيها من سعة وتشابك وتعقيد!

وهذه فتنة على كل مسلم أن يعوذ بالله منها، من خلال استكمال بناء تصوره الإسلامي المتكامل، والتفاعل مع هذا التصور تفاعلاً شاملاً كاملاً في الميدان العملي، حين يفكر، وحين يعمل، أو حين يدعو، أو حين يواجه التحديات...

۞ ۞ ۞

الفصل الثاني

مقومات الواقعية الحركية

الدعوة الإسلامية بين المبدأ والواقع

لقد رأينا أن من مزايا الإسلام الأساسية، أنه دين الواقعية والبساطة المحكمة، في كل نظمه وتشريعاته وأخلاقياته، لا يكلف نفساً إلّا وسعها، كما لا يدع الإنسان في فوضى تفقده التوافق النفسي والانسجام الاجتماعي، يعطي لكل شيء حقه من العناية والاهتمام، من غير أن يقع في الإفراط والتفريط.

هذه الخاصية، لا تتوافر بهذا الشمول والتوازن والكمال إلّا في الإسلام وحده، والتجارب الإنسانية عبر التاريخ خير شاهد على صدق هذا الاعتقاد، ذلك لأن

الإسلام وحده هو المنهج التربوي الذي ينمي في الإنسان جميع إمكاناته، ويمكّن الأمة من الاستفادة القصوى من كل مواردها البشرية والمادية والمعنوية.. في حين تعجز كافة المناهج الإنسانية الأخرى عن تحقيق ذلك، وتوقع الفرد والمجتمع في مشكلات نفسية واجتماعية خطيرة، حينما تهتم بجوانب حياتية فردية وجماعية على حساب جوانب أخرى، فيحدث الصراع والانفصام ويكون الاهتلاك والفوضى...

غير أن المتأمل في أوضاع المسلمين الفكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية... في القرون الأخيرة، وخاصة منها القرنين الأخيرين، ورصده لاهتمامات كثير من نخبه الفكرية والسياسية:

- فيم تفكر؟ وما الذي يؤرقها ويشغل بالها؟ وكيف تفكر في ذلك؟
- ماذا تعمل؟ وما أولويات عملها؟ وكيف تعمل لإنجاز تلك الأولويات؟
- ما نتائج ذلك التفكير وتلك الأعمال؟

ثم يضع ذلك كله في ميزان سنن الله في التسخير والاستخلاف، يجد النتيجة مقلقة إن لم نقل مخيفة! ترسم خليجاً واسعاً وعميقاً بين المسلمين والإسلام خاصة، وبينهم وبين سنن التسخير والاستخلاف عامة، حيث تغيرت صورة هذا المنهج الإلهي في أذهان كثير منهم، وجهلوا أو تجاهلوا منهجيته الصارمة في مواجهة المواقف، حيث حولوه إلى أجزاء وتفاريق متنافرة لا رابط بينها، وشعارات وأشكال متضاربة! وهذا عندما استقلت كل فئة بفرع من فروعه أو جزئية من جزئياته، وجمد كل ذي رأي على رأيه، زاعماً أن ذلك هو الإسلام، وما سواه لا يعدو أن يكون ظلالاً باهتة لصورة الحق، فغابت بذلك حقائق المنهج، وغطاها جهل الناس وأهواؤهم وتعصبهم وأنانيتهم ومكرهم...

وأصبحت بعض المفاهيم الأساسية في تقويم الرجال والمبادرات معكوسة في أذهان وأعمال كثير من المسلمين، حيث صار الرجال هم ميزان الحق، أي هم الحجة على الدين، وليس الدين هو الحجة عليهم، في حين كان يجب أن يكون الإسلام هو ميزان الرجال، وفق القواعد العظيمة التي تشكل

أساس المنهج في العمل الإسلامي، وهي: «**معرفة الرجال بالحق لا معرفة الحق بالرجال**». و«**كلٌّ يُؤخذ من كلامه ويرد**» على حد تعبير الإمام مالك ﷺ. و«**أحسن العمل ما كان خالصاً صواباً**» كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله.

كما صار جلب المصالح الجزئية مقدماً على درء المفاسد الكلية، مع أن درء المفاسد الكلية مقدم شرعاً وعقلاً ومصلحة على جلب المصالح الجزئية، كما قرر ذلك علماء الأصول وغيرهم، استناداً إلى مقاصد الشريعة عامة، ولقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه خاصة**»[1].

ذلك لأن الرسول ﷺ علق امتثال الأمر بالاستطاعة، في حين سد باب النهي كله، فلم يجزه أبداً إلّا عند الضرورة التي تقدر بقدرها؛ زماناً ومكاناً وشخصاً وحالاً.. زيادة على أن الأمر يفيد طلب الفعل ولو مرة، والنهي يفيد طلب الكف عن الفعل أبداً...

---

(١) رواه البخاري.

فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة الراجحة، لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات على ما جاء في الحديث المتقدم، وإن كان في الأمر تفصيلات كثيرة من الناحية الإجرائية أو العملية، قد تجعل تقديم دفع المفاسد ليس مطرداً في كل الحالات، بل هناك من الحالات ما يستلزم تقديم جلب المصلحة، مثل ما إذا كانت المفسدة تافهة بالنظر إلى المصلحة العظيمة المترتبة على الفعل"[1].

كما يتضح ذلك من وقائع صلح الحديبية على سبيل المثال،حيث غلب رسول الله عليه الصلاة والسلام العناية بالأولويات الإستراتيجية، ولم يعر اهتماماً كبيراً للأولويات الآنية، التي ركز عليها خصومه لقصور نظرهم، فكانت سبباً فيما آل إليه الصراع بين المنظومة الثقافية الإسلامية ونموذجها الاجتماعي والحضاري، والمنظومة الثقافية الجاهلية ونموذجها الاجتماعي والحضاري. وفي الفصول التالية من هذه الرسالة، نماذج تطبيقية كثيرة عن المرونة

(١) فتحي الدريني، نظرية التعسف في استعمال الحق ٢٣٨.

الحركية أو الإجرائية المنضبطة، التي تُؤصل وتؤكد وتبرز طبيعة أو خاصية الواقعية في الدعوة الإسلامية.

وبعض الممارسات الفكرية والسلوكية والدعوية.. في الساحة الإسلامية الحركية العامة والخاصة، تبرهن بجلاء ـ لأسباب ليس هذا مجال بحثها ـ على ضعف الوعي بالأصول العقدية والمعرفية والمنهجية والحركية.. لفلسفة الدعوة والبناء والمواجهة، لدى قطاعات واسعة من الفئات المهتمة بتغيير أوضاع الأمة وإصلاح أحوالها، كما يتجلى ذلك في منطق الانتقائية والوثوقية والتبريرية والإقصائية والاستئنافية والاستعجالية.. التي تطبع جزءاً هاماً من هذه الممارسات والمبادرات والمواقف، وتغمسها باستمرار في متاهات الأنانية والتعصب والغرور والغيرة والحسد، ورفض وجهة النظر الأخرى، وتحكيم الرجال والأفكار والأشكال المؤسسية.. في الشريعة والمصالح الآنية والاستراتيجية للدعوة والدولة والمجتمع والأمة.. وعدم الجد في التمييز بين المصالح الجزئية الذاتية الآنية، والمصالح الكلية والإستراتيجية، التي من دون استجلابها، ودرء المفاسد المضرة بها، يختل توازن الأفراد

والمجتمع والأمة والدعوة...!؟

حاجة الدعوة الإسلامية إلى الواقعية

إن هذا الوضع الذي ورث جيلنا جزءاً هاماً منه، وساهم هو في إيجاد وتشكيل أجزائه الأخرى، لهو وضع خطير يعرقل جهود الراشدين من العاملين، ويشل حركتهم من أجل العودة بالمسلمين إلى رحاب التاريخ، بعد أن ظلوا زمناً طويلاً على هوامشه، وأحياناً في بعض مستنقعاته!

ولعل أجيالاً إسلامية سلفت وأخرى تواصل المسير، قد أحست بغربتها الطويلة، فتحركت لوضع حد للفوضى والتسيب والتدهور، والانطلاق في عملية البناء الحضاري من جديد، فكانت حركات الإصلاح المختلفة، وكانت الثورات الإسلامية الجهادية ضد الصليبية واليهودية والشيوعية.. ثم أعقب ذلك كله صحوة إسلامية تجديدية شاملة، يعيش العالم كله انطلاقتها القوية، في ترقب وحيطة ووجل!؟ بل ويسعى أعداء الإسلام بشتى الطرق إلى الإساءة لهذا المد الرباني التجديدي المتعاظم، وقد فعلوا الكثير في غفلة من المسلمين

حيناً، وبمساعدتهم المباشرة وغير المباشرة أحياناً أخرى؟!

والشيء الأساسي الذي يجنب المسلمين الانحراف والوقوع في شبكات التخطيط المضاد للدعوة الإسلامية هو: التزام الواقعية الحركية المنضبطة؛ في المواقف الفكرية والسلوكية والعملية.. وهذا يعني أن يدرك المسلم وهو يتحرك لبث المفاهيم، وزرع المؤسسات الإسلامية البديلة.. الممكن والمستحيل في دعوته وعمله، فينجز الممكن من غير توان ولا تأخير ولا تهور أو غرور.. ويؤجل المستحيل إلى أن يحين وقته، ويتمكن من تهيئة شروطه النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية اللازمة لإنجازه..

ولن يوفق المسلم إلى هذا إلّا إذا كان مزوداً بمنهج فكري وإجرائي أو وظيفي محكم، يحدد له المنطلقات والثوابت، ويضبط الأولويات والمستويات، ويضع بين يديه الوسائل والكيفيات المنهجية الفعالة، التي تساعده على ضمان أحسن النتائج بإذن الله. وهو ما يغفله أو يتجاهله بعض المشتغلين بالدعوة والتغيير والإصلاح على امتداد الساحة الإسلامية،

كما يدل على ذلك ما يلحظ من عدم الاهتمام بمناهج العمل، فأصبح الواحد من هؤلاء لا يهتم لما يقول أو يفعل! ولا يعير أدنى اهتمام لطريقة وأسلوب القول أو العمل، ولا يأبه بالمآلات والعواقب، بل أصبح همه الوحيد، هو أن يقول أو يعمل ما يشاء، دون أن يفكر في مآلات ذلك، وآثارها الآنية والمستقبلية على الدعوة والمجتمع والدولة والأمة والحضارة... بحجة التوكل على الله حيناً، وتفويض أمر النتائج إليه حيناً آخر، وضرورة الصدع بالحق أحياناً أخرى...؟!

مع أن الشريعة تجعل: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة ـ أي مشروعة وغير مشروعة ـ وذلك لأن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة من المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلّا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل» كما يقول الشاطبي[1].

وقد كان لمثل هذا المسلك أوخم العواقب على الإسلام والدعوة إليه والعاملين المخلصين في سبيله، بما أحدثته من

---

(١) الموافقات ٤/ ١٩٤.

صدوع، وفوتته من فرص على حركة الدعوة والتجديد، ساهمت في تمكين القوى المضادة من تعزيز مواقعها، وفسح المجال للتغريب والتبعية ليمتدا في فراغنا، ويدمرا الكثير من مكونات وفصول «ميزانيتنا التسخيرية» الثمينة.

إن الدعوة الإسلامية اليوم، يجب عليها أن تقلل من أخطائها قدر الاستطاعة، ويجب على دعاتها أن يهجروا المثالية المفرطة، والخيال المجنح، والمبادرات الاستعجالية غير المدروسة، والتبسيطية الزائدة أو الساذجة لواقع بشري مركب ومعقد... فالوقت ليس وقت حماس موتور، ولا خيال مريض، أو ردود أفعال عاطفية ذاتية فجة، بل الكلمة اليوم للرزانة الفكرية، والواقعية العملية، والدقة في تصور القضايا والمواقف...

ولعله ليس من المبالغة القول: إنّ أهم قانون يجب على الدعوة الإسلامية، وكل العاملين للإسلام تعلمه ووعيه، والانضباط الدقيق به؛ فكراً وسلوكاً ودعوة ومواقف.. هو الذي تلخصه هذه النصيحة التي أسداها أحد العلماء العاملين

المحنكين لأحد الحكام المسلمين في زمنه، والتي جاء فيها: **«لا تعدنَّ عدّة لا تثق من نفسك بإنجازها»**، والتي كانت منطلق كتابتي لهذه الرسالة المتواضعة في فقه التغيير الاجتماعي وسننه.

إنها الواقعية الحركية المنضبطة، المنبثقة من روح الإسلام، والمنسجمة مع سنن التسخير والاستخلاف، والتي تدعو المسلم إلى التحرك الواعي المدروس، الذي يضع في الحسبان باستمرار وهو يباشر إنجاز عمليات الدعوة والبناء والمواجهة:

- المنطلقات المبدئية لعمله.
- الأولويات الموضوعية لعمله.
- الظروف المحيطة بهذا العمل.
- الإمكانات المتوافرة لإنجازه.
- الخطة المنهجية اللازمة للإنجاز.
- المآلات المتوقعة له على المدى القريب والمتوسط والبعيد.
- التدابير الوقائية للمحافظة على منجزاته وحماية مسيرته.

ليضمن لنشاطه قدراً كافياً من الأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية، وتحذره في نفس الوقت من الغرور والانخداع، والانسياق الأبله أو المجنون وراء النزعات العاطفية الذاتية التي تؤدي إلى التهور، واستعجال الأمور، والدخول في متاهات لا أول لها ولا آخر، يخرج الإنسان منها مأزوراً غير مأجور...

مفهوم الواقعية بين الثقافتين الإسلامية و الوضعية

والسؤال الآن هو: مادامت الواقعية خاصية أساسية من خصائص الإسلام، وضرورة حيوية يستوجبها العمل الدعوي التجديدي للأمة:

- فما المقصود بها؟
- وما علاقتها بالنزعات الواقعية الوضعية المعاصرة، التي تهيمن اليوم على فكر وحياة ونشاط الإنسان المعاصر؟

الواقعية في الثقافة الوضعية

والذي يجب وعيه في هذه القضية باختصار، هو أن الواقعية الإسلامية تختلف وتتميز عن النزعات الواقعية السائدة اليوم، تمايزاً كبيراً وأساسياً، ذلك لأن هذه الأخيرة جاءت ردَّ فعل عنيف ومتطرف ضد ما كان سائداً في الغرب الصليبي في قرونه الوسطى، من نزاعات رومانطيقية مغرقة في المثالية والخيال، تهمل واقع الأرض، وتتعالى عليه،وتفر منه إلى وقائع ذاتية حالمة، تعوض بها على ما كان يصيبها من الإحباط والفشل، ويلحقها من الحرمان المادي والأدبي، في بيئات تحكمها وتوجهها مذاهب وفلسفات أقل ما يقال عنها أنها لا تلائم فطرة الإنسان[1].

فالواقعيات السائدة اليوم جاءت ترفض المثاليات والأحلام، وتنبذ العواطف الإنسانية، وتلغي الغيب من حياة واهتمام الإنسان، وإن تسامحت معه تعتبره أمراً ذاتياً معيباً، هو أقرب ما يكون إلى المرض النفسي، وتفرض على

(١) الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول ٢٧.

هذا الإنسان الارتباط بالواقع المعيش، والانكباب عليه لفهمه وتسخيره في تحقيق المزيد من الرفاه المادي، الذي هو الغاية القصوى للحياة عندهم، تربت على هذا أجيال، وماتت عليه أخرى، حتى أصبح عقيدة راسخة في النفوس، وفكراً مهيمناً على العقول، وسلوكاً عملياً يطبع الحياة ويوجهها في جميع جوانبها.

- نلمس ذلك ونراه في المدارس الفكرية والأدبية والاجتماعية الكثيرة التي تلغي الأخلاق والقيم النبيلة، وتستبدلها بأخلاق وقيم المنفعة المادية!
- كما نلمسه ونراه في الثورة المجنونة على الدين والمتدينين، والتشنيع بهم، والتتفيه لعقولهم، والنعي على تفكيرهم، والسخرية من معتقداتهم!
- كما نلمسه أيضاً ونراه بوضوح في مظاهر الحياة اليومية التي لا تكاد تحس فيها بأثر لغير المنفعة المادية العاجلة ومشتقاتها، حتى ما بقي من النزعات الروحانية أو ما أخذ يظهر بعد طول معاناة، يفسر تفسيراً مادياً نفعياً متعسفاً!

فالواقعية عند هؤلاء الأقوام، في الشرق والغرب والجنوب.. تعني: الارتباط الوثيق بالواقع المعيش، ومحاولة معرفته كما هو متشكل في ظواهر نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.. ثم السعي إلى تفسيره وتبريره في النهاية، على اعتبار أنه فطرة أو خلقة، أو على أنه أمر واقع يجب تقنينه وحمايته، وإقصاء ماعداه من القيم غير المشينة!

وقلنا في تبريره، لأن جل التفسيرات التي يعطونها لهذه الظواهر النفسية والاجتماعية.. عبارة عن تبرير لها في نهاية المطاف، مهما كان حرصهم على التغيير والإصلاح واستهداف الأمثل والأفضل. والدليل على ذلك أنهم يسيرون من سيئ إلى أسوأ، وأوضاعهم النفسية والاجتماعية تنحدر يوماً بعد آخر نحو الحضيض، فيما يتصل بالقيم الإنسانية العليا التي تحقق إنسانية الإنسان وتحافظ عليها..

فهم كلما ظهرت فيهم مشكلة، حاولوا علاجها بتصورهم المادي ومنطقهم النفعي، فلا يحسم أمرها، بل تظل تتفاعل وتتطور سلبياً، إلى أن تصبح «أمراً واقعاً»

لا يمكن تجاهله، ولا التخلص منه، فيوضع له تشريع قانوني يبرر وجوده ويحميه، فإذا ما ألف الناس ذلك وارتبطت به حياتهم، اعتبروه «فطرة» أو حقيقة، وأدخلوه في مسلماتهم المعرفية وثوابتهم الثقافية، وصار موجهاً من موجهات مرجعيتهم الحضارية.. وهكذا!!

والنماذج الدالة على هذا الاضطراب والتخبط، أكثر من أن يحاط بها، لتسارع وتفاقم عموم البلوى بها في المجتمعات المعاصرة عامة، نشير إلى نتف منها على سبيل المثال فقط:

- إقرار مجلس العموم البريطاني للشذوذ الجنسي، واعتباره أمراً مشروعاً، يدخل في نطاق الحرية الشخصية.
- وباركته إحدى الكنائس بهولندا، فعقد القسيس عقد زواج «شرعي» في داخل الكنيسة بين شاب وشاب!!
- وهو ما حدث في فرنسة كذلك، حيث عقد زواج بين امرأتين في الكنيسة[1]. بل وسُمح للسحاقيات بالعمل في السلك الديني الكنسي بعد أن حُرمن من ذلك أمداً طويلاً!

---

(١) مولود قاسم، أصالية أم انفصالية ٢/ ٥٥.

- وأقر البرلمان الدانمركي تعاطي المخدرات للفتيان والفتيات في الشوارع والمركبات العامة، بعد شيوع الأمر، وعجز القوة عن مواجهته"[1].

- واعترف في أميركا للشواذ جنسياً بحقوقهم الاجتماعية والسياسية، واعتبروا في مستوى الأقليات ذات الحقوق الواسعة، وسمح لهم بالدخول إلى الجيش بعد أن ظلوا ممنوعين منه قبل ذلك.. واعتبر الرئيس كلينتون ذلك من الأمور السعيدة!!

- واستفحل أمر الانتحار واستحال علاجه، فأنشئت مؤسسات يسهر عليها مفكرون ومؤلفون، تساعد في إتمام عملية الانتحار بأيسر الطرق! وسموا ذلك بالموت الرحيم!

- وهددت الشيخوخة المجتمعات الغربية كلها، وعقم النساء، وأصيب الرجال بالبرود الجنسي، بسبب الشذوذ الجنسي الفاضح، فتكونت مؤسسات لـ«تأجير

---

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية ٢/ ٣٦٠.

الأرحام»، وانتشرت ظاهرة «أطفال الأنابيب»!

- واضطرت المرأة بسبب الحاجة تارة، وبالإغراء تارة أخرى.. لإهمال البيت، فضاع الأطفال، وعمت الخيانات الزوجية، وتصدع النظام الأسري، وألف الناس هذا الوضع، رغم اعترافهم بخطورته وقساوته، فلجؤوا إلى الخادمات ورياض الأطفال، وملاجئ العجزة، فجفّت العواطف الإنسانية وتقطعت الأرحام، وخرجت أجيال من الإنسان الآلي المجرد من العواطف!

- وتفشت الرشوة والسرقات المقنعة وأكل أموال الشعوب بالباطل، وسمي ذلك النهب والابتزاز والإثراء بلا سبب عمولة أو خدمات..!

وباختصار فإن الواقعية السائدة في الفكر الوضعي المعاصر، نجحت في وصف الظواهر النفسية والاجتماعية وصفاً دقيقاً بارعاً، وفشلت في تفسيرها تفسيراً موضوعياً

صحيحاً، يساعد على فعالية تبريرها وإقرارها، إن كانت ذات علاقة بالمصالح الفطرية للإنسان، أو الإقناع بتغييرها إن كانت ضد هذه المصالح، مما جعلها في النهاية تعني معرفة الواقع لتبريره لا لتغييره.

الواقعية في الثقافة الإسلامية

وتعني الإحاطة الشمولية العميقة بطبيعة وخصائص ومكونات الواقع الإنساني الفطري والمعيش معاً، والتقدير الموضوعي لاحتياجاته، والحركة المتوازنة لتغييره أو تبريره.. والدفع التدريجي به نحو التوافق والانسجام مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، حتى يستجيب هذا الواقع المعيش أكثر فأكثر لاحتياجات وتحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على الصيرورة الحضارية للحركة الاستخلافية برمتها.

فالواقعية الإسلامية على هذا الأساس تُعنى:

- بمعرفة الواقع الإنساني المعيش كما هو من غير زيادة أو نقصان، أو محاولة للتمويه عليه، أو الاختزال لمعطياته

ومكوناته الفاعلة والمنفعلة.

- والانطلاق من ذلك الرصد أو التشخيص الموضوعي المتكامل لهذا الواقع، لتحديد موقعه من المنظومات المرجعية لسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، المهيمنة على الحياة، باعتبارها ثوابت ضابطة ومؤطرة لحركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وموجهة لها نحو غاياتها الاستخلافية والوجودية المرجعية النموذجية.

- ثم محاولة تغيير هذا الواقع بوسائل مكافئة وأساليب ناجعة، تأخذ بعين الاعتبار الظروف المحيطة والإمكانات المادية والبشرية المتوافرة، والمآلات المتوقعة، سعياً وراء مواءمة بين مطالب الشرع ومصالح العباد الفردية والجماعية، من غير إفراط يوقع الناس في الحرج، ولا تفريط تضيع به المحافظة على حدود الله ومحارمه.

فالواقعية الإسلامية إذن تهتم بمعرفة الواقع المعيش بدقة وشمول، لتغييره إن كان مخالفاً لسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، لا لتبريره، أو لتبريره وتأصيله

إن كان منسجماً مع هذه السنن التي يشكل الإسلام محور ارتكازها الأساس، فيما يتعلق بغايات حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وبثوابتها العقدية، وأصولها الاجتماعية، ومقوماتها الأخلاقية، وقواعدها المنهجية الكلية.

المقومات المنهجية للفعل الواقعي

ولكي يتحقق الفعل الدعوي التجديدي بهذه الواقعية، ومن ثم بالأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية، لابد من تحقيق جملة شروط أساسية في «**دورته الإنجازية**»، تعتبر مقومات جوهرية للواقعية الفكرية والحركية، إذا تخلف واحد منها اختل ميزان هذه الدورة لصالح «**اللاواقعية**» ومن ثم لصالح «**اللافعالية**»، وهو مالا يقبله الإسلام من المسلمين، ويحذر من عواقبه الخطيرة، التي تلحق الفرد والجماعة والمجتمع والأمة والإنسان معاً.

وهذه الشروط أو المقومات الأساسية، كما بدت من التعريف السابق، يمكن إبراز أهمها فيما يلي:

مرجعية الواقع وسلطته

سواء كان هذا الواقع الموضوعي المعيش، ظاهرة نفسية أو فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو حضارية عامة:

- تعود إلى مكونات الطبيعة البشرية التي خلق عليها الإنسان.
- أو إلى الهندسة التكوينية التي ركِّبت بها البنى الاجتماعية، ونظِّمت بها العلاقات المختلفة داخل المجتمع.
- أو تعود إلى نتائج التفاعل الإنساني مع البيئة الخارجية؛ البشرية منها والطبيعية، كمحاولة منه للتكيف النفسي والاجتماعي.

فهذا أمر يفرضه الشرع، وتستلزمه حركة الدعوة والتجديد، لطرح الحلول الصحيحة المنسجمة مع الإسلام من جهة، والمتوافقة مع الأوضاع النفسية والاجتماعية للأفراد والبيئات من جهة أخرى. وهو ما لا يمكن أن يتم إلّا إذا أدرك القائم بعملية الدعوة والإصلاح والتجديد، المؤثرات المرجعية؛ الفطرية والتاريخية أو المعيشة.. التي تؤطر وتوجه حياة الإنسان، وتحكم سير المجتمع، وميَّز بدقة

ووضوح وموضوعية بين:

- ما هو منها أصيل داخل في فطرة الإنسان، أي السنن المرجعية المتصلة بمنظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد الثابتة.
- وما هو عائد إلى تصوره الاعتقادي، الذي تنبثق منه أفكاره ومواقفه ومفاهيمه، أي إلى مرجعيته المعرفية والثقافية الموجهة.
- وما هو عائد إلى المحيط الثقافي والاجتماعي والحضاري الذي يجد الإنسان نفسه يعيش ضمنه، ويمتص مؤثراته المختلفة، وتتشكل فيه شخصيته بناء على هذه المؤثرات.
- وما هو عائد إلى مؤثرات البيئة الطبيعية ذاتها، التي تؤثر بدورها في كثير من شؤون البشر المعاشية وغيرها.

فحياة الإنسان كلها، عبارة عن محاولة مستمرة للتوفيق بين هذه العناصر الأساسية، والتواؤم معها قدر الإمكان.

والقائم بعملية التغيير والإصلاح والتجديد الناجحة هو الذي يدرك هذه المؤثرات، ويميز بعضها من بعض في حياة الإنسان وحركته، تمييزاً واضحاً، يمكنه من معرفة طبيعة الظاهرة التي يريد التعرف عليها، وتقديم العلاج الإسلامي لها. كما ينبه إلى ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء ١٧/ ٣٦]، أي لا تعتقد إلّا عن علم، ولا تفعل إلّا عن علم، ولا تقل إلّا عن علم، وقد وضع الله بين يديك وسائل العلم، من سمع وبصر تجمع بهما المعلومات، وفؤاد تحققها وتفسرها به"[1].

وفي القرآن والسنة توجيهات فذة، تمكن حركة الدعوة والتجديد، إن استوعبتها فهمًا والتزاماً، من النجاح في توفير الشرط الأول من شروط الواقعية الحركية الفعالة، والتي يمكن الإشارة إلى اثنين منها هنا لأهميتها:

- **تجنُّب البناء على الظنون الموهومة:** وهو الشك والتوهم

---

(١) تفسير بن باديس ١٤٠.

وعدم التيقن من الأمر، وهو ما جاء التنبيه إليه في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ١٢]. وفي مثل قوله ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث..**»[(١)].

فإن واجهتَ مشكلة من المشاكل النفسية والاجتماعية.. التي تحتاج إلى تغيير أو تفسير أو حكم.. فلا تسارع في الحكم عليها بالظن السيئ أو الحسن بناء على:

- أحكام مسبقة غير مدققة، قد تكون أسبابها ومعطياتها تغيرت.
- أو ملاحظات انطباعية عابرة غير دقيقة.
- أو أخبار غير وافية من حيث الإحاطة بالموقف.
- أو عواطف محبة أو كره خفية في النفس.

لأن الأمر ربما كان على عكس ما توقعته، وبنيت عليه ظنك وحكمك أو موقفك، فتوقع نفسك في حرج شديد

(١) رواه مسلم.

من جهتين:

- جهة الشرع الذي خالفته.
- وجهة الإشكال الذي فشلت في حله، وربما عقدته، فآذيت غيرك، وذلك ممنوع شرعاً، وعرضت شخصيتك للاتهام والريب، ومكانتك كعامل في سبيل الله للاهتزاز.. وكل ذلك يعود بالأذى على حركة الدعوة.

ولقد حدثت حوادث كانت مبنية على مجرد الظن، أو الأحكام المسبقة، تسببت في إزهاق الأرواح، وخلخلة العلاقات الاجتماعية بين العاملين في سبيل الله والجماهير الإسلامية وغيرها، أشار القرآن والسنة إلى بعضها، ونبه العلماء على بعضها الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء ٤/ ٩٣].

وقد نزلت هذه الآية فيمن قتل رجلاً من المشركين بعد أن قال: لا إله إلّا الله، فلم يقبلها منه، ظاناً أنه قالها متعوذاً بها من القتل، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك، غضب وقال: «ويل لك بلا إله إلّا الله» ثلاث مرات،حتى قال الرجل: وددت أني أسلمت ذلك اليوم، وأنه يبطل ما كان لي من عمل قبل ذلك، وأني أستأنف العمل ذلك اليوم. وفي رواية أنه قال له لما أبان عن سبب قتله: «أشَقَقت على قلبه؟»[1].

ومثل قوله سبحانه معاتباً المسلمين الذين انْطَلَتْ عليهم شائعة الإفك المشهورة، ومعلماً إياهم كيفية تلقي الأخبار وتمحيصها وإثبات صحتها أو زيفها: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ

(١) ابن العربي، أحكام القرآن ٥/ ٣٥٤.

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور ٢٤/ ١٢ - ١٧].

إن مما يسيء إلى العمل في سبيل الله، ويطبعه بالفوضى والسلبية، أن يجهل أو يتجاهل القائمون به الواقع الذي يريدون نقل الهداية إليه، ويكتفون بالحكم عليه من بعيد، أو اقتراح الحلول له وهم قابعون في بيوتهم أو مكاتبهم أو مساجدهم أو مؤسساتهم.. وهو ما يرفضه الإسلام ويحذر من مغبته كما رأينا.

ولكن فئات عديدة من المشتغلين بعملية الدعوة والإصلاح والتجديد ـ للأسف الشديد ـ وقعت في هذا

المحذور الخطير، مع أن الكل يعرف ـ أو يجب أن يعرف ـ أن رسول الله ﷺ الذي يتخذه الجميع مرجعهم في التأسي، كان ينطلق في معالجته للظواهر النفسية والاجتماعية المرضية، من معرفة دقيقة بواقع كل ظاهرة وطبيعتها وحقيقتها على حدة، تطبيقاً للمنهج على الوقائع، وتشريعاً للمسلمين، وتعليماً لهم، حتى يأخذوا المنهج منه.

فقد أثر عنه، كما يذكر ذلك الشاطبي في هذا الملخص المركز لمنهجه، أنه كان ينظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه، بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال على وزنٍ واحد.. فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف.

والأمثلة التطبيقية الواقعية الدالة على ذلك في العمل النبوي كثيرة، نذكر منها هنا على سبيل المثال بعض العينات فقط، لأن نماذج تطبيقية كثيرة سيرد ذكرها في مواضعها من الدراسة لاحقاً:

النموذج التطبيقي الأول:

أنه كان يسأل في أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال، فأجاب بأجوبة مختلفة، كل واحد منها لو حمل على إطلاقه أو عمومه لاقتضى مع غيره التضاد في التفضيل.

ففي الصحيح أنه ﷺ: «سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله، ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[1].

وسئل ﷺ في موقف آخر: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[2].. وفي حديث آخر: «أي الأعمال أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[3].

وفي النسائي عن أبي أمامة قال: «أتيت النبي ﷺ فقلت:

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

مرني بأمر آخذه عنك. قال: عليك بالصوم فإنه لا مثل له».

وفي الصحيح في قوله: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له.. قال: ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به».

وفي النسائي: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

وفي البزار: «أي الأعمال أفضل؟: قال: دعاء المرء لنفسه».

وفي الترمذي: «ما من شيء أفضل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من خلق حسن».

وفي مسلم: «أي المسلمين خير؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده». وفيه أيضاً: «سُئل أي الإسلام خير؟ قال: تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وفي الترمذي: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وفيه أيضاً: «أفضل العبادة انتظار الفرج»... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي ذكرها الشاطبي في باب الفتوى من موافقاته[1]. والتي يمكن العودة إليها هناك للمزيد من التفاصيل.

---

(١) الموافقات ٤/ ٩٨ وما بعدها.

النموذج التطبيقي الثاني:

ودعا ﷺ لأنس بكثرة المال، فبورك له فيه. وقال: لثعلبة بن حاطب حين سأله الدعاء له بكثرة المال: «**قليلٌ تؤدّي شُكره خيرٌ من كثير لا تُطيقه**» واستعاذ ﷺ من الفقر كما استعاذ من الغنى، وأثرت عنه أدعية أخرى فيها رغبة في العيش عيشة الفقراء، وأدعية يرجو فيها الغنى ويمدحه! ولكلٍّ وجه مشروع ومرغوب، يبرره ويزيل اللبس والتعارض الظاهري عنه.

النموذج التطبيقي الثالث:

وقال لأبي ذر لما طلب الإمارة: «**إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**». ومعلوم أن كلا العملين من أفضل الأعمال لمن قام فيه بحق الله... فنهاه عنهما لما علم له خصوصاً في ذلك الصلاح.

النموذج التطبيقي الرابع:

ورد في الصحيح «أن ناساً جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: **ذلك صريح الإيمان**».

وفي حديث آخر: «من وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله».

وعن ابن عباس في مثله قال: «إذا وجدت شيئاً من ذلك فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

النموذج التطبيقي الخامس:

وأجاب النبي ﷺ من سأله عن المباشرة للصائم بالمنع، وأجاب آخر بالجواز، ثم ظهر أن الأول شاب، والثاني شيخ، فأجاب النبي ﷺ بأجوبة مختلفة، وأجاب ابن عباس بأمر آخر، والعارض من نوع واحد.

النموذج التطبيقي السادس:

وفي الصحيح «إني أعطي الرجل وغيره أحبّ إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار»[1].

وآثر ﷺ في بعض الغنائم قوماً، ووكل قوماً إلى إيمانهم لعلمه بحال الفريقين. وقبِل من أبي بكر ماله كله، وندب

---

(١) رواه مسلم.

غيره إلى استبقاء بعضه، وقال: «امسك عليك مالك فهو خير لك». وجاء آخر بمثل البيضة من الذهب فردّها[1].

وهكذا يتضح لنا بأن النبي ﷺ، كان يتحرك بعلم شامل ودقيق بالنفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، عن طريق دراسته للشخص الذي يريد دعوته، أو نصحه، أو إجابته، أو توجيهه، أو استشاره في الخير، ويتعرف على ظروفه، وعلى طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، والجماعات التي يرتبط بها، والعادات والتقاليد التي يعتادها، ثم يعطيه بعد ذلك ما ينسجم مع وضعه الخاص، ليتدرج به في سلم الإلتزام بالإسلام والسير التدرجي نحو التوافق والانسجام مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

فهل يعي المهتمون بقضية التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري من العاملين في سبيل الله، هذه الحقيقة؟ ويدركوا فرضيتها وضرورتها في كل عمل يقومون به، فيبتعدون عن سوء الظن، والأحكام المسبقة، والتقديرات الجزافية للموقف.. التي

---

(١) الموافقات ٤/ ٩٨ وما بعدها.

تحجب عنهم الحقيقة، وتجعلهم يخبطون خبط عشواء؟ وهل يعون أخيراً دور المنهج في ذلك كله، وأنه هو الذي يخرج الموقف الحركي من أسر الانطباعية والتجزيئية والاستعجالية، ويسمه بالدقة والموضوعية والفعالية؟

- تجنب التعميم: وهو سحب الحكم ـ سلباً وإيجاباً ـ على أكبر عدد من فئات المجتمع أو الظواهر الاجتماعية، من غير مبررات موضوعية كافية أو لازمة، ويعتبر إحدى أخطر العوائق التي تموه الحقيقة على الإنسان، وتوقعه في التناقض والحرج، وتقوده إلى الفشل والإخفاق فيما يقدمه من تفسيرات، ويتوقعه من مواقف وتصرفات، ويقترحه من حلول للمشكلات.

فإن كان التعميم إيجابياً، كأن يعتقد الإنسان بأن فئة من الناس تحبه وتطيعه، أو أن المجتمع كله أو أغلبه معه في موقفه.. ثم ينطلق في بناء مشاريعه التغييرية على هذه التقديرات الذاتية، في الوقت الذي لا وجود لهذا الاعتقاد في الواقع، بل ربما العكس هو الصحيح، فتكون النتيجة هي

الاصطدام بالواقع المر، فيدرك بعد ذلك أنه كان يحلم، وعندها قد يفقد الثقة والأمل في الناس جميعاً، كما يفقد الناس ثقتهم فيه!

وبذلك يدخل في الجانب السلبي من التعميم الذي يحرمه من الاستفادة من معادن الخير المبثوثة في المجتمع، لو أنه فكر تفكيراً موضوعياً، وتحرك تحركاً واقعياً، وحاول تحسس الأمور كما هي في الواقع لاكما تصورها هو وركبها في عقله وذهنه، داخل النفوس أو العقول، أو في العلاقات الاجتماعية القائمة فعلاً.

النموذج التطبيقي الأول:

وما أعظم واقعية رسول ﷺ في هذا المجال، حيث نراه في غزوة بدر مثلاً يستشير أصحابه ويطلب موقفهم من ملاقاة العدو، أو الإحجام عن ذلك، وألح كثيراً على معرفة موقف الأنصار بالخصوص، مع أنه عاش بين أظهرهم لا يتحرك أمر في المدينة إلّا بعلمه وإذنه وتوجيهه، فأمر الناس تبع لأمره.

إنها القيادة النبوية التي لا تستهويها ظواهر الأمور، ولا

تحكمها المواقف القديمة أو العهود السابقة، التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار، والتي تضمنت السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره. فقد ألح رسول الله ﷺ في طلب رأي الأنصار، ولم يقنع برأي المهاجرين فقط، ولم يتخذ قرار الحرب إلّا بعد أن عرف موقفهم فتأكد منه تماماً، من غير تكهن أو تعميم واستصحاب لموقف سابق في الزمن على مواقف لاحقة.

قارِن هذا الأسلوب الذي لا يفترض أنّ الواقع القائم كما يتصوره، بل يسعى بكل الوسائل للوقوف عليه بتفاصيله كما هو في الميدان. و ذلك الأسلوب الذي يفترض صاحبه أنه على علم بالواقع، والأمر خلاف ذلك، وتوقع نتائجه من خلال هذا النموذج الذي نسوقه كمثال.

النموذج التطبيقي الثاني:

فقد أقيم حفل في إحدى القرى لتأسيس عيادة طبية، وتكلم الخطباء ما شاء الله، ثم جاء أحدهم وقال: من عند نفسه، إنّ فلاناً سوف يتبرع بالأرض اللازمة للمشروع!

وسمع الرجل هذا الكلام وبهت ولم يقل شيئاً، ولما ذهبت اللجنة لقبض التبرع غضب الرجل، وقال لهم كلاماً قاسياً، وكان موقف الخطيب شائناً مع افتراض حسن نيته وثقته بالرجل، واضطر أن يعتذر للجميع"[1]؟!

إن الأسلوب التعميمي الذي هو خاصية من خاصيات العقلية العامية، أصبح فاشياً ـ للأسف ـ لدى بعض المهتمين بقضايا الدعوة والتغيير والإصلاح والتجديد، الأمر الذي يجعل الكثير من مواقفهم وأحكامهم وتحركاتهم بالإسلام غير موفقة، وغالباً ما تعود على حركة التغيير والتجديد بعواقب وخيمة.

فهل يعي المسلمون مخاطر هذا التعميم، فيسعوا إلى توطين أنفسهم على الدقة والتمييز، واحترام قاعدة أو قانون النسبية والتغير، خاصة في المسائل الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية المتحركة..؟ وهل يعون قيمة المنهج ودوره الحيوي في إنقاذ الجهد من الارتباكية المكلفة؟

(١) عبد البديع صقر، كيف ندعو الناس ٤٧.

إن اجتناب الظن الموهوم المبني على أحكام مسبقة، أو ملاحظات غير دقيقة، أو أخبار غير ثابتة أو ناقصة، أو عواطف بغض أو محبة خفية، والابتعاد عن التعميم السلبي أو الإيجابي للأحكام والمواقف، ومحاولة الاقتراب من الظواهر النفسية والفكرية والاجتماعية، ودراستها ميدانياً بالوسائل والأساليب العلمية المتاحة، هو الذي يساعد المعنيين بحركة التغيير والتجديد، على دقة التشخيص ومعرفة الواقع كما هو من غير زيادة أو نقصان، باعتباره شرطاً أساسياً من شروط الواقعية ومن ثم الفعالية.

فالواقع الإنساني؛ العقدي والفكري والنفسي والثقافي والسلوكي والاجتماعي والأخلاقي والسياسي والحضاري القائم، له سلطته المؤثرة جداً في عملية التغيير والإصلاح والتجديد، بل والشارطة له، ينبغي الاهتمام الشديد به، وإعطاؤه ما يستحقه من العناية لفهمه كما هو، والإدراك التام بأن أي انتقاص من دوره ومكانته وسلطته، سيؤثر بشكل سلبي حاسم على أصالة وفعالية واطرادية ومصداقية العملية التغييرية كلها.

وسترد معنا لاحقاً، نماذج تطبيقية كثيرة عن فشل أو على الأقل ضآلة نتائج العمليات الدعوية والتغييرية والإصلاحية والتجديدية التي لم تحترم سلطة الواقع، واستبد بها المثال النظري، أو الطموح غير المتوازن، فانكسرت على صخرة هذا الواقع، وتحولت إلى جزء إضافي من الواقع السلبي للمجتمع والأمة!

وإذا أعطت عملية التغيير والإصلاح والتجديد الاهتمام العلمي المنهجي التكاملي اللازم لمعرفة الواقع الموضوعي كما هو على حقيقته، فإن العمل يكون قد أنجز المرحلة أو الخطوة الأساسية الأولى في بناء «**الدورة الإنجازية**» للفعل الدعوي الإصلاحي التجديدي الواقعي المؤثر.

مرجعية الوحي وسلطته

وإذا كان الواقع له هذه السلطة وهذه المرجعية المؤثرة في بناء «**الدورة الإنجازية**» للفعل الدعوي الإصلاحي التجديدي الواقعي، فإن للوحي سلطته كذلك، باعتباره المرجعية الضابطة والموجهة لهوية وأخلاقية العملية التغييرية

كلها، حيث يجب إيلاؤه ما يستحقه من العناية والاهتمام، بحسب هذا الدور المحوري الضابط والموجه الذي يؤديه في الحياة البشرية بصفة عامة، ويؤديه في دورة كل فعل فكري أو ثقافي أو سلوكي أو اجتماعي أو حضاري.

فالوحي هو الذي يزودنا بالمقاييس المرجعية التي تمكننا من معرفة موقع هذا الواقع العقدي أو الفكري أو النفسي أو السلوكي أو الاجتماعي.. الذي سبقت دراسته والتعرف عليه، من منظومات سنن التسخير الأربع عامة، ومنظومة سنن الهداية منها خاصة، للتأكد من حله أو حرمته، أو ندبه أو كراهته، أو إباحته أو صلاحه أو فساده.. ذلك لأن العمل التغييري محكوم بإطاره المرجعي الذي يمثل الدين أو الشرع محور ارتكازه، فلا يسمى إسلامياً إلّا إذا خضع لأحكام الشريعة وصدر عنها، ودار معها حيثما دارت؛ في بواعثه ومنطلقاته وآليات إنجازه، ولم يصادم أي مقوم من مقوماتها، أو ثابت من ثوابتها، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء ٤/ ٦٥]. أي حتى

يخضعوا حياتهم كلها لأوامر الشرع ونواهيه، فيحرموا ما حرم الله، ويحلوا ما أحله، ويعادوا من عاداه، ويوالوا من والاه.

وقال تعالى في آية أخرى يؤكد المعنى نفسه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ١]. أي لا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه[1].

وقال عز وجل آمراً بوجوب إخضاع ورد كل شيء إلى كتاب الله وسنة رسوله، وما استنبطه منهما العلماء الراسخون في العلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ ﴾ [النساء ٤/ ٥٩].

قال ابن القيم: «الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٦.

الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، وأنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزم لانتفاء لازمه»[1]. وهذا ما نبه إليه الله سبحانه في الآية التالية، وحذر منه عندما قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء ٤/ ٦١].

فالواقعية الحركية الأصيلة الفعالة المطردة، تتحقق الخطوة الثانية منها، عندما تتم عملية معرفة موقع الواقع المراد تبريره أو تغييره من خريطة أو منظومة الأحكام الشرعية خاصة، وبقية منظومات سنن التسخير في الآفاق والأنفس والتأييد عامة، لأنه بذلك يتحدد لنا موقف الإسلام من هذا الواقع، لتنطلق الخطوة الثالثة في بناء «الدورة الإنجازية» للفعل الدعوي الإصلاحي التجديدي الواقعي، وهي:

---

(١) محمد صديق حسن خان، نيل المرام في أدلة الأحكام ٢٤٣.

سلطة الموازنة بين الأولويات وتكييف الواقع مع النموذج

ونقصد بالواقع المرجعي هنا تحديداً؛ الآفاق التي يرسمها الوحي ورشد الخبرة البشرية للحياة الإنسانية، ويوجهها نحوه باستمرار، باعتبار الوحي - في تلاحمه مع بقية المنظومات السننية الأخرى في الآفاق والأنفس والتأييد - وما تمخضت عنه الخبرة البشرية الراشدة من حكمة وبصارة، يمثل إطاراً مرجعياً ضابطاً ومقوماً وموجهاً للواقع، ينبغي أن يتحرك هذا الواقع باستمرار للتواؤم والتطابق معه، ارتقاء به إلى المستويات النموذجية من الأصالة والفعالية والاطراد.

وعلى هذا الأساس يجب أن تحرص حركة التغيير والتجديد على التوفيق الموضوعي المتوازن بين مصلحة الدعوة، ومصلحة الشريعة، ومصلحة الواقع الموضوعي المطلوب تغييره، وذلك ببحث الكيفيات المناسبة التي تساعد على الارتقاء بهذا الواقع الموضوعي إلى المستوى المعقول والمقبول من المشروعية أو الأصالة، لا النزول التحكمي الاعتسافي بالشرع إلى هذا الواقع لتبريره وتثبيته، وإضفاء الشرعية عليه!

فالإسلام وإن كان ـ من الناحية المنهجية ـ يراعي أحوال الناس ويتدرج في تغييرها والارتقاء بها نحو الكمال الواقعي الممكن باستمرار، فإنه من الناحية المبدئية يرفض تبرير الواقع المنحرف، ويناهض كل محاولة لترسيم هذا الانحراف وإقراره وشرعنته. فالتغيير الارتقائي للواقع الإنساني، هدف جوهري أساس للإسلام لا ينبغي أن تحجبه عن الأذهان أو تغيِّبه عن الوعي، الأبعاد المنهجية الإجرائية الواقعية أو المرنة في الشريعة، بل يجب أن يظل الارتقاء بالواقع الإنساني نحو الآفاق الحضارية للإسلام، المفتوحة على العالمية والإنسانية والكونية، أولوية دائمة للأفراد والجماعات والمجتمعات والأمة.

ولما كانت عملية التكييف العملي للواقع المعيش مع الإسلام كإطار مرجعي نموذجي ضابط وموجه، تخص كثيراً الدعوة؛ أي المنهج والمنهجية، فإن الشريعة لم تترك الأمر سائباً، بل حددت إطاراً معرفياً ومنهجياً دقيقاً، يستوعب كافة مظاهر الحياة الفكرية والنفسية والسلوكية

والاجتماعية للإنسان؛ فرداً ومجتمعاً وأمة وحضارة، وذلك من خلال خريطة مراتب الأحكام الشرعية ومنظومة مستلزماتها المنهجية، التي تتضمن:

- الحلال: أو البراءة الأصلية في الأشياء.
- الحرام: وهو صغائر وكبائر.
- المكروه: وهو نوعان: للتنزيه وللتحريم.
- الفروض: وهي عينية وكفائية.
- المستحب والمندوب.
- والمباح والرخص

فالقائم بعملية التغيير وهو يسعى لتغيير هذا الواقع الإنساني وإصلاحه وتجديده، وضع الإسلام بين يديه منهجاً مرناً، ولكنه منضبط، يستوعب كل الأوضاع والظروف الإنسانية ويتدرج بها نحو المشروعية والصلاح والتوازن والتكامل المطلوب.

فمن كان من المهتمين بعملية التغيير متفقهاً في

أحكامه، مدركاً لمقاصده، واعياً بمنهجيته في التربية والدعوة والبناء والمواجهة، سهل عليه معالجة أي وضع من الأوضاع الإنسانية؛ النفسية أو الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية.. بما يضمن المحافظة على مصالح أطراف ومكونات العملية التغييرية كلها، دون أي إخلال بأي مكون من مكوناتها أو بعد من أبعادها، وذلك من خلال القدرة على الموازنة بين الحاجات والتحديات والمصالح والمآلات والأولويات، وتكييف الواقع المعيش أو القائم مع الواقع أو النموذج المرجعي المطلوب.

فهذه المرحلة مرحلة حساسة من **«الدورة الإنجازية»** للفعل الدعوي التغييري الإصلاحي التجديدي، لأنها تتعلق بتهيئة مشروع وخطة الفعل في صورته النظرية القابلة للتنفيذ، فإذا لم تكن واقعية فإنها ستؤثر سلباً على المرحلة التالية والحاسمة من الدورة الإنجازية للفعل الدعوي برمته، وذلك من خلال التأثير في طبيعة ونوعية وحجم الإمكانات والوسائل والمناهج التي ستعتمد في عملية الإنجاز.

ومما يُضطر إليه لإحداث هذا التوازن بين أبعاد ومكونات عملية التغيير، وضمان تحقيق مصالح أطرافها جميعاً، ضرورة مراعاة كفاءة الوسيلة ونجاعة أو فعالية الأسلوب، أو أصالة وفعالية منهجية الإنجاز بصفة عامة.

سلطة فعالية وسائل وآليات الإنجاز أو التكييف

أي الآليات العملية لمباشرة عملية التكييف التدريجي للواقع الإنساني المعيش مع الواقع المرجعي الذي تمثله سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. وهي - أي الآليات العملية للإنجاز - ضرورة حيوية لنجاح التغيير، كما أكد على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال ٨/ ٦٠].

فالنص كما نرى يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وأنواعها وأسبابها، لهدف محدد واضح هو تقليص أخطار القوى المضادة، وتحجيم دورها في عملية التدافع

الحضاري، ووقاية مكاسب الحضارة الإنسانية من شذوذها وانفصاماتها العقدية والفكرية والنفسية.. وذلك لا يتم إلّا بفعالية مكافئة بل ومتفوقة ـ ولو على المدى المتوسط أو البعيد ـ في وسائل الإقناع والبناء والمواجهة والتحدي، ويبدو هذا جلياً في جوابنا على السؤال الذي طرحه القرطبي عند تعرضه لتفسير هذه الآية، عندما قال: إن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كان يكفي، فلِمَ خصّ الرمي والخيل بالذكر؟

والجواب، لأنها كانت هي الوسائل الأكثر فعالية ونجاعة للوفاء بحاجات الحياة، ولمواجهة تحديات الدعوة والدولة والمجتمع.. في تلك الفترة من الزمن، وفي ذلك المكان من الأرض، ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجدُّ مع الزمن، لخاطبهم بمجهولات محيرة[1] لا تلقى لديهم التجاوب المطلوب.

والعكس كذلك لو أمرهم بإعداد أسباب تجاوزها

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٤٣.

الزمن. وهذا من واقعية المنهج الإسلامي الواضحة،التي تلزم المسلم بإعداد الوسيلة الكفأة للبيان والإفهام والإقناع أو الإفحام أو التحدي. ولعل في عطف ﴿ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ على ﴿ قُوَّةٍ ﴾ ما يشعر بذلك، لأن عطف الخاص على العام دليل على الاهتمام بذلك «الخاص»[1]، الذي هو الوسيلة الكفأة للتغيير يومئذ.

فكفاءة الوسيلة إذن جزء أصيل في الواقعية الإسلامية، يجب الاهتمام به واستفراغ الوسع في توفيره في أي عمل دعوي إصلاحي تجديدي مهما كانت بساطته. فإن كان الموقف يستلزم كلاماً مقروءاً أو مسموعاً، أو يتطلب عملاً تغييرياً شاملاً أو محدوداً.. وجب على القائم به اعتماد الوسيلة المكافئة لذلك من حيث الفعالية والنجاعة التأثيرية، وكما قال الأصوليون فإن: «**مالا يتم الواجب إلّا به فهو واجب**» وتارك الواجب آثم أو مقصر تقصيراً يؤاخذ عليه لا محالة. وهذا ما نستشفه من حديث: «من رأى منكم

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١٠/ ٥٥.

منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

فهذا التنوع في وسائل التغيير مبني - بالإضافة إلى تقدير طبيعة وخصائص الظواهر ومآلات التعامل معها - على فعالية الوسيلة وكفاءتها. فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي[2]، وتارة يكون التغيير بالكلام، وتارة بالقوة حسب الحاجة والقدرة، وأي جهل بهذا الأمر أو تجاهل له سيؤدي إلى عواقب وخيمة على الدعوة والدولة والمجتمع والأمة والحضارة.

إن كفاءة الوسيلة أمر سنني بديهي غفل عنه بعض المسلمين، بسبب مفاهيم مغلوطة وقاصرة عن: قضاء الله وقدره، و عن التوكل والتأييد، والسنة والبدعة، والتقليد والتجديد، والتأسي والمتابعة.. فجمدوا على مراسيم وخطط عتيقة في العمل، وعطلوا طاقاتهم العقلية عن الابتكار

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٣٠.

والإبداع والتجديد في الوسائل الكفيلة بتحقيق الإبانة والتفهيم والإقناع أو الإفحام والمواجهة والتحدي في شتى المجالات، فأصبح البعض منا ينتظر من هذا الدين ـ مادام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب، ودون أي اعتبار لطبيعة البشر وطاقتهم الفطرية، ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموهم،وفي أية بيئة من بيئاتهم...

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم،في حدود طاقتهم البشرية وواقعهم المادي في كل بيئة،وبدءاً من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم.

هذا ما يجب على حركة الدعوة والتجديد استيعابه جيداً في عملية التعريف بالإسلام، ومحاولات تجسيد نموذجه الاجتماعي في واقع الحياة، وحماية مكتسباته الحضارية من الأخطار الداخلية والخارجية. لا بد أن يكون معلوماً من سنن الاستخلاف بالضرورة، أن النجاح في كل هذه العمليات،

يكون بقدر ما يبذل من الجهد وما يتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال[1].

إشكالية الوسائل الاستثنائية

وهنا لا نجد بداً من الإشارة إلى مسألة الوسائل الاستثنائية[2]، التي يلجأ المسلم إلى استعمالها عند الضرورة والحاجة المشروعة، وهو أمر يكثر الاحتياج إليه في مراحل ضعف آثار النبوة في الخلق على حد تعبير ابن تيمية[3]، أو ما يعرف في علم الاجتماع السياسي بمراحل الانتقال أو التحول الاجتماعي، التي يشهد فيها المجتمع الغثائي أو المتفسخ أو التقليدي أو المتحجر.. مخاض انقراضه أو تحوله وتجدده، وميلاد المجتمع الجديد من رحمه، وهو الأمر الذي تلازمه عادة حركية خاصة، يحتاج التحكم فيها، وإنجاز عملية التحول والانتقال، وضمان أصالتها وفعاليتها واستمراريتها، إلى فقه تسخيري حيوي منضبط، يستوعب كل ما تفرزه هذه الحركية المتناقضة

(١) سيد قطب، هذا الدين ٣ وما بعدها.

(٢) من رسالة لنا عن: التجديد الحضاري ومشكلة الوسيلة.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٧.

من مشكلات وتحديات.. لا يمكن التحكم فيها بالخبرة العادية أو فقه النهايات وحده، لأن ذلك يخل حتماً بفعالية الإنجاز وأصالته، بل لابد من المزاوجة المحكمة بين فقه البدايات وفقه النهايات، لضمان أصالة التحول وفعاليته واستمراريته.

وقد ورد استيعاب كثير من قضايا ومسائل الفقه الاستثنائي، في علوم الأصول والفقه والسياسة الشرعية بالخصوص، من خلال موضوعات المقاصد، والمصالح، والرخص، ورفع الحرج، والضرورة، وعموم البلوى، ومآلات الأفعال، والذرائع سداً وفتحاً، والتعارض والترجيح، والعرف، وفتاوى النوازل، والمعاريض والحيل المشروعة[1].

ومع وضوح وانضباط الكثير من مسائل وقضايا الفقه الاستثنائي، في الكتاب والسنة والسيرة، وفي خبرة الصحابة، وفي علوم الفقه والأصول والسياسة الشرعية، وفقه الدعوة.. بل وفي رشد الخبرة الإنسانية العامة.. فإن تخبطاً كثيراً طبع ويطبع الموقف المعرفي والسلوكي والحركي أو العملي، للعديد

(١) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ٦/ ١٢١.

من الاتجاهات الفكرية، والمسلكيات الوظيفية، والممارسات الحركية، على الساحة الإسلامية التاريخية والمعاصرة، التي هيمن على بعضها الأمر الواقع، واستوعبها منطق أو منهج الانتقائية التلفيقية التبريرية المميعة، التي حولت وتسعى باستمرار إلى تحويل الاستثناء إلى واقع معرفي ومنهجي واجتماعي مرجعي لا غضاضة فيه!!

وتمثل القوى العلمانية المستلبة، وبعض النخب الثقافية المرتبطة بها رغباً ورهباً! صلب هذا الاتجاه في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، الذي لم يعد يقيم للحرام والتفسخ والاستلاب الثقافي والحضاري وزناً، في إطار لهثه وراء الجوانب السلبية للحداثة الغربية في خصامها التاريخي الممتد مع الدين والقيم الأخلاقية عامة، ويحاول بكافة الوسائل فرضها على المجتمع والأمة!

وفي الضفة الأخرى يبرز منطق أو منهج الوظيفية الآلية، المستوعَبة بشكل حدِّي متنافر من الجاهز التراثي أو التاريخي الزمني، الذي امتد سلطانه ليطال الوحي ذاته؛ كتاباً وسنة،

ويحكّم فيه متغيرات التاريخ السالفة؛ المعرفية والنفسية والاجتماعية والسياسية.. رغم الإقرار النظري بأن الوحي مهيمن وحاكم على التاريخ والزمان والمكان.. باعتباره خطاب الله المتعلق بحياة الفرد والمجتمع والحضارة على مدار الزمن الآني والمستقبلي بالخصوص، كما تؤكد ذلك المقولة العقدية الأصولية الشهيرة: **الإسلام صالح لكل زمان ومكان.**

والمتعمق في تشخيص عوامل وأسباب اضطراب أبعاد **الأصالة والفعالية والاطراد التكاملي** للجهد التجديدي لحركة النهضة الإسلامية الحديثة، يكتشف مدى الثقل الكبير الذي يحتله الاتجاهان والمنهجان الآنفا الذكر في ذلك، عندما حاول ويحاول كل منهما الاستحواذ، **بطريقة حدية تنافرية إقصائية،** على تحليل وتفسير وتخطيط **«الدورة الإنجازية»** للفعل النهضوي أو التجديدي، فجاء **فعلاً جزئياً اهتلاكياً استئنافياً..** منقوص الأصالة، محدود الفعالية، غير قابل للاطراد، ومن ثم لا يرقى إلى مستوى **المهمات والأولويات والتحديات،** التي تطرحها حركة النهضة خاصة، ويفرضها مسار ومنطق التدافع الحضاري عامة.

ولا شك أن هذا الوضع السلبي القلق، يضع جل هذه القوى في موقف صعب في علاقتها بالإسلام، ويلقي بظلال من الشك على مستوى وعيها بفقه سنن الخلق والتسخير والاستخلاف! مهما حاولت ـ أي هذه القوى ـ ادعاء الفهم والوعي، وتبرئة نفسها من الآثار الوخيمة لمنطق الجزئية المتشظّية، والوثوقية الحدية، والاقصائية والاهتلاكية، وإلقاء التبعات على غيرها من القوى المناوئة بل والمنافسة!

مراحل التحول الاجتماعي والفقه الاستثنائي

أما الإسلام في أصله وحقيقته، فإنه يستوعب فقه البدايات أو التحول والانتقال، وفقه النهايات أو الاستقرار والانتظام معا، في حركة التحول الاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة، ويضع بين يدي صفواته الفكرية والسياسية الرسالية، منظومة معرفية ومنهجية متكاملة، تضمن لجهدهم أصالة وفعالية مطردة، في كل الظروف التي تكتنف حركتهم، ولا يدعهم مكتوفي الأيدي أو سلبيين أمام التحديات والمستجدات التي تطرح نفسها عليهم مهما كانت سلبيتها، حيث يتيح لهم مرونة الحركة المنضبطة لاستيعاب هذه المستجدات، والتحرك بها

تدريجياً نحو المزيد من المشروعية والأصالة والفعالية، في إطار منهجية محكمة، مؤسسة على فقه الغايات، وفقه المصالح، وفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المآلات، وفقه المقاصد، وفقه التدرج، وفقه التعارض والترجيح...

والإسلام بعنايته المتوازنة بالفقه الانتقالي أو الاستثنائي المنضبط، يتجاوب بعمق وشمول مع طبيعة الحياة الإنسانية، ومنطق التعقد والتشابك والتناقض الذي يحكمها، ويُحوج الناس إلى المرونة في مواجهة ما فيها من اللامعقولية أو اللامنطقية التاريخية أو الاجتماعية أحياناً، ومحاولة التكيف معها، والعمل على إعادة تكييفها مع منطق السنن بشكل تدريجي أو فوري، بحسب ما يقتضيه الموقف، وتمليه المصلحة الحقيقية الراجحة، وتطيقه الظروف المحيطة، وتسمح به الإمكانات المتاحة.

فالإسلام وإن كانت غايته باستمرار ـ كما نبهنا آنفاً ـ هي الارتقاء بالواقع الإنساني إلى مستوى التطابق مع سنن الله في الأفاق والأنفس والهداية والتأييد، أو الاقتراب منها ما أمكن

ذلك، إلّا أنه في نفس الوقت لا يهمل الضعف الإنساني، ولا يغفل عن الضغوط والإكراهات المختلفة التي قد تحيط بالإنسان، وتعمل على الحد من اندفاعه نحو قمم الأخذ بالعزائم، بل يراعي ذلك جيداً، ويوفر لأتباعه وخاصة القائمين بالدعوة إليه، والعاملين على تعريف الناس بحقيقته، الساعين إلى تجسيد نموذجه الاجتماعي والحضاري في واقع الحياة.

يوفر لهم شروط المرونة الحركية المنضبطة، التي تتيح لهم القدرة على مواجهة كل حالات الضعف والشذوذ والتراجع والإكراه.. بتأسيسه لمنظومة الفقه الاستثنائي، الذي يمنح قيادات الدعوة والتجديد فعالية كبيرة في استيعاب كل هذه الظروف، ومعالجة كل هذه الحالات، بما يخرجها من دائرة الشذوذ والانحراف والمناقضة لسنن التسخير، ويرتقي بها إلى حالة التوازن والانسجام مع هذه السنن.

ومن هذا المنظور فإن الوسيلة أحياناً لا ينظر إليها في ذاتها، بل ينظر إليها في إطار مآلاتها على الدعوة والدولة والمجتمع والأمة والحضارة.. فإن كانت تفضي إلى مصلحة

راجحة ومعتبرة شرعاً، أخذ بها، بل قد يتعين ذلك أو يجب أو يستحب ـ وفقاً لخريطة مراتب الأحكام الشرعية ومنظومة مستلزماتها المنهجية ـ التي أرست قواعد أصولية وفقهية كثيرة، تضبط وتوجه عملية استثمار الوسائل الاستثنائية بدقة وإحكام، وإن كانت هذه الوسيلة مرجوحة أو محظورة في الأصل! والعكس كذلك صحيح وفق منطقيةِ منظومة الفقه الاستثنائي، حيث يتقرر أن ما أفضى من الوسائل إلى مفاسد غالبة محققة، لزم العدول عنه مؤقتاً، وعدم الأخذ به وإن كان في الأصل مشروعاً! وفقاً للمبادئ الأصولية الكلية العامة التي تقرر أن: «مالا يتم الواجب إلّا به فهو واجب»، وأن: «الضرر يزال»، وأن: «الضرورة تقدّر بقدرها»، وأن: «الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام»[1]، عند تعذر تلافي ذلك، وأن: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»...

وفي الحديث عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال:

(١) انظر: شرح القواعد الأصولية للزرقا.

«إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[1].

فالرخصة في وقتها وبشروطها قد تكون هي عزيمة الوقت، العدول عنها أو الغفلة عن الأخذ بها، ربما أوقع صاحبها في المحذور، وأدلف به إلى المحظور وأوقعه في الإثم[2].

✿ ✿ ✿

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) قال مسروق: «من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار». وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لارخصة في هذه الحالة، كما قال ابن كثير(تفسيره ١/ ٣٦٢).

نماذج تطبيقية عن استثمار الفقه الاستثنائي

ونورد هنا بعض النماذج التطبيقية عن أهمية بل وضرورة الأخذ بالوسائل الاستثنائية، والعدول مؤقتاً عن بعض العزائم، إذا توفرت دواعي ذلك، وكيف يرتقي ذلك أحيانا إلى مستوى الواجب أو العزيمة.

النموذج التطبيقي الأول:

الولاية بين الأمين العاجز والفاجر القوي

يقول ابن تيمية وهو يتحدث عن الأولى بالإمارة في حالة وجود شخصين، أحدهما أعظم أمانة وأكثر عجزاً، والآخر أعظم قوة وأكثر فجوراً: قدِّم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها. فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً.

وفي نفس السياق سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؟ فقال:أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره

على نفسه. وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين. فيغزى مع القوي الفاجر. وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**». وروي «**بأقوام لا خلاق لهم**»[1]. وإن لم يكن فاجراً، كان أولى بإمرة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسدّ مسده»[2].

فالموقف الحركي كما نرى، تتدخل في بناء «**دورته الإنجازية**» وتشكيلها معطيات واعتبارات كثيرة، بعضها يعود إلى النص أو المشروعية الشرعية، وبعضها يعود إلى طبيعة الواقع والملابسات المحيطة به، أو المشروعية الاجتماعية، وبعضها يعود إلى إمكانات وآليات التنفيذ والإنجاز، وبعضها يعود إلى الموازنات المختلفة بين المآلات المتوقعة للموقف.. إلى ما هنالك من المؤثرات المتنوعة؛ الفعلية والمحتملة، التي تدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في بناء وتشكيل دورة الفعل التغييري.

---

(١) البخاري رقم ٣٠٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١١٦.

فـ«الدورة الإنجازية» للفعل التغييري، تستكمل أصالتها وفعاليتها وقابليتها للاطراد، بقدر ما تتكامل فيها الأبعاد والمعطيات السابقة، وتتضاءل أصالتها وفعاليتها وقابليتها للاطراد، بقدر ما تتجزأ أو تتنافر أو تبتسر هذه الأبعاد والمعطيات.

النموذج التطبيقي الثاني:

حرية العبادة ومفسدة السفر بلا محرم

وفي السياق نفسه الذي تتعارض فيه المصلحة مع المفسدة، فتقدم المصلحة ويغض الطرف عن المفسدة، أي تعتمد فيه الوسيلة المرجوحة أو المحظورة أحياناً! لتحقيق مصلحة راجحة.. يورد ابن تيمية مثالاً تطبيقياً آخر على ذلك، استخرجه من حركة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، حيث بين أنه يجوز للمرأة المسلمة أن تهاجر بلا محرم إلى دار الإسلام، كما فعلت أم كلثوم التي أنزل الله فيها آية الامتحان[1]، مع أن ذلك لا يجوز في الأصل لورود النهي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦١.

عنه في أحاديث كثيرة منها: «لا تسافر المرأة إلّا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلّا ومعها محرم»[1].

فالموقف على الصعيد العملي، تحكمت فيه اعتبارات موضوعية ذات صلة بمصلحة الفرد من ناحية، ومصلحة الدعوة من ناحية أخرى، وآليات الإنجاز من ناحية ثالثة، نقلته إلى مرحلة جديدة، تتطلب تكييفاً متوازناً يحقق أصالته أو مشروعيته وفعاليته، ولو في حدودها الدنيا مرحلياً، ريثما تتم عملية استعادة التوازن النموذجي المطلوب للموقف.

النموذج التطبيقي الثالث:

قالة السوء وأولوية إنقاذ الأرواح والأعراض

وهناك وقائع أخرى مشابهة، مثل حادثة الإفك، فقد اضطر سيدنا صفوان بن المعطل إلى اصطحاب السيدة عائشة رضي الله عنها معه، لمّا تخلفت في طريق العودة من غزوة بني المصطلق[2]، رغم ما كان يحفُّ بالموقف من ملابسات شرعية

---

(١) متفق عليه.

(٢) ابن هشام، السيرة ٣/ ٣٤٢.. البخاري ٥ / ١٤٨.

وحركية أو سياسية، كما دل على ذلك فعلاً استغلال القوى المضادة للموقف، وتحريكه في اتجاه إثارة فتنة خطيرة في المجتمع، مسَّت مساحات واسعة من شبكة علاقاته الاجتماعية، وامتدت لتطال مواقع حساسة في عمق هذه الشبكة، ممثلة في عرض مضغة الدعوة وسمعتها وشرفها، وهو بيت النبوة!

ولم نسمع في حيثيات الحادث وتفاعلاته المتشعبة، تساؤلات أو تعقيبات عن تصرف سيدنا صفوان ﷺ، لا في القرآن، ولا في السنة، ولا في أحاديث ومأثورات الصحابة.. بل ظل الأمر منسلكاً في إطاره الشرعي، المستوعَب بقواعد الفقه الاستثنائي الضرورية لاستعادة التوازن المفقود لحياة الفرد والجماعة والمجتمع..

فما أرجف به المرجفون في المدينة، من قالة السوء في عرض البيت النبوي الطاهر[1]، وكان سيدنا صفوان على وعي مسبق به، فقد سقط من اعتباره أمام أولوية إنقاذ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الأخطار التي كانت تهدد

(١) البخاري، حديث رقم ٢٤٦٧.

حياتها وكرامتها، في حالة ما إذا تاهت في الطريق! فاصطحبها معه حتى أبلغها مأمنها، ولم يعر اهتماماً للَّغَط الهائل الذي هزّ المدينة من جراء استغلال المنافقين للحادثة.

النموذج التطبيقي الرابع:

الهجرة الاضطرارية ومفسدة الخلوة

ومثل حادثة هجرة أم سلمة، والتقائها بعثمان بن طلحة في الطريق، فاصطحبها معه حتى أبلغها مأمنها بالمدينة. ولم نسمع كذلك عن أية تساؤلات أو تعقيبات اعتراضية عن الموقف السلوكي لأي من الصحابيين الجليلين!

فهذه الحالات بررت فيها الغاية الوسيلة، وعد ذلك أمراً مشروعاً، رغم محظوريته في الأصل! لما اعتراه من ملابسات أدخلته في دائرة الضرورة، وفي هذا يقول ابن تيمية: «إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلّا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً، وإن

سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم»[1].

وفي المقابل كذلك نجد أن ما أفضى إلى مفسده غالبة ومحققة كان غير مطلوب، ولو كان في الأصل مشروعاً، مثل أن يكون في أمر إنسان بطاعة، فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيتعدى عليه في العقوبة، ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه. ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي[2].

النموذج التطبيقي الخامس:

إغاظة الخصوم ومفسدة الجراءة على المقدسات

وفي القرآن الكريم نهى الله سبحانه وتعالى أحداً أن يفعل فعلاً جائزاً أو مندوباً يؤدي إلى محظور، قال تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٥٤.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٧- ١٥/ ٣٥٤ - ٢٠/ ٥٨.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام ٦/ ١٠٨].

فهذه الآية دلت على أنه لا يجوز أن يفعل بالكفار ما يزدادون به بعداً عن الحق ونفوراً منه. كما دلت على أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب. وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب"[1].

فبالرغم من أن ذم الكفر وتعرية رموزه والتهوين من شأنها في نفوس الناس، أمر مرغوب ومطلوب لضرب مرتكزات المنظومة الفكرية والروحية للمجتمع الجاهلي، وتقويض الأنظمة الاجتماعية الظالمة المنبثقة منها، إلّا أن الشرع منح الدعوة مساحة واسعة من الناحية الإنجازية لتقدير الموقف، وتكييف الوسائل والأساليب التي تخدمه، وتجرد خصوم الدعوة من أية إمكانية للإساءة لها، أو تسجيل مواقف

(١) الرازي، التفسير الكبير ١٣/ ١٤١.

على حسابها، ولو كان ذلك بالكف أحياناً عن رد الفعل المطلوب مبدئياً، لتفويت الفرصة على القوى المضادة.

النموذج التطبيقي السادس:

قابليات الرأي العام وتأجيل إنفاذ بعض الأولويات

وفي السيرة النبوية نجد أن رسول الله ﷺ كان يرغب في إعادة هندسة الكعبة، لتنظيم حركة الدخول إليها والخروج منها، وتلافي الازدحام، لكن عوائق نفسية واجتماعية وسياسية خاصة بالوضع الانتقالي للدعوة منعته من ذلك. قالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم**»[1].

وعلق ابن حجر على هذا الحديث بقوله: «ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه إنكار ترك المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وإن الإمام يسوس رعيته

(١) البخاري، حديث رقم ١٥٨٦.

بما فيه إصلاحهم، ولو كان مفضولا، ما لم يكن محرما»[1].

على هذا الأساس، يتضح لنا أنه: «حيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم»[2].

وعن تبعية الوسيلة للغاية وتكيُّفها معها، يقول ابن القيم رحمه الله: «لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلّا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها، بحسب إفضائها إلى غايتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها، بحسب إفضائها إلى غاياتها، فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل»[3].

و الأمر نفسه يعيد ابن تيمية تأكيده وتوضيحه أكثر في

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٣٥.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٢٦.

(٣) إعلام الموقعين ٣/ ١٧٥ وما بعدها حيث أورد أمثلة كثيرة جداً.

قوله: «إذا كان المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر... بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية، من دعوتهم إلى الدين، والإطلاع على باطن أمرهم، لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين، أو نحو ذلك من المقاصد الصالحة»[1].

مع أن الأصل هو مخالفة المشركين والكفار في بعض مظاهر حياتهم، خاصة ما يتأسس منها على معنى ديني، أو قد تؤدي المشابهة فيه إلى المشاركة العاطفية والفكرية والاجتماعية التي انفردوا بها عن المسلمين[2]، وجوز العلماء ذلك وأوجبوه في بعض الحالات، كما هو واضح من كلام ابن تيمية، تبعاً للمصلحة الشرعية، التي وضعت لها ضوابط صارمة، تخرجها من دائرة الهوى وتلحقها بدائرة تحري الحق والمصالح الراجحة، والاستمساك به قدر الاستطاعة، وذلك وفق سلم متدرج الأولويات، يتحرك عبره المسلم حركة فاعلة، يحقق بها مطالب الشرع ومصالح العباد، من

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم ١٧٦.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ٦/ ١٧٥.

غير إفراط أو تحجر، ولا تفريط أو تسيب.

النموذج التطبيقي السابع:

أمن الدعوة ومفسدة كشف بعض المستورات

ونأخذه من إباحة الكشف عن العورة المغلظة للضرورة، مع أن ذلك لا يجوز في الأصل، كما نرى ذلك في الكشف عن عورات بعض شباب بني قريظة لما تآمر قومهم مع الأحزاب للقضاء على شأفة الدعوة بالمدينة، وقرر الرسول ﷺ بعد التشاور مع الصحابة تأديبهم، وجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه الإقدام على مثل هذه الخيانات الخطيرة.

وفي ذلك قال عطية القرظي: عرضنا على رسول الله ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لم ينبت خلوا سبيله، فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي[1]!

وفي السياق نفسه، يندرج تهديد المجموعة التي أرسلها الرسول ﷺ لاعتراض المرأة التي ذهبت لتسليم كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش زمن الفتح الأكبر، فقد روي أنهم

---

(١) السنن، حديث رقم ٣٨٢٦.

هددوها بكشف جسدها بحثاً عن الرسالة، إن هي لم تخرجها عن طواعية! قائلين: «لتخرجنّ الكتاب أو لنجردنّك»[1].

وعلق ابن القيم عن موقف المجموعة بقوله: بجواز تجريد المرأة وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة... فإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك، حيث تدعو إليها، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى[2].

وفي أثناء اضطراب الموقف العسكري للمسلمين بغزوة أحد، واحتياج تداركه إلى روح المبادرة، روى لنا أنس بن مالك ﷺ أنه رأى السيدتين الجليلتين عائشة أم المؤمنين وأم سليم رضي الله عنهما، وأنهما لمشمرتان، وخدم سوقهما عاريتان، وهما تنقزان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم[3]!

فالموازنات الدقيقة بين المصالح في ذاتها، وبين المفاسد في ذاتها، وبين المصالح والمفاسد، أمر مشروع بشروطه

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٤٨٦.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٢٣.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وضوابطه، لتتيح الشريعة للدعوة إمكانية المبادرة لاستيعاب التحديات التي تعترض حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ولا تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه التحديات التي قد تعرض أمن الدعوة والدولة والمجتمع والأمة لأخطار كبيرة، فهاهنا تعمل قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

النموذج التطبيقي الثامن:

المحن ومفسدة المجاراة الظاهرية للكافرين

ونأخذه من إذنه عليه الصلاة والسلام لعمار بن ياسر رضي الله عنهما بمجاراة الكفار ظاهرياً، في بعض ما يطلبونه منه من النيل من الله ورسوله ودينه.. لتخفيف أذاهم الشديد عنه! فقد جاءه ﷺ يوماً، باكياً منكسر النفس، وأخبره بأنه اضطر تحت التعذيب إلى مقاربة المشركين في بعض ما أرادوا! فقال له ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: إنْ عادوا فعُد**»[1].

وفي ذلك جاءت الرخصة في مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ

---

(1) القرطبي، الجامع ١٠ / ١٨٠.

أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل١٦/ ١٠٦] لتفسح المجال أمام المبتلين لاستيعاب بعض نواحي القسوة أو الشدة أو الأخطار التي يتعرضون لها ولا يطيقون تحملها، أو يؤدي تكلف تحملها إلى تفويت مصالح أعظم منها[1]، محافظة على توازنهم، ولو كان ذلك السلوك منهم يدخل بعضه في المفضولات، وبعضه الآخر في المكروهات أو المحظورات المندرجة في نطاق الضرورات المقدرة بقدرها.

وفي هذا السياق أورد ابن العربي تعليقات وتطبيقات كثيرة مفيدة على الآية السابقة، نذكر منها ما علق به على التهديد،وهل يدخل ضمن دائرة الإكراه أم لا؟ حيث قال: «وقد اختلف الناس في التهديد، هل هو إكراه أم لا؟ والصحيح أنه إكراه، فإن القادر الظالم إذا قال لرجل: إن لم تفعل كذا وإلّا قتلتك، أو ضربتك، أو أخذت مالك، أو سجنتك، ولم يكن له من يحميه إلّا الله، فله أن يقدم عل الفعل، ويسقط عنه الإثم في الجملة، إلّا في القتل فلا خلاف

(١) الشافعي، أحكام القرآن ٢/ ١٦.

بين الأمة أنه إذا أكره عليه بالقتل أنه يحل له أن يفدي نفسه بقتل غيره، ويلزمه أن يصبر على البلاء الذي ينزل به»[1].

النموذج التطبيقي التاسع:

الأخذ بعزائم المواقف عند اللزوم

ومن صور الواقعية كذلك، عدم الأخذ بالرخص بشكل مطلق، بل أحياناً يكون الأخذ بقمم العزائم هو المطلوب، إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للدين والمجتمع والأمة، كما جرى على سبيل المثال مع الإمام أحمد في محنته، ومع الإمام مالك وأبي حنيفة وسعيد بن جبير، وسيد قطب.. وغيرهم من قمم الفكر والقدوة في الأمة، حيث رفضوا أن يأخذوا بالرخصة في وقاية أنفسهم من البلاء الذي سلط عليهم، واختاروا الصبر أو الشهادة من أجل المحافظة على صفاء وعي المجتمع والأمة.

وفي هذا السياق يقول ابن العربي كذلك:«إن الكفر وإن كان بالإكراه جائزاً عند العلماء، فإن من صبر على البلاء، ولم

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٦٠.

يفتتن حتى قتل فإنه شهيد، ولا خلاف في ذلك، وعليه تدل آثار الشريعة التي يطول سردها، وإنما وقع الإذن رخصة من الله رفقاً بالخلق، وإبقاء عليهم، ولما في هذه الشريعة من السماحة ونفي الحرج ووضع الإصر»[1]. وفي الحديث النبوي: **«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره و نهاه فقتله»**[2].

النموذج التطبيقي العاشر:

تحمل بعض المفاسد الخاصة من أجل المصالح العامة

ونأخذه من استباحته عليه الصلاة السلام قطع وتحريق بعض نخيل بني النضير، لما استعصى عليه إجبارهم على الاستسلام والخضوع لشروط الجلاء، فقد أذن عليه الصلاة والسلام بذلك ضغطاً عليهم لإنهاء المقاومة، وتسريع إنهاء عملية الحصار بأقل التكاليف. فقالوا له: كيف تدّعي بأنك تريد الإصلاح في الأرض وأنت تفسد فيها؟ وهل تجد فيما أوحي إليك من الكتاب جواز الإفساد في الأرض؟ فأنزل

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٦٢.

(٢) الألباني، السلسلة الصحيحة رقم ٣٧٤.

الله تعالى نصاً تشريعياً يقر ما فعله المسلمون، جاء فيه: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝ ﴾ [الحشر ٥٩/ ٥].

فهاهنا اقتضت الموازنات الشرعية الدقيقة، تجاوز بعض جوانب المفسدة الجزئية التي تلحق باقتصاديات المجتمع، أو أي جانب من جوانب حياته، والتغاضي عنها مرحلياً، من أجل دفع أخطار ومفاسد أكبر، وتحقيق مصالح أعظم، لا يمكنها أن تُدفع أو تتحقق إلّا بارتكاب أخف الضررين[1].

فعندما تتوافر للمصلحة شروطها الموضوعية، وتستوفى سبل البحث عن تحقيقها، يتعين الإقدام على تنفيذ ما أفضى إليه تقدير الموقف دون تردد، حتى وإن تم إنجاز ذلك بوسائل استثنائية، لأنها تصبح حينئذ مشروعة بالضرورة والحاجة المقدرة بقدرها، كما يؤكد ذلك قوله في الآية: ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الذي يتضمن الإذن القدري والشرعي معاً، أي إنّ ذلك الموقف يكتسب شرعيته من منطق سنن الله

(١) القرطبي، الجامع ١٧/ ٨.

في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، وسننه في الهداية التشريعية من جهة أخرى.

النموذج التطبيقي الحادي عشر:

اللجوء إلى استثمار المعاريض عند الحاجة

ونأخذه هذه المرة من إمكانية استعمال المعاريض التي فتحتها الشريعة أمام المسلم ليواجه بها بعض الضغوط، ويتخلص من بعض الحرج الذي لا يمكنه التخلص منه إلّا بذلك. ويمكن أن نذكر هنا أمثلة تطبيقية عديدة، تأتي في مقدمتها قصة إبراهيم عليه السلام مع أحد جبابرة عصره، حينما أجبره على تسليم زوجته سارة إليه. فقد جاء في الحديث أنه أرسل إليه فسأله عنها، فقال: «من هذه؟ قال: أختي - يقصد أخته في الله ـ فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض

حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر»[1].

فإبراهيم عليه السلام تلافى الخطر على نفسه وعلى زوجه، باستعمال المعاريض، وإيهام العدو بأنها أخته، وهو يقصد بأنها أخته في الله.

النموذج التطبيقي الثاني عشر:

تمويه الحقيقة على العدو

ومن مناسبات استعمال المعاريض بفعالية، ما نجده في هجرة النبي ﷺ، من قول أبي بكر ﷺ لمن كانوا يسألونه في الطريق: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ يقصدون النبي ﷺ. فيقول: «هذا الرجل يهديني السبيل. قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير»[2].

ومن الحكايات الطريفة التي أوردها ابن العربي في

---

(١) البخاري رقم ٣٣٥٨.

(٢) البخاري رقم ٣٩١١.

تفسيره، قوله: «ويحكى عن بعض العلماء زمن فتنة الإمام أحمد ﷺ، أنه دعي إلى أن يقول بخلق القرآن، فقال: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ـ يعددهن بيده - هذه الأربعة مخلوقة، يقصد هو بقلبه أصابعه التي عدد بها! وفهم الذي أكرهه أنه يريد الكتب الأربعة المنزلة من الله على أنبيائه، فخلص في نفسه، ولم يضره فهم الذي أكرهه»[1].

وينبغي أن يلحظ هنا، بأن موقف الإمام أحمد كان في قمة الأخذ بالعزيمة، مراعاة لإنصاف الحقيقة، وقياماً بواجب الذب عن الشريعة، وحرصاً على عدم تغليط الجمهور. فالعالم ينبغي أن ينظر في مآلات الموقف على مستوى صيانة وعي المجتمع والأمة، فإذا كان الموقف يتطلب منه الأخذ بالعزيمة لزمته المصابرة والثبات عليه، وتعين عليه الاحتياط من الأخذ بالرخصة التي قد تكون هنا خذلاناً للحق، وتزييفاً للوعي، وإعانة على المنكر!

يقول ابن تيمية عن مشروعية المعاريض، في سياق حديثه

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٦١.

عن الغيبة: «فالكذب على الشخص حرام كله سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً، براً أو فاجراً لكن الافتراء على المؤمن أشد بل الكذب كله حرام. ولكن يباح عند الحاجة الشرعية ـ المعاريض ـ وقد تسمى كذباً، لأن الكلام يعني به المتكلم المحض وإن كان على ما يعنيه، ولكن ليس على ما يفهمه المخاطب. فهذه المعاريض وهي كذب باعتبار الإفهام وإن لم تكن كذباً باعتبار الغاية السائغة. ومنه قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات كلهن في ذات الله: قوله لسارة: أختي. وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾. وقوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾».

وهذه الثلاثة معاريض، وبها احتج العلماء على جواز التعريض للمظلوم، وهو أن يعني بكلامه ما يحتمله اللفظ، وإن لم يفهمه المخاطب، ولهذا قال من قال من العلماء: إن ما رخص فيه رسول الله ﷺ إنما هو من هذا، كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس بالكاذب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً أو ينمي خيراً**»، ولم يرخص فيما يقول الناس أنه كذب إلّا في ثلاث: في

الإصلاح بين الناس، وفي الحرب، وفي الرجل يحدِّث امرأته.

قال فهذا كله من المعاريض خاصة، ولهذا نفى عنه النبي ﷺ اسم الكذب باعتبار القصد والغاية كما ثبت عنه أنه قال: «الحرب خدعة»، وأنه كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها[1].

إن هذه النماذج التطبيقية والنصوص التوضيحية من الكتاب والسنة، والتراث الإسلامي الفقهي والأصولي - التي سيأتي المزيد منها لاحقا - تبين لنا بوضوح معالم منهجية الإسلام وأسلوبه في التربية والتوجيه، وتغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية... مهما كان قربها أو بعدها من الإسلام.

فالذي يتأمل هذه الوقائع والنصوص التي يزخر بها القرآن والسنة ويزدحم بها التراث الإسلامي، يجد أن منهجية التغيير الإسلامي مبنية على قواعد أساسية كبرى هي:

- قاعدة أو مبدأ المصلحة المتكاملة؛ الشرعية والاجتماعية.

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٤٧.

- قاعدة أو مبدأ ضبط وترتيب أولويات الإنجاز.
- قاعدة أو مبدأ التدرج في إنجاز هذه الأولويات.
- قاعدة أو مبدأ مراعاة المآلية الشرعية والاجتماعية للموقف.
- قاعدة أو مبدأ الوقاية المرافقة أو الاستراتيجية لمنجزات العمل.
- قاعدة أو مبدأ فعالية الأداء في العمل.

فالقائم بعملية التغيير، يمارس وظيفته من خلال «سلم متدرج» ذي مراحل متتالية، ودرجات متعاقبة، تستوعب كل مظاهر الحياة الإنسانية؛ السوية والشاذة.. عبر قاعدة أو «**نظام الأولويات**»، و«**منطق المآلات**» اللذين يعينانه على التقديم أو التأخير، والصعود أو النزول، والإقدام أو الإحجام، والمباشرة أو الإرجاء.. بكيفية تضمن الجمع أو التوفيق بين مطالب الشرع ومصالح العباد،حسب الضرورة والحاجة.

فالتدرج الصاعد: هو الهدف المنشود دائماً من وراء التغيير، فالعامل في سبيل الله يسعى باستمرار للارتفاع بالأفراد

والجماعات.. إلى أعلى مستويات الإلتزام بالإسلام والتطابق مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، أي إلى **الأخذ بالعزائم**، وذلك حسب نظام دقيق **للأولويات**، مبني على التوفيق والتنسيق بين مكونات وأبعاد **«الدورة الإنجازية»** للفعل الدعوي التجديدي.

التدرج النازل: ولما كانت مصالح العباد متجددة ومتنوعة ومتباينة أحياناً، بسبب اختلاف وتنوع التوزيع الإلهي للمواهب والقدرات، واختلاف وتباين الظروف والأوضاع النفسية والفكرية، والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والبيئية.. للأفراد والجماعات والمجتمعات والدعوات[1].. فإن **التدرج الصاعد**، رغم أنه هو الأصل والمرجع والهدف، لا يستوعب كل مظاهر النشاط الإنساني المتجدد والمتنوع والمتباين... خاصة في مراحل ضعف آثار النبوة وانحسار القيم والأحكام الإسلامية في حياة الناس، فأُقر مبدأ **التدرج النازل** المبني على الرخص، ليواجه الإسلام حالات الضعف وظروف الاضطرار، التي

---

(١) انظر القسم الأول من: «معالم هادية على طريق الدعوة..» للمؤلف.

تعترض سبيل القائم بعملية التغيير، وترغمه على التخلي مؤقتاً عن الأخذ ببعض العزائم، والانتقال إلى الأخذ ببعض الرخص، من أجل حفظ التوازن بين مطالب الشرع من جهة، وحماية مصالح الدعوة من جهة ثانية، وضمان تحقيق مصالح العباد من جهة ثالثة، ريثما تتهيأ شروط استئناف الصعود مرة أخرى.

فهذا النزول المؤقت من قمم العزائم إلى سفوح الرخص، أمر مشروع لا غضاضة فيه مادامت:

- نية المسلم المترخص سليمة ومقصده شريفاً، لا يستهدف من ورائه انتهاك حرمة الشرع، أو إلحاق الأذى بحقوق ومصالح الآخرين من المسلمين وغيرهم.
- والحاجة الموضوعية غير الموهومة تدعوه وتضطره إلى ذلك، محافظة على توازنه ابتداء، أو استعادة لهذا التوازن بعد اختلاله.
- وحرصه على مصلحة الدين والمجتمع والأمة.. ظاهراً لا لبس فيه ولا غموض، حيث يعي تماماً ضرورات الموازنة بين ما هو خاص أو ذاتي أو فردي أو فئوي..

وما هو عام أو كلي أو اجتماعي يهم المجتمع والأمة كلها، فيقدم ما حقه التقديم من المصالح والواجبات والحقوق، ويؤخر أو يهدر ما حقه التأخير أو الهدر من هذه الواجبات والحقوق والمصالح.

- وسعيه المخلص الجاد الدؤوب للتطابق مع الشرع؛ بالعودة إلى نطاق العزائم، ومبارحة دوائر الاستثناءات، ومستويات الاسترخاص التي ألجأته الحاجات أو الضرورات إلى ولوجها للمحافظة على توازنه أو السعي لاستعادته.. متواصلًا بلا تفريط، أو استرسال وراء تداعيات الأمر الواقع.

يقول ابن تيمية مشيراً إلى مشروعية هذا التدرج النازل، ومذكراً بأنه ليس مقصوداً لذاته، بل هو مجرد وسيلة لحفظ التوازن مؤقتاً، ريثما تتهيأ ظروف وشروط البدء في عملية التدرج الصاعد من جديد للعودة إلى نطاق المشروعية العادية أو الوسطية: «مع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة، إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال،

حتى يكمل في الناس مالا بد لهم منه، من أمور الولايات والإمارات ونحوها»[1].

ويقول الإمام القرافي مدللاً على مشروعية هذا التدرج النازل ومؤكداً له، عندما يكون هو الأمر المطلوب عمله: «قد تكون وسيلة المحرم غير محرمة، إذا أفضت إلى مصلحة راجحة، كالتوسل إلى فداء الأسارى بدفع المال للكفار الذي هو محرم عليهم الانتفاع به، بناء على أنهم مخاطبون بفروع الشريعة عندنا. وكدفع مال لرجل يأكله حراماً حتى لا يزني بامرأة إذا عجز عن دفعه عنها إلّا بذلك. وكدفع المال للمحارب حتى لا يقع القتل بينه وبين صاحب المال عند مالك رحمه الله تعالى، ولكنه اشترط فيه أن يكون يسيراً. فهذه الصور كلها الدفع وسيلة إلى المعصية بأكل المال. ومع ذلك فهو مأمور به لرجحان ما يحصل من المصلحة على هذه المفسدة»[2]. وإعمال هذه الوسائل الاستثنائية في مواجهة

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ٢١.

(٢) القرافي، الفروق ٢/ ٣٣.

الظروف الاستثنائية، يجري طبعاً في ضوء كليات: «الضرر يزال» و«الضرورة تقدر بقدرها».

لعله اتضح لنا الآن البون الشاسع بين غاية الإسلام ووسائله، وغايات غيره من المناهج والمذاهب ووسائلها.

- فالغاية في الإسلام هي مرضاة الله، من خلال الحرص على موافقة سننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، قدر الطاقة والإمكان.

- والغاية في غيره تابعة للأهواء والشهوات والمصالح الذاتية والفئوية والطبقية..غالباً، التي قد يكون كثير منها مناقضاً لسنن الله المشار إليها.

- الغاية في الإسلام هي تحقيق مصلحة الدين والدعوة إليه، ونفع العباد وإصلاح حال البلاد، ليعم النفع والخير جميع الناس ولا ينحبس في طبقات أو مستويات معينة في المجتمع.

- والغاية في غيره غالباً ما تتمحور حول تحقيق المصالح الخاصة، والمنافع الذاتية، ولو أدى ذلك إلى الإضرار

بالأفراد والمجتمع،كما يتضح ذلك من نظام العلاقات الدولية القائم على أساس أنه ليست هناك مبادئ ثابتة، أو أصدقاء وأعداء دائمين،ولكن هناك مصالح قومية ثابتة!

- الوسيلة في الإسلام محكومة بتحقيق مصلحة الدين والدعوة إليه، وتحقيق مصالح العباد وفق نظام متدرج محكم في شموله وتوازنه، يلجم طغيان الذاتية والهوى والغرائز السافلة أو السلبية في الإنسان.

- والوسيلة في غيره محكومة بالهوى، وتحقيق المنافع الخاصة بالتحايل والمخادعة والمكر، والمداهنة والمنافقة.. وغيرها.

وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن إطلاقاً إجراء مقارنة بين «الغاية والوسيلة» في الإسلام وغيره من المذاهب والمناهج والاتجاهات، لأن هذه مبنية على الهوى والشهوات والمصالح الذاتية الخاصة في كثير من الأحيان، والشريعة مبنية على أساس إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً[1]. أي الوصول به

(١) الموافقات ٢/ ١٦٨.

إلى أعلى مستويات الموضوعية والتوازن في علاقاته الذاتية والاجتماعية، وذلك ببيانها أن المصالح المجتلبة شرعاً، والمفاسد المستدفعة، إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، أو درء مفاسدها العادية"[1].

وأكتفي هنا بهذا القدر من التوضيح، وأحيل القارئ الكريم إلى التفاصيل في الفصول التالية من هذه الرسالة، ففيها تطبيقات ضافية عن المرونة الحركية المنضبطة في الإسلام[2]. وخاصة فيما يتصل باستثمار الوسائل الاستثنائية أو المرجوحة، عند توافر دواعيها، واستيفاء شروط واحتياطات الأخذ بها.

والذي أُلِحُّ عليه، وأرى تعميق الوعي به لدى المسلم أمراً هاماً وحاجة ملحة، خاصة بالنسبة إلى من وجد نفسه في مواقع القدوة والقيادة والمرجعية والشهادة، هو السعي

(١) الموافقات ٢/ ٣٧.

(٢) يجد القارئ الكريم تفاصيل ضافية في رسائل المؤلف عن: «الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية» و«التجديد الحضاري ومشكلة الوسيلة» و«المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها» بجزأيه الأول والثاني.

الجاد للتحرر من ثقل الفكر التعميمي، والنظرة المثالية لقضية التغيير، التي كثيراً ما تسقط من حسابها مرجعية الواقع وسلطته، أو مرجعية الإمكانات المتاحة وسلطتها، أو مرجعية حركة البناء وسلطتها في العملية التغييرية، ولا تهتم إلّا بمرجعية النص وسلطته، أو بمرجعية الواقع وسلطته، كل منها على حدة، وبصورة تناقضية أو تنافرية أحياناً كثيرة.

فعندما يعود القائم بعملية التغيير إلى السيرة النبوية، ليستلهم منها منهج الدعوة والبناء والمواجهة، فهناك يقف على حقيقة هذه القضية بالخصوص ـ أي قضية الوسائل الاستثنائية ـ التي لم تطرح إطلاقاً في الفكر الإسلامي بهذه الصورة، عندما كانت صلة المسلمين بالإسلام صلة عمل وحركة وتغيير ومعاناة يومية في الميدان، لا صلة حفظ واستذكار للنصوص والآراء، وتنظير مكتبي، وسجال كلامي.. وشتان بين الصورتين، والاتجاهين، والموقفين، والمنهجين، والهمَّين، والاهتمامين!

فالإنسان العملي أو الميداني غير الإنسان المكتبي أو المتفرج

أو الواصف للأحداث.. "[1]؛ لأن الأول يعيش هموم الواقع، ويواجه مشكلاته، ويعاني متاعبه.. من منطلق التغيير والتجديد المنهجي الفعلي له، والثاني يسمع عن ذلك فقط، أو يقرأ عنه في الكتب والصحف، وهو مسترخ في مخدعه أو في مكتبه.. ثم يتصوره بعد ذلك وفق ما مر به من تجارب وخبرات، ثم يصدر فيه أحكامه بالسلب أو الإيجاب، موقعة باسم الدين حيناً، وباسم المصلحة الوطنية أو القومية.. حيناً آخر!

وكم من إنسان وقف زمناً، يناهض فكرة أو مشروعاً أو أسلوباً أو وسيلة ما في الدعوة والبناء والمواجهة، ويشنع بأصحابها، فلما قدِّر له أن ينزل إلى ميدان العمل ويواجه نفس الظروف والمشكلات، تغيرت فكرته ومواقفه، وصار يلوم نفسه ويؤنب ضميره، عندما يقارن ما أنجزه هو بما أنجزه غيره ممن كان موضع تندُّر وانتقاد عنده، قبل أن ينزل من برجه العاجي، بل وسجنه الفكري!

---

(١) انظر القسم الأول من: معالم هادية على طريق الدعوة.. للمؤلف. طبعة دار الشهاب.الجزائر.

لهذا كله، فإن فهم هذه العلاقة بين الغاية والوسيلة فهماً إسلامياً سليماً، ينتج عملاً أصيلاً وفعالاً ومطرداً، يحتاج إلى:

- فهم شمولي متكامل وعميق للنسقية المعرفية والمنهجية للإسلام.
- حمل صادق لهذا الإسلام، وتفاعل عميق ومتواصل مع حركة الدعوة إليه والتجسيد لنموذجه الاجتماعي أو الحضاري في واقع الحياة.
- معايشة ميدانية ومعاناة يومية لمشكلات الناس ومواقفهم من الإسلام الحضاري الشامل.
- متابعة واعية لحركة التدافع بين الحركة الإسلامية المجددة للإسلام، وبين قوى الاستكبار العالمي وخدامه، وضراوة الصراع الرهيب المعلن والمستتر الذي تخوضه مجتمعة ومنفردة على كافة الجبهات ضد المد الإسلامي التجديدي.

هذا الفهم العميق للإسلام، والتفاعل الشامل مع

الدعوة إليه، والمعاناة الميدانية لهموم حركة البناء والمواجهة، هي التي تجعل المسلم يعرف ويقدر أهمية ومكانة كفاءة أو فعالية الوسيلة في تدعيم مسيرة النهضة الحضارية للأمة، لأن ذلك وحده هو يؤكد له عياناً بأن حركتي التدافع والتداول الحضاري ترتبطان في جزء أساسي منهما بكفاءة وفعالية وسائل الإنجاز المتكاملة، التي لا تغني فيها العزيمة عن الرخصة ولا الرخصة عن العزيمة، ولكن لكل منهما فعاليته الخاصة في وقته وفي مناسبته.

سلطة ملاءمة منهجية الإنجاز وفعاليتها

وهو من المكونات الأساسية للواقعية الإسلامية، إذ لا يكفي أن يوفق القائم بعملية التغيير في تحديد وتوفير الوسيلة الكفأة أو الفعالة، بل لابد من أن يوفق كذلك في تحديد الأسلوب الملائم للإنجاز، أي ضمان أصالة وفعالية منهجية استثمار هذه الوسيلة، لأن الوسيلة قد تتوافر ولا يستفاد منها، بسبب الجمود العقلي، أو قلة الخبرة، أو ضعف الإرادة، أو ضبابية الرؤية، أو انعدام الإدراك الجيد للمشكلات، وسوء التقدير لطبيعة ولحجم التحديات المحيطة بعملية الإنجاز...

فالأسلوب أو التنفيذ الفعال هو الذي يعطي للوسيلة مداها في التأثير ومعناها في العمل، ذلك عندما ينجز بها أكثر من عمل، ويحقق بواسطتها أكثر من هدف، بأقل جهد، وفي أقصر وقت، وبأقل المضاعفات الجانبية. وهو ما خلت أو كادت تخلو منه جهود كثير من المسلمين ـ مع الأسف ـ فتوفيقهم في تحديد الوسيلة الفعالة قليل، وإن وفقوا إليها عجزوا عن توفيرها، وإن وفروها فشلوا في الاستفادة منها أخيراً، وهو الأمر المحزن الذي يجب:

- الاقتناع بوجوده في حياتنا أولاً؛ لأن ذلك هو نقطة البداية الصحيحة في كل ما يأتي من العمليات المنهجية التصحيحية بعد ذلك.
- والتمحُّض لدراسة أسبابه، وبواعثه، وكيفية التخلص منه ثانياً، حتى ينقذ الجهد الدعوي التجديدي من التبديد والتعطيل.

إن واقعية الأسلوب أو المنهجية التنفيذية تعني: ضرورة خضوع جميع الجهود المكرسة لإنجاز الفعل

التغييري، إلى منهجية علمية فنية دقيقة، تضبط وتوجه الفعل الكلامي والكتابي والسلوكي والعلاقاتي... بما يحقق الاستفادة النموذجية القصوى من الوسائل والإمكانات المتوافرة، بطريقة جمالية فيها جاذبية وإغراء، تقلل من دوافع التحفظ والاعتراض والمقاومة لدى الآخرين، وتدفع بهم إلى الانفتاح الإيجابي على الموقف، والانجذاب السريع أو التدريجي نحو المشاركة فيه، وهو إحدى الأهداف الأساسية للتربية الإسلامية، يشعر بها ويحسها كل من يتأمل في التوجيهات القرآنية والنبوية.

ولما كان أسلوب الأداء يتعلق بالسلوكية الحضارية أو الأخلاقية الاجتماعية، فإنه يدخل فعلاً في جوهر العملية التربوية المتكاملة، المرتبطة بطبيعة المجال الثقافي للمجتمع، ونوعية الأفكار والقيم المسيطرة على هذه المنظومة الثقافية المؤطرة للسلوك البشري، والسابغة له بالأصالة أو الإمعية، والإيجابية أو السلبية، والتكاملية أو التنافرية..

ولا يخفى مدى البون الشاسع بين الاستيعاب أو

النضج المعرفي، والاستيعاب أو النضج السلوكي في العملية التربوية، إذ يمكن للإنسان أن يحصِّل كماً معرفياً كبيراً في زمن قياسي، ولكنه يحتاج إلى وقت أطول وشروط أكثر لتحويل ذلك الكم المعرفي إلى وعي فكري، ثم إلى أخلاقية سلوكية راسخة، تصدر عنها كل تصرفاته بيسر وسهولة وتلقائية، مجسدةٍ لجمالية روحية وفنية متكاملة، في الفكر والسلوك والتواصل الاجتماعي.

ونكتفي هنا بذكر ثلاثة نماذج مما ورد ذكره في القرآن والسنة، عن الأهمية البالغة للجمالية الأسلوبية أو السلوكية المتوازنة في العملية التغييرية، وكيف يتوقف عليها الجزء الأكبر والأهم من أصالة الإنجاز وفعاليته وقابليته للاطراد، باعتبار الأسلوب يتعلق بالكيفية المنهجية التي يتعاطى بها الإنسان مع الأفكار والأشياء والأشخاص في المجتمع[1]، كما أسلفنا بيان ذلك.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ٩٣.

النموذج التطبيقي الأول:

ونأخذه من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت ٤١/ ٢٤].

فالأسلوبية السلوكية المتوازنة، لا تنجح في التأثير الابتدائي الفعال في الآخرين فحسب، ولكن تتجاوز ذلك إلى التأثير في الواقع المغاير والمعادي، وتحويله إلى واقع منسجم ومتآلف مع الدعوة والدولة والمجتمع والأمة. وهو ما تؤكده الخبرة البشرية المستفيضة، وترتقي به إلى مستوى السنن التسخيرية العامة، التي تكتسب ـ كما تنبه الآية ـ عبر جهد تربوي شامل ودؤوب[1] يصقل خبرات الفرد والجماعة، ويعمق وعيهما بسنن الحياة في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

(١) سيد قطب، الظلال ٥ / ٣١٢١.

النموذج التطبيقي الثاني:

ونأخذه من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران ٣/ ١٥٩].

وهو تأصيل تطبيقي للسنة التسخيرية الكلية السابقة، التي جسد الرسول ﷺ تطبيقها في حياته الرسالية خير تجسيد، وهو ما منح سلوكه الالتزامي والدعوي أصالتهما وفعاليتهما النموذجية القصوى، التي كان لها تأثير عميق على الواقع المحيط به، كما يدل على ذلك التحول الفكري والنفسي والاجتماعي الضخم، الذي أحدثته حركته في المجتمع الجاهلي المعاصر له، وكل المجتمعات البشرية التي كان لها احتكاك ما بالإسلام والمسلمين عبر التاريخ.

فالسلوكية الأخلاقية الرفيعة، التي كانت تطبع علاقاته بغيره من البشر، وببقية الكائنات الكونية الأخرى، هي التي

جمعت حوله قلوب الناس، وباركت جهده، وارتقت به إلى مستويات نموذجية من الكمال والخيرية[1]، وجعلت منه عليه الصلاة والسلام القدوة المرجعية الخالدة للبشر.

النموذج التطبيقي الثالث:

ونأخذه من قوله ﷺ: **«إنّ الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه»**[2]. وفي رواية: **«إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»**. أي إنّ الرفق يتأتى به من الأغراض ويسهل به من المطالب، ما لا يتأتى بغيره، كما يعلق على ذلك القاضي عياض[3].

ولا شك أن الرفق هنا ذكر كقيمة سلوكية أخلاقية محورية أو كلية، تختزن كمّاً كبيراً من القيم السلوكية الأخلاقية الناضجة، التي تجعل الموقف السلوكي للفرد والجماعة.. يتسم باليسر والسماحة والرحمة، والجمالية الفنية والروحية الآسرة، ومن ثم بالأصالة والفعالية الإنجازية النموذجية، التي تشكل

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٧/ ٣٥٥.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٤٦٩٨.

(٣) انظر شرح صحيح مسلم للنووي.

مقصداً محورياً للاستخلاف البشري.

هكذا نلاحظ كيف يشكل أسلوب أو منهجية الأداء بعداً أساسياً من أبعاد «**الدورة الإنجازية**» للفعل التغييري، إن لم يكن أخطر هذه الأبعاد كلها؛ ذلك لأنه يتعلق بصلب العملية الإنجازية ذاتها، التي تشكل أبعاد فهم المرجعية الشرعية والميدانية، وتحضير الإمكانات المادية للإنجاز.. مقدمات شرطية لها، قد تتوافر بشكل نموذجي، ولكنها لا تفيد ولا تجدي كثيراً، إذا كان الوعي بالمنهجية الأسلوبية أو بالسلوكية الإنجازية التي تستثمر ذلك، ضعيفاً أو قاصراً.

وما أكثر ما تتوافر للأفراد والجماعات والمجتمعات.. إمكانات الفهم والإنجاز والوقاية، ولكنها لا تستثمر بأصالة وفعالية، بل ربما تحولت ـ في ظل ضعف وقصور المنهجية الأسلوبية أو السلوكية الإنجازية لديها ـ إلى قوة تنافرية اهتلاكية خطيرة، كما هو واقع نسبة كبيرة من الممارسات الدعوية والاجتماعية والسياسية.. في الساحة الإسلامية العامة.

ولعل مما يؤكد الأهمية البالغة للسلوكية أو المنهجية

الإنجازية في العملية التغييرية، تأمل ما تظهره بعض الأبحاث السلوكية، من أن ٧٪ من نتيجة محاضرة أو محادثة مع جمهور مثلًا، تعتمد على كلمات التواصل، وأن ٣٨٪ من هذه النتيجة ترجع إلى أسلوب تقديم المحاضرة أو المحادثة وإيقاعها، وأن ٥٥٪ منها يعود إلى لغة الجسد وما ترسله من إشارات ورموز جاذبة للآخرين[1].

ومن هنا نقول: إنه عندما يستجمع جهد المسلم الذاتي والرسالي أو الدعوي، ما سبقت الإشارة إليه من القيم السلوكية أو الأخلاقية المتكاملة، يندرج تلقائياً وبصورة أصيلة وفعالة ضمن الواقعية السلوكية والإنجازية المتوازنة، وعندما يتخلف عنصر من هذه العناصر، فإن ذلك سيكون حتماً على حساب هذه الواقعية المنشودة، التي من دونها يتنافر الجهد ويتبدد، ويكون العامل كالحارث في البحر، أو المتراوح في مكانه، يفقد الطاقة ولا يحصل على المردودية الفكرية أو الروحية أو الاجتماعية المطلوبة، وصدق رسول

(١) روبرت هاينهان، فن المحاضرة المؤثرة ٧٥.

الله ﷺ عندما أرشدنا إلى إحسان كل شيء نعمله فقال: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»[1].

وفي القرآن جاء التوجيه العام إلى ذلك في مواطن كثيرة جداً، نكتفي بذكر قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك ٦٧/ ٢]. وقوله سبحانه: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر ٣٩/ ١٨].

فالإحسان بمعناه التسخيري العام، الذي يبلغ فيه الأداء الاجتماعي للفرد والمجتمع.. قمة أصالته وفعاليته الفنية والجمالية؛ الروحية والمادية المتكاملة، كما نرى، هو مستقطب النشاط الاستخلافي في الإسلام، وأساس التمايز والمفاضلة بين البشر، في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية الإنسانية باستمرار.

(١) رواه البيهقي وأبو يعلى وابن عساكر.

وكل ذلك مرتبط على الدوام ـ كما رأينا حتى الآن ـ بمدى استيفاء **«الدورة الإنجازية»** للفعل الدعوي أو البنائي أو الوقائي.. لشروطها الأساسية، التي سبق الحديث عنها في هذا الفصل، والتي بإمكانها أن تحقق الحد النموذجي الأقصى للواقعية الحركية المنشودة، أو تضمن على الأقل الحد الأدنى من هذه الواقعية الإنجازية أو التسخيرية المطلوبة، للمحافظة على توازن حركة الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة.

سلطة تقدير مآلات الأفعال

وهو من المكونات الأساسية كذلك للواقعية الحركية أو الإنجازية الإسلامية، إذ لا يكفي أن تستوعب **«الدورة الإنجازية»** للفعل، المعطيات الأساسية السابقة، بل يجب أن يمتد استيعابها إلى مرحلة هي من أدق وأخطر مراحل عملية الإنجاز، وهي مرحلة تقدير المآلات القريبة والمتوسطة والبعيدة ـ ما أمكن ـ للفعل على حركة البلاغ والبناء والمواجهة من ناحية، وعلى المصالح المختلفة للدعوة والدولة والمجتمع والأمة.. من ناحية أخرى.

فمآلات الأفعال لها سلطة كبيرة على تكييف عملية الإنجاز وتوجيهها بشكل مستمر؛ ذلك لأن الفعل إذا كانت نتائجه أو مآلاته محمودة ونافعة للدعوة والدولة والمجتمع والأمة.. وجب المضي في إنجازه، أو استُحِبَّ ورُغِّبَ فيه، وإن اعترته بعض المفاسد الجانبية أو لازمته، وإن كانت له نتائج ومآلات غير محمودة في الجملة، وجب العدول عنه، أو استحب، تقديراً للمصلحة في مستوياتها المختلفة.

ونظراً للأهمية الحيوية الكبيرة التي يكتسيها البعد المآلي للأفعال والتصرفات، فقد أولاها الشرع أهمية كبيرة، وارتقى بها إلى مستوى المقومات المنهجية الأساسية للواقعية الحركية، ومنحها سلطة تكييفية متناسبة مع أهميتها في تحقيق أصالة «الدورة الإنجازية» للفعل، وضمان فعاليتها، والمحافظة على منجزاتها، كما أعطاها لبقية المكونات والمقومات الأخرى، التي سبق الحديث عنها.

وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة،

وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلّا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروع لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلّا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة»[1].

فالمآل إذن مكيف أساس للفعل، الغفلة عنه، أو تجاهله، يؤدي إلى سحب المشروعية عن الفعل بحسب ذلك؛ لأنه يولد فعلاً معرفياً أو سلوكياً أو اجتماعياً.. معلولاً

(١) الموافقات ٤/ ١٩٤.

فاقداً للصلاح والصلاحية معاً، ومشحوناً بالفساد والضرر الذي جاءت الشريعة للتحذير منه، والعمل على تجاوزه باستمرار. ومن يدرس مباحث الذرائع؛ سداً وفتحاً، وإبطال الحيل، ورفع الحرج، وفقه معالجة النوازل عامة.. يقف على مدى **سلطة مراعاة المآل** في تكييف المواقف والتصرفات والأفعال في الشريعة الإسلامية الغراء، التي: «مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها»[1] على حد تعبير ابن القيم.

وفيما يلي بعض النماذج التطبيقية عن مراعاة الشريعة لهذا البعد الحيوي الهام، في منهجية بناء الأفعال والمواقف وتأسيس «**دوراتها الإنجازية**»، وقد مرت معنا وستمر نماذج تطبيقية كثيرة، يظهر فيها جلياً دور سلطة المآل في تكييف الأفعال والتصرفات.

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٤.

النموذج التطبيقي الأول:

ونأخذه من موقف الشريعة من «ظاهرة صناعة الطواغيت» في المجتمعات البشرية، وما ينجم عنها من مشكلات عقدية وفكرية ونفسية وسياسية واجتماعية.. مهلكة للمجتمعات والأمم والحضارات! حينما يستبد بها أشخاص ويستخفونها ويسومونها سوء العذاب، جزاء ما بالغت في احترامهم أو الرهبة منهم[1]!

لقد واجهت الشريعة هذه الظاهرة المعضلة، وقاومت أسبابها ودواعيها من جذورها، كما يبدو ذلك من رفض الرسول ﷺ أي مظهر من مظاهر التعظيم الجاهلي له، على جلالة قدره، وعظم مكانته عند الله وعند الناس، مهما كانت دوافعه حسنة وبريئة، وكان يقول لأصحابه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله**»[2]. كما كان يقول: «**اللّهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد،**

(١) سيد قطب، الظلال.

(٢) البخاري، حديث رقم ٨٣١٨.

اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

وجاءه قوم فأخذوا يمتدحونه، ويقولون له: يا خيرنا وابن خيرنا، ويا سيدنا وابن سيدنا..فنهرهم عليه السلام وقال لهم: «.. **أنا عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»**[2].

هكذا كان ﷺ يقاوم أي اتجاه نحو التورط في متاهات صناعة الطواغيت، وما تؤدي إليه من وثنية جديدة، تهدر قيمة الفكرة وسلطانها على النفوس والأوضاع، وتعلي من شأن الأشخاص الذين سرعان ما يتحولون إلى طواغيت وأوثان بديلة[3]!! تدخل المجتمعات في عهود الوثنية المزرية بالكرامة الآدمية وشرفها.

فبالرغم من أن حب العظماء والصالحين، واحترامهم وتوقيرهم، واعتبار التفاني في خدمتهم ونصرتهم من أهم

(١) مالك في الموطأ، حديث رقم ٣٧٦.

(٢) أحمد في المسند، حديث رقم ١٢٠٩٣.

(٣) مالك بن نبي، شروط النهضة ٣٠، مشكلة الأفكار ٩٥.

أسباب التقرب إلى الله تعالى، ولوازم الطاعة والعبادة والمروءة.. إلّا أن الشريعة أرادت أن تضع ذلك في مكانه الصحيح، وألاّ تتجاوز به قدره، حتى لا يتحول إلى وسيلة لصناعة الطواغيت وتكريس الوثنية في المجتمع. وهذا دأب الشريعة في كل شيء، فهي مبنية على منهج وقائي استباقي متكامل، يعطي أهمية كبيرة لمآلات الأمور، ويُعملها في بناء المواقف والتصرفات والأفعال.. بشكل مطرد.

النموذج التطبيقي الثاني:

ونأخذه من منهج الشريعة في مواجهة مشكلة حماية الأعراض، ووقاية المجتمع من عواقب تعرض هذه الأعراض للانتهاك والامتهان، وخاصة بواسطة الزنا، الذي تترتب عليه تبعات شرعية وصحية ونفسية واجتماعية وخيمة!

فالشريعة نظرت إلى كل هذه المآلات، وبنت عليها منظومة تشريعية متكاملة من التدابير المحكمة، التي أخذ فيها البعد الوقائي مكانة كبيرة وأساسية[1]، كما نلمس ذلك من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٥٣.

التوجيه القرآني العام، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء ١٧/ ٣٢] الذي تفرعت منه كل التدابير المتصلة بغض البصر، ومنع التبرج والاختلاط، وتشجيع الزواج وتسهيله، وإشاعة أجواء العفة النفسية واللسانية والسلوكية والاجتماعية، وإقرار العقوبات الحدية والتعزيرية كعلاجات أخيرة للتهديدات التي تواجه المجتمع في عمق علاقاته الاجتماعية[١].

فكل ما يهدد عمق هذه العلاقات الاجتماعية ولو من بعيد، سدت الشريعة الطريق أمامه، وفتحت أمام المجتمع طرقاً جديدة للإشباع والوقاية. وهو ما يعطينا صورة أخرى عن مدى تأثير البعد المآلي في عملية تكييف المواقف والتصرفات والأفعال، ويعزز وعينا بمدى أصالة هذا البعد في مكونات ومقومات «الدورة الإنجازية» للواقعية الفعالة.

النموذج التطبيقي الثالث:

ونأخذه من لفت القرآن نظر المسلمين زمن النبوة، إلى

(١) الشوكاني، فتح القدير ٣/ ٢٢٣.

التأثيرات السلبية لبعض المصطلحات التي كانوا يستعملونها، دون التفات إلى ما فيها من إيحاءات سلبية، يستغلها خصوم الدعوة للإساءة إلى قيادتها، فدعاهم القرآن إلى اليقظة الفكرية، وتجريد خصوم الدعوة من أية إمكانية لتشويهها والتشويش عليها. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة ٢/ ١٠٤]. فقد نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير، لئلا يكون قولهم ذريعة للتشبه بالمشركين في سب الرسول ﷺ ومعايرته بهذه الكلمة التي كانت تعني عندهم الرعونة[1]!

فالفقه المآلي يقتضي وعياً مستمراً بمقتضيات الأحوال، وموازنات متكاملة بين الخيارات المتاحة، وتجديد المواقف بحسب ما تمليه المصالح الآنية والمستقبلية، للدعوة والأفراد والمجتمع والأمة.. حتى وإن فوت ذلك مؤقتاً بعض المصالح العاجلة، أو أثر مرحلياً في بعض الأولويات وأخَّر

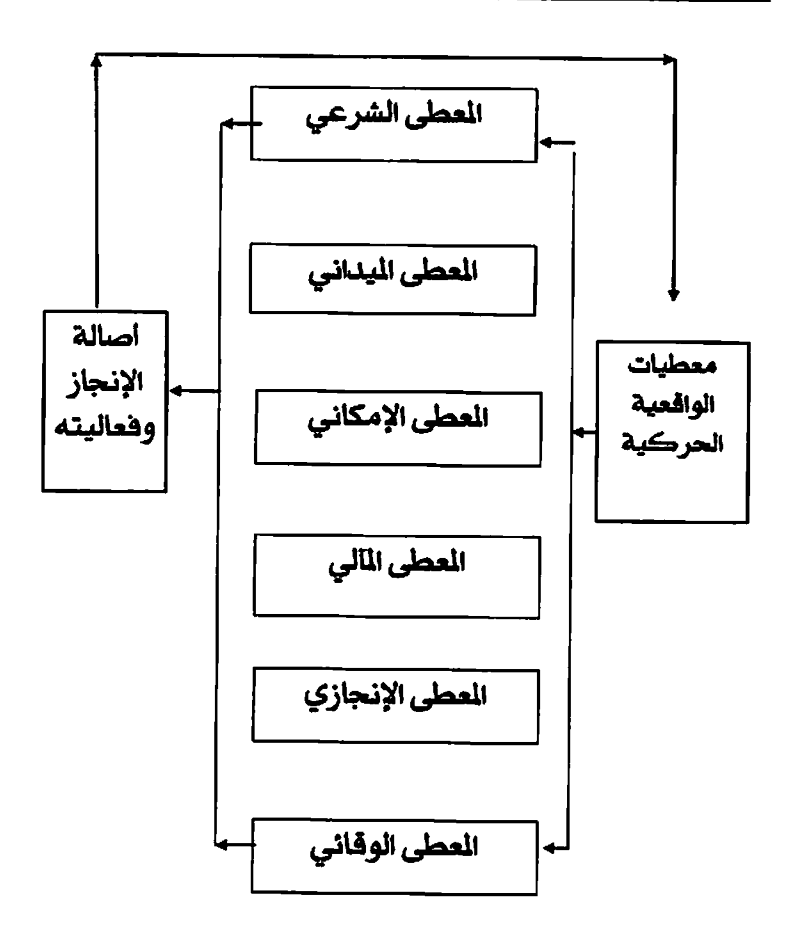
(١) ابن القيم، إعلام الموقعين ٣/ ١٣٧.

إنجازها، توخياً لما هو أولى منها وأكثر أهمية من الناحية المبدئية، أو أكثر فعالية من الناحية الإنجازية!

ومهما أخذنا من نماذج تطبيقية من القرآن والسنة، وتراث الصحابة وأجيال الدعوة عبر التاريخ، فإننا سنجد تأثير المآل في صياغة المواقف والتصرفات، وتكييف الأفعال.. مطرداً لا يتخلف أبداً، الأمر الذي يؤكد دوره في تحقيق واقعية الحركة وفعاليتها وأصالتها.

قانون
«الدورة الإنجازية» للفعل الواقعي

وفي نهاية حديثنا عن المقومات المنهجية للواقعية الحركية الإسلامية المنضبطة، يمكننا أن نخلص إلى تلخيص الإطار المعرفي الهيكلي العام، لما يمكن أن نعتبره قانون «الدورة الإنجازية» لهذه الواقعية الحركية أو الإنجازية المتوازنة، كما تتوق إليها الرؤية الإسلامية لحركة الاستخلاف في الأرض. وفيما يلي الصيغة التصميمية العامة لهذا الإطار المعرفي:



فالواقعية الحركية المنضبطة أو المتوازنة، التي تمنح حركة التربية والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، أصالتها وفعاليتها النموذجية القصوى، هي التي تستجمع «دورتها الإنجازية» باستمرار، كل هذه الأبعاد والمعطيات، بصورة

شاملة ومتكاملة ومتوازنة، فإذا اختلت العناية بأي بعد من هذه الأبعاد، وفقد سلطته أو جزءاً منها في عملية «إنجاز دورة» الفعل، فإن ذلك سيؤثر سلباً وبشكل مباشر وعميق، في أصالة الفعل، وفي تكامل فعاليته، ويمتد ذلك ليؤثر بدوره سلباً في مجمل حركة التربية والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، التي تؤثر هي كذلك سلباً في وضع المجتمع والأمة في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، المحركة للصيرورات الحضارية المتعاقبة.

- فالوعي المعرفي والوظيفي أو التسخيري المتكامل بالمعطى الشرعي؛ في أبعاده المقاصدية والحُكمية، وفي سوابقه التطبيقية، يمنح دورة الفعل أصالتها وجزءاً هاماً من فعاليتها الاجتماعية والوقائية.

- والوعي بالمعطى الميداني كما هو على حقيقته، من غير اجتزاء له، أو تحكم تعسفي فيه، يمنح دورة الفعل الاجتماعي فعاليتها ومصداقيتها الاجتماعية.

- والوعي بالمعطى الإمكاني المتاح والقابل للإتاحة الفعلية

على المدى القريب والمتوسط والبعيد، يمنح دورة الفعل فعالية اجتماعية إضافية.

- والوعي بالمعطى المآلي يجنب دورة الفعل النكسات المحبطة، الناجمة عن المغامرة غير المحسوبة العواقب.
- والوعي بالمعطى الإنجازي أو التنفيذي المتحكم تخطيطياً ومنهجياً وفنياً في تنفيذ مشروعات العمل، يمنح دورة الفعل الاجتماعي فعاليتها الاجتماعية الموضوعية الملموسة في الواقع.
- والوعي الوقائي المبكر أو المرافق أو الاستراتيجي، يحافظ على استمرارية حركة الإنجاز، ويحمي منجزاتها الاجتماعية من الهدر والتبديد.

وكل هذه العمليات المنهجية المترابطة والمتكاملة وظيفياً، تطبع دورة الفعل الاجتماعي الكلية بالمزيد من الأصالة والفعالية والاطراد، الذي يمنح حركة الدفع الاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة، قوتها وزخمها وحيويتها المطلوبة.

الباب الثاني[1]

تطبيقات نموذجية
وضوابط منهجية

(١) ويحتوي على ثلاثة فصول.

الفصل الأول :

تطبيقات نموذجية في الدعوة والبناء والمواجهة

الفصل الثاني :

المصلحة العليا للإسلام والواجبات الدائمة لقادة الدعوة والتغيير

الفصل الثالث :

ضوابط المصلحة وقواعد الترجيح

تمهيد

الآن وبعد أن تحدثنا عن الخصائص المبدئية والحركية للدعوة الإسلامية، باعتبارها ضوابط معرفية ومنهجية لحركة الدعوة والبناء والمواجهة في العملية التغييرية، وحاولنا استخلاص الإطار المعرفي الهيكلي العام لقانون «الدورة الإنجازية» للواقعية الحركية المتوازنة، نشرع عبر الباب الثاني في الحديث عن الجانب التطبيقي أو العملي، لنرى كيف التُزِمَتْ هذه الضوابط والكليات المعرفية والمنهجية؟ وكيف يجب أن تلتزم في عملية الدعوة والبناء والمواجهة، سواء في:

- الفعل الدعوي النبوي، باعتباره إطاراً مرجعياً ضابطاً وموجهاً لغيره من الجهود الدعوية التجديدية الأخرى عبر الزمن.
- أو في الفعل الدعوي لأجيال الدعوة عبر التاريخ الدعوي

التجديدي للأمة، في بيئاتها الحضارية المختلفة والمتنوعة.

وقد حاولت في عرض النماذج التطبيقية، مراعاة تنوعها، واستيعابها لمواقف وظروف وحالات شتى، مما يمكن أن يحدث أو يواجه أية حركة دعوية تجديدية، في أي مكان أو زمان، خاصة ما يتصل بالأوضاع والظروف المعقدة غير العادية، التي تحتاج إلى موازنات وترجيح بين المصالح والمفاسد عامة، وبين المصالح في ذاتها، وبين المفاسد في ذاتها كذلك.

إذ الإشكال الأكبر الذي يواجه حركة الدعوة والبناء والمواجهة، ويؤدي غالباً إلى اضطراب الموقف الحركي أو العملي لحركة التغيير والتجديد، ومن ثم إلى التأثير السلبي على أصالتها وفعاليتها واطراديتها ومصداقيتها.. لايكمن في صعوبة وتعقد الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد فقط، ولكنه يتجاوز ذلك إلى الموازنة والترجيح بين خير الخيرين وشر الشرين، خاصة في المراحل الانتقالية في مسيرة الدعوات وحياة المجتمعات والأمم، حيث يطرح **الفقه الاستثنائي** أو **الانتقالي** نفسه بحدة، مستصحباً معه إشكاليات كثيرة، قد

يؤدي عدم الوعي بها، وسوء التحكم فيها، إلى مضاعفات خطيرة على أصالة ومصداقية العملية التغييرية برمتها.

وهذا كما لا يخفى يحتاج إلى فقه عميق بمكونات وأبعاد وأنظمة «الدورة الإنجازية» للفعل التغييري، كما سيتضح لنا جلياً من خلال ما سنعرضه من نماذج تطبيقية للفعل الدعوي في الحركة النبوية خاصة، وحركة أجيال الدعوة عبر التاريخ عامة، نستبين منها الأسرار الموضوعية لاتسام «الدورة الإنجازية» لفعلهم بالأصالة والفعالية والاطراد من جهة، واكتشاف دور المنهج في ذلك كله من جهة أخرى، والوصول أخيراً إلى وضع أيدينا على منهج التأسي أو الاستثمار الموضوعي للخبرة النبوية المرجعية والخبرات التاريخية الذاتية المرتبطة بها.

۞ ۞ ۞

الفصل الأول

تطبيقات نموذجية
من الفعل الدعوي في الحركة النبوية

تمهيد في المرجعية المعيارية للحركة النبوية

وباعتبار السنة النبوية تشكل الإطار المرجعي الثاني للحجية والمعايرة والتأسي في المنظومة المعرفية والحياتية للأمة، فإنه يحسن بنا أن نستقرئ بعض العينات من أقوال وأفعال وتقريرات وأحوال الرسول ﷺ، لنرى كيف كان عليه السلام، يبني مواقفه وتصرفاته في الدعوة والبناء والمواجهة، ونكتشف قواعد المنهج الكلية التي كانت تحكم ذلك وتؤطره، وتمنحه الأصالة والفعالية الإنجازية المطلوبة.

ففي حياته ﷺ، ما يغني المسلم في الواقعية الحركية المنضبطة، ويوجه خطاه في عمليات الدعوة والبناء

والمواجهة، حيث يقدم لنا رسول الله ﷺ دروساً في القمة، وتوجيهات فذة في الواقعية الحركية المنضبطة أو الأصيلة، يكفي المهتمين بعملية التغيير والتجديد أن يعمقوا نظرهم فيها، ويجتهدوا في استخلاص قواعد المنهج الضابط لها، ثم يحاولوا استثمارها على ضوء ما أتيح لهم من وسائل أو إمكانات، وما سمحت به الظروف من أساليب، ليحدثوا التغيير المنشود المرتبط بمقومات المنهج الأساسية، والمتناغم مع مستجدات وطموحات وتحديات المعاصرة.

فتعميق القراءة في المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، هو المدخل الأساس الذي بإمكانه أن يؤصل علاقتنا بالقرآن والسنة والسيرة خاصة، والخبرة المعرفية والحضارية للأمة والإنسانية عامة، ويحرر مبادراتنا الفكرية والسلوكية والحركية.. من الملابسات الظرفية والبيئية والخصوصية التي أثرت في «الدورات الإنجازية» أو المرجعية الأم، التي لا يمكن أن يتحقق الانتفاع بها، إلّا عبر تجريدها من الخصوصيات الزمانية والمكانية والذاتية.. ذات الطابع التاريخي غير الملزم، ووصلها بالخصوصيات الزمانية والمكانية

والذاتية الآنية والمعاصرة.

وكما سبق أن لاحظنا، فإن اضطراباً كبيراً قد اعترى جوانب كثيرة من التنظيرات الفكرية، والمبادرات الحركية على حد سواء، وهو ما كان له تأثير سلبي على فعالية جهود ومبادرات الدعوة والبناء والمواجهة، التي تقوم بها شخصيات وحركات ومؤسسات عديدة في الأمة، بالرغم مما يصر عليه كل فريق من الالتزام بالمشروعية الشرعية، والحرص على استلهام مفاهيم وتوجيهات الكتاب والسنة! الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عن مواطن الخلل في هذه الجهود الفكرية والحركية.

ولا شك أن النماذج التطبيقية التالية، تبين لنا بوضوح أن الخلل كامن في اضطراب مناهج التأسي بالسيرة النبوية، والاستلهام للقرآن والسنة والتراث الفكري والسلوكي والحركي للسلف الصالح، بل وعموم الخبرة البشرية، حيث يلاحظ مدى الغفلة الشديدة عن المنهج، ومن ثم مدى ضعف وهشاشة واضطراب الانضباط المنهجي في العلاقة بالكتاب والسنة وخبرة السلف، والتورط في التجزيئية والآلية والحدية

والتنافرية والاقصائية.. التي تجعل «الدورة الإنجازية» لمبادراتنا ومواقفنا وتصرفاتنا.. لا تستكمل شروط أصالتها وفعاليتها في كثير من الأحيان، فتأتي منقوصة مضطربة واهنة، لا تقوى على الوفاء بحاجات حركة الدعوة والبناء والمواجهة، ولا على مواجهة تحدياتها المتصاعدة.

إن النماذج التطبيقية التالية، تؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن الواقعية الحركية المنضبطة، هي أساس الأصالة والقوة والفعالية في الحركة النبوية، وأن هذه الواقعية الحركية الفذة، هي محصلة منهج وانضباط منهجي لا يتأخر في أي فعل أو موقف نبوي، وهو ما يدعونا إلى تعميق القراءة في معطيات هذا المنهج وأبعاده وثوابته وآلياته.. ومراجعة واقعنا الفكري والحركي بصرامة على ضوئه، بغية الارتقاء بأدائنا الدعوي والتربوي والثقافي والاجتماعي.. إلى مستوى التأسي الموضوعي النموذجي المطلوب بالسنة والسيرة النبوية.

إن هذه النماذج تلقي لنا الضوء على أبعاد البصارة النموذجية في الفعل النبوي، التي تشكل جوهر المنهج ولبَّه، كما

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف ١٢/ ١٠٨] وهو ما يجب أن يحققه أي جهد إقتدائي به عليه الصلاة والسلام، كما نصت الآية على ذلك صراحة، وجعلت العلماء يقررون بحق أن الاتباعية أو الإقتدائية الحقة بالرسول ﷺ، لا تتم لفرد أو جماعة أو مجتمع.. إلّا إذا دعا إلى ما دعا إليه الرسول، وكانت دعوته على بصيرة بنص الآية[1]. فمن اضطربت نسبة البصارة في جهده كان له من الإقتداء بحسب ذلك!

النموذج التطبيقي الأول:

الموقف من تصاعد ابتلاءات الأتباع

ونأخذه من موقفه ﷺ، من المحن المتكاثفة التي كان يتعرض لها أصحابه، الذين جاؤوه يشكون ويستنصرون، في ظروف صعبة ومعقدة، كانت تدعو إلى التحرك لرفع الضغوط العاتية عن قاعدة الدعوة التي تكاد قواها تنهار

(١) ابن القيم، التفسير القيم ٣١٩.

وتتضعضع، كما يلحظ من فحوى الحديث، فقال لهم معلماً وموجهاً ومواسياً: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، ما يبعده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلّا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

إنه موقف حرج من المواقف المتكررة في تاريخ الدعوات، عندما يستعجل فيها الأتباع الدعوة والقيادة، تحت تأثير ما يلاقونه من متاعب وضغوط، وما يرونه من انفصال بين المبادئ والممارسات العملية، إلى اتخاذ مواقف عمليه حاسمة لرفع الضغوط، وتقليل المتاعب، وإزالة الانفصال.

فكان موقف رسول الله ﷺ، غاية في الواقعية الحركية المنضبطة، فلم ينجر وراء موقفهم الذاتي العاطفي، مع شعوره الحاد بحالهم وتأثره العميق بما يلاقونه، وتقديره التام لخطورة

---

(١) رواه البخاري.

ماقد ينجر عن استمرار ذلك، بل حاول بث الأمل في نفوسهم، والتهوين من شأن ما يشكون منه، لأنه كان يعلم يقيناً أن أوضاع الدعوة في تلك الفترة لا تحتمل ما اقترحوه ورجوه، فكانت تلك المصارحة والمكاشفة ضرورية لشحذ إرادة المكابدة والمصابرة لديهم. كما كان بث الأمل في مستقبل واعد قريب، ضرورة أخرى لموازنة الموقف بصورة موضوعية.

النموذج التطبيقي الثاني:

الاستفادة من أجواء الحرية في المجتمعات الأخرى

وعندما نتأمل جانباً من جوانب الحل الذي قدمه رسول الله ﷺ، لمشكلة الاضطهاد، والمتمثل في الهجرة إلى الحبشة، نلمح وجهاً آخر من وجوه واقعية التحرك النبوي الذي كان ينتقل بالدعوة من موقع إلى موقع، بخطاً مدروسة وعبر مراحل مرسومة، ومنهجية مرنة منضبطة.

فالرسول ﷺ، أدرك أن هناك فئات معتبرة من قاعدة الدعوة، أثرت فيها عمليات الاضطهاد، وقد ظهر ذلك جلياً في شكواهم السابقة، وأيقن أن دعوتهم إلى الصبر

والتحمل أصبحت لا تكفي وحدها أمام تصاعد وتائر عنف الاضطهاد والإغراء.. ففتح أمامهم آفاقاً عملية أخرى للثبات والاستمرار منها:

- الاستخفاء
- والهجرة
- والتقية
- والمواجهة الفردية المحدودة عند اللزوم لمن يستطيع.

أما الهجرة: فقد تمت وتفاصيلها معروفة، يمكن العودة إليها في كتب السيرة، والتأكد من الدور الوقائي الهام الذي أدته في التخفيف عن قاعدة الدعوة وحمايتها من مضاعفات تصاعد وتائر الاضطهاد. زيادة على التجاوز المرحلي لإشكالات قانونية وثقافية.. يطرحها قبول العيش تحت وصاية دولة أو نظام مغاير، قد يؤثر بشكل أو آخر في واقع ومستقبل كوكبة هامة من صفوة قاعدة الدعوة، كما حدث على سبيل المثال لعبيد الله بن جحش الذي ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية[1].

لقد كان ذلك كله متوقعاً ومحسوباً عند رسول الله ﷺ،

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٧/ ٢٨٥.

في استراتيجية ومنهجية الدعوة والبناء والمواجهة، القائمة على الموازنة والملاءمة الموضوعية الواقعية الدقيقة بين المصالح الفردية والجماعية، والآنية والمستقبلية.. للدعوة والصفوة والدولة والمجتمع.

وأما التقية: فقد أُكره بعض المسلمين تحت التعذيب على شتم رسول الله ﷺ، والنيل مما يدعو إليه، فعز عليهم ذلك، فجاءه بعضهم يشكو ويعتذر، فقال له: إن عادوا فعد. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل ١٦/ ١٠٦].

وفي سياق قراءة استنباطية تعميمية منضبطة، يقول (الإمام ابن العربي) تعقيباً على الموقف: اختلف الناس في التهديد، هل إكراه أم لا؟ والصحيح أنه إكراه، فإن القادر الظالم إذا قال لرجل: إن لم تفعل كذا وإلّا قتلتك، أو ضربتك،

أو أخذت مالك، أو سجنتك.. ولم يكن له من يحميه إلّا الله، فله أن يقدم على الفعل، ويسقط عنه الإثم في الجملة..

ويضيف في موضع آخر مبيناً: أن الكفر وإن كان بالإكراه جائز عند العلماء، فإن من صبر على البلاء ولم يفتتن حتى قتل فإنه شهيد ولا خلاف في ذلك.. وإنما وقع الإذن رخصة منه ورفقاً بالخلق، وإبقاء عليهم، ولما في هذه الشريعة من السماحة ورفع الحرج ووضع الأصر"[1].

وأما الاستخفاء: فقد ظل قوم من المؤمنين يعيشون مع الكفار في مكة، لم يتمكنوا من الهجرة مع رسول الله ﷺ، فاضطروا إلى كتم إسلامهم فترة من الزمن، وقد أشار القرآن إلى ذلك وهو يعلق على أحداث صلح الحديبية، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح ٤٨/ ٢٥].

(١) أحكام القرآن ٣/ ١١٧٧.

فلم يُجبروا على إعلان إسلامهم، ولم يُطعن في ولائهم للإسلام ببقائهم بين أظهر المشركين، يأخذون منهم، ويعطون لهم في وقت كانت فيه الهجرة فرضاً. وهو ما يعمق الوعي بأهمية النظرة الواقعية للأمور، والحاجة المستمرة إلى الموازنة الدقيقة بين معطيات الموقف ومآلاته؛ بالنسبة إلى الدعوة والقيادة والصفوة والمجتمع والدولة.. وعدم الانسياق العاطفي أو الحماسي وراء المنهج التعميمي اللاموضوعي، الذي يسقط من حساباته المعطيات والأبعاد الخصوصية في الوقائع والظواهر والمشكلات، الأمر الذي يؤثر سلباً على أصالة وفعالية واطرادية «الدورة الإنجازية» للموقف أو الفعل.

أما المواجهة الفردية المحدودة: فقد سمح بها لمن يضطر إلى ذلك من القادرين على رد الفعل المتوازن، الذي لا تهدد مآلاته حاضر الدعوة ومستقبلها، ويحقق بعض النكاية في حركة العدوان على الدعوة وقيادتها وقاعدتها، ويحد من غرورها واستهتارها. كما يبدو ذلك من النماذج التطبيقية التالية:

النموذج الأول: ونراه على سبيل المثال في ضرب سعد بن

أبي وقاص لمن تحرش بهم وهم يؤدون الصلاة، ويتدارسون القرآن، ويتداولون في شؤونهم وشؤون دعوتهم في إحدى شعاب مكة[1].

النموذج الثاني: وكما نلمس ذلك أيضاً في جهر بعض الصحابة (هو عبد الله بن مسعود) بقراءة القرآن في الكعبة، وما لقيه من المشركين[2]، وكيف تحمل ذلك لما فيه من مصالح متعدية، سوغت عدم الالتفات إلى تفويت بعض المصالح الذاتية المحدودة. وقد استوحى بعض فقهاء الدعوة من ذلك قاعدة حركية هامة، وهي أنه قد «يسع الفرد أحياناً ما لا يسع الجماعة»[3]. مع أن الموقف العام بمكة هو تجنب تعمد الجهر بالقرآن، تلافياً للاستفزاز وردود الأفعال القبيحة التي كانت تصدر من المشركين تجاه الله والقرآن والرسول والمسلمين[4].

النموذج الثالث: نراه في بعض الردود التهديدية التي

---

(١) الحاكم، المستدرك ٤/ ٥٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٣٣٦.

(٣) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة.

(٤) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ٦/ ١٧٩.

أطلقها عليه الصلاة والسلام في وجه بعض عتاة القوى المضادة للدعوة، في بعض مراحل تصاعد وتائر المواجهة، كقوله مرة لجمع من ملأ مكة: «**لقد جئتكم بالذبح**»[1].

النموذج الرابع: ونراه مثلاً في ثورة عمه حمزة على أبي جهل، وضربه على مرآى من ملأ قريش، وإعلانه إسلامه تحدياً لهم[2]، ولم ينكر عليه رسول الله ذلك، ولو من باب التحسب من ردود الأفعال الانتقامية التي قد تهز الوضع في المجتمع القرشي هزّاً خطيراً، ويحمل المجتمع تبعات ذلك للدعوة.

النموذج الخامس: ونراه في حادثة إسلام عمر وإصراره على إعلان ذلك على الملأ بصورة فيها الكثير من الاستفزاز والتحدي والمخاطرة[3].

وبهذا الانضباط المنهجي المحكم، وهذه المواقف الواقعية لرسول الله ﷺ، حفظ عليه السلام توازن فئات

(١) صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ، باب كتب النبي.

(٢) الحاكم، المستدرك ٣/ ١٩٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٣٧١.

كثيرة من المسلمين، وتمكن من اجتياز مراحل صعبة بهم، حتى أوصلهم جميعاً إلى حالة التمكين بعد فتح مكة، فكانوا خير سند لانطلاق الدعوة وتعاظم مدها في العالم.

ولولا هذا التنوع الخصب في المواقف، من الظروف المختلفة التي كان يواجهها أصحابه في مختلف البيئات، لخسرت الدعوة طاقات بشرية هائلة، ربما أثرت تأثيراً سلبياً خطيراً في سير حركة الدعوة والبناء والمواجهة يومئذ.

النموذج التطبيقي الثالث:

الاستفادة المنضبطة من أعراف المجتمع وتقاليده

وفي طريق عودته من رحلته الدعوية بالطائف، أخذ الحيطة من إيذاء القوى المضادة له، فطلب من عدد من وجهاء قريش حمايته لدخول مكة، فاعتذر جلهم، وقبل ذلك المطعم بن عدي فدخل ﷺ مكة في جواره، ولم يمنعه شرك، بل وعداوة هؤلاء الذين استعان بهم، من طلب الدخول في جوارهم[1]، واستثمار بعض أعراف المجتمع وتقاليده وأنظمته الاجتماعية والسياسية.. في توفير بعض

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤٠٦.

الحماية له ولدعوته! ما دام ذلك لا يؤثر على مبادئ الدعوة، ولا يمس مصالحها الكلية أو الاستراتيجية.

لقد كان ﷺ في غاية الواقعية، وهو يستثمر العرف القانوني للمجتمع الجاهلي في توفير الحماية لنفسه ولدعوته، دون أن يعيقه عن ذلك حرج نفسي أو اجتماعي أو سياسي، لأن الموقف كان يقتضي المرونة والأخذ بالرخصة، في إطار المحافظة على ثوابت الدعوة، وعدم المساس باستراتيجياتها العامة، ريثما تتهيأ الشروط الموضوعية لتجاوز الوضع الاستثنائي إلى الوضع العادي مجدداً.

النموذج التطبيقي الرابع:

مواجهة الارتباكات السياسية لقاعدة الدعوة

ثم استعرض تفاصيل صلح الحديبية، وما كان من الصحابة من تذمر وهم وغضب، خاصة عمر ﷺ الذي قال: «ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. فقلت علام نعطي الدنية في

ديننا... فقال: إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه»[1].

والدراسة المتكاملة للموقف، تفضي بنا إلى الأهمية البالغة لمنطق الموازنات الاستراتيجية في كسب الرهانات الصعبة، كما يتجلى ذلك في معركة الحديبية، التي لم تكن معركة عسكرية بل كانت معركة سياسية دقيقة، كان لفقه الموازنات فيها دور حاسم، منح للدعوة الإسلامية انتصاراً استراتيجياً بالغ الأهمية، لم يستوعب الصحابة أبعاده في حينها، كما لم تستوعب القوى المضادة انعكاساته الخطيرة على مستقبل الصراع بين الإسلام والجاهلية، وعجزت عن الاستيعاب الاستراتيجي للموقف، وانحبست رؤيتها في نطاق بعض المكاسب الشكلية الآنية، التي حجبت عنها ما هو أخطر، ولم تفطن له إلّا بعد فوات الأوان.

لقد تغاضى رسول الله ﷺ مؤقتاً عن بعض المكاسب الفكرية والسياسية والاجتماعية الجزئية التي حققتها وثيقة الصلح لقريش، وتجاوز منطق العواطف والمثالية المبدئية الحدية، إلى منطق الواقعية

(١) ابن هشام، السيرة ٣ / ٣٦٥.

الحركية المنضبطة، التي تجعله يوازن بين الخيارات السياسية المتاحة، ويختار منها ما هو أعم فائدة للدعوة من غير أن توقفه بعض المكاسب الآنية التي يحصل عليها خصومه.

النموذج التطبيقي الخامس:

الموقف من القوى المنافقة في المجتمع

وتذكر أيضاً موقفه من المنافقين، وهم الفئة الخطيرة التي أتعبت المسلمين كثيراً[1] وعرضت الدعوة والدولة والمجتمع لأخطار جمّة مرات عديدة.. فلقد جاءه عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، الشاب المؤمن الصادق، يعرض عليه وضع نهاية لأبيه، فقال له ﷺ: **«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»**[2] تقديرا منه عليه الصلاة والسلام للمآلات الاجتماعية والسياسية للفعل على حركة الدعوة لدى الرأي العام، كما يتضح ذلك من قوله لمن ألحوا عليه بتصفية المنافقين: **«لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»**[3].

---

(١) انظر تفسير سورة «المنافقون» في: التحرير والتنوير، والظلال...

(٢) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ١٢٥.

(٣) متفق عليه.

فالأمر على صعيد المنهج كما نرى في الموقف النبوي، لا يرتبط أو يتوقف فقط عند مرحلة إدراك الخطأ أو الخطر في الموقف أو الفعل، بل يتجاوز ذلك إلى ضرورة استيعاب بقية مراحل «الدورة الإنجازية» لهذا الفعل أو الموقف، حيث لا يعود بعضها على بعض بالإفساد، بل تتكامل مراحلها ويخدم بعضها بعضاً، ويهيئ السابق منها للاحق.

النموذج التطبيقي السادس:

تأخير بعض الواجبات عن وقتها لضرورات آنية

وفي فتح مكة أمر الجيش الإسلامي وهو في طريقه إلى دخولها أن يفطر، وقد كان الناس صائمين لأن الغزوة كانت في رمضان، ثم بلغه أن بعضهم لم يفطر فقال: «**أولئك العصاة**»[1]!

فها هنا تقدير موضوعي دقيق للموقف، وموازنة رفيعة بين المصالح والمفاسد، لم يدركها الذين فضلوا الأخذ بالعزيمة، وغفلوا عما قد يؤدي إليه عدم الأخذ بالرخصة من إضعاف لفعاليتهم القتالية، وقدرتهم التحملية، في

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ٧٨٥.

موقف يحتاج كثيراً إلى قوة الاحتمال والمكابدة والمصابرة، وإظهار القوة للخصوم.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يوازن بدقة متناهية، بين كل أبعاد «**الدورة الإنجازية**» للموقف أو الفعل، ولا تستفزه أو تستوعبه بعض الأبعاد على حساب الأبعاد الأخرى، بل يعطي لكل عنصر أو مؤثر في «**دورة الفعل**» ما يستحقه من العناية في حينه، في إطار منظومة معرفية ومنهجية وحركية متكاملة، تضع كل شيء في موضعه الصحيح بالدقة الممكنة.

النموذج التطبيقي السابع:

تأجيل تنفيذ بعض الأحكام لضرورات ظرفية

وفي حديث توجيهي لقادة الجيوش أمر ﷺ ألّا تقام الحدود على الجنود المخالفين لبعض أوامر الله ونواهيه، حتى تضع الحرب أوزارها، ويعود الناس إلى دار الأمن، خوفاً من أن تلحق الجندي حمية الشيطان، أو يتملكه الخوف والجزع فيلحق

بالكفار[1]، أو تفتر همته في المكابدة والمصابرة ومغالبة الأعداء.

إن الموقف عند رسول الله ﷺ، كما نبهنا إلى ذلك مراراً، محكوم بالمنهج دوماً، والموقف عندما يكون محكوماً بالمنهج، يأخذ طابعاً موضوعياً متزايداً، يقترب باستمرار من المطلوب إن لم يتطابق معه، بخلافه عندما لا يكون محكوماً بالمنهج، فإنه يغرق في الآلية والجزئية والتناقض والاهتلاكية.. ويبتعد عن المطلوب، ويتورط في متاهات مضاعفة مشكلات الدعوة والدولة والمجتمع..

النموذج التطبيقي الثامن:

انضباط العلاقة بين الإعداد والتوكل

ثم تأمل بعد ذلك إعداده واستعداده واحتياطه في حروبه مع أعادي الدعوة الإسلامية، حيث كان لا يدع وسيلة ولا سبيلاً يحقق القدرة العسكرية إلّا وسلكه، فإذا ما أعد واستعد وعمل كلما في وسعه، رفع يديه إلى السماء قائلاً:

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين ٣/ ٥.

«اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إني أنشدك عهدك ووعدك»[1].

لم يكن يخاف، كما أنه لم يكن يغتر، بل كان كما أمره الله، يعد ويستعد وفق ما تستلزمه سنن الآفاق والأنفس والهداية، ثم يستعين بالله بعد ذلك عبر سنن التأييد، وأخذ عنه أصحابه وأتباعه هذا الفقه الحركي المتوازن، فكان لعملهم أثر بعيد المدى في الحياة البشرية، لاتسام «دورته الإنجازية» بالأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية.

النموذج التطبيقي التاسع:

توسيع الصلات مع قاعدة المجتمع

وعندما نحاول كذلك فحص وتحليل بعض مواقفه المتعلقة بالعلاقات الإنسانية، وكيف كان يعالج رسول الله ﷺ مشاكل الناس، ويقدم لها الحلول الناجعة، يتكشف لنا مرة أخرى جانب عظيم من الواقعية الحركية المنضبطة التي كانت وراء ما كان يحققه من نجاحات مستمرة، أبهرت الناس، وجنبت الحركة مزالق كثيرة، كان من الممكن جدا أن تحد من

(١) السيوطي، الخصائص الكبرى ٣/ ٧٥.

فعالية السير وأصالته واطراده ومصداقيته.

- انظر مثلاً إلى تعديد زوجاته، الذي رأى فيه بعض المغرضين والسطحيين، ما توهموه قدحاً، فستجد أن من بين المقاصد الأساسية لهذا الزواج، إقامة علاقات قوية بفئات اجتماعية لها وزنها في المجتمع، يستل بذلك سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة، مع عائلات إسلامية وقرشية ويهودية ونصرانية...

والذي يتتبع آثار هذا الزواج في شد أزر الدعوة، وجمع القلوب عليها، يستيقن مقدار ما كان يمتاز به النبي ﷺ من بعد النظر، والدراية بالسنن الاجتماعية التي تحكم سير حركة المجتمعات، والحرص على احترام هذه السنن والأخذ بها حسب الحاجة.

النموذج التطبيقي العاشر:

الاستجابة الموضوعية للحاجات الفطرية للبشر

وانظر كذلك إلى موقفه مثلاً من مشكلات الشباب العاطفية، من خلال ذلك الشاب المراهق الذي ألحت عليه

دواعي الغريزة، فلم يطق صبراً عليها، فخشي على نفسه من الوقوع في الحرام، فجاء يطلب من رسول الله ﷺ على ملأ من الصحابة، أن يرخص له بالزنا، فاشتد عليه بعضهم، وأراد الفتك به، فنهره رسول الله ﷺ وانفرد به يحاوره، ويبين له المضار الأخلاقية والنفسية والجسمية و الاجتماعية للزنا، حتى اقتنع وطابت نفسه، وسكنت لواعج الثورة العاطفية في قلبه...

والحادثة معروفة[1]، اكتفينا بمعناها الدال على مدى التعامل الواقعي للنبي ﷺ مع مشكلات الناس عامة، وتقديره لظروفهم، وحرصه على مساعدتهم، بخلاف موقف بعض الصحابة الذين غفلوا عن المرحلة العاطفية الحساسة التي كان يجتازها ذلك الشاب، فثاروا في وجهه، وعنفوه بشكل كاد يؤدي إلى عواقب وخيمة، لولا وجود رسول الله ﷺ، وتدخله الحكيم الذي أنقذ نفساً مؤمنة من المعصية، ووفر طاقتها للعمل في سبيل الله تعالى.

---

(١) النووي، رياض الصالحين، طبعة دار الفكر ٢٨٢.

النموذج التطبيقي الحادي عشر:

المواجهة الموضوعية للمبادرات السلوكية الشاذة

ونفس السلوك الواقعي الهادئ، نلاحظه في موقفه ﷺ من بول الأعرابي في المسجد[1]، فقد ثار عليه بعض الصحابة كذلك، وهموا بتأديبه، فنهرهم ﷺ، وحجزهم عنه، ثم تولى تعليمه بكل لطف ورفق، لأنه يعلم ﷺ طبيعة البداوة، وبساطة تفكير وحياة أهلها، فلم يشأ أن يكلف الرجل ما لم تتهيأ له نفسه بعد، أو يحاسبه على ما لم يعهده في حياته، وهو ما غفل عنه من ثار في وجهه من الصحابة.

النموذج التطبيقي الثاني عشر:

المواجهة الموضوعية لأخطاء قاعدة الدعوة

وتأمل في موقفه من بعض الأخطاء الخطيرة، التي كانت تصدر من بعض المسلمين، مثل موقفه من عمل حاطب بن أبي بلتعة، الذي حاول إطلاع المشركين على تهيؤ الجيش الإسلامي لفتح مكة، وهو ما حرص رسول الله ﷺ

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله.

حرصاً شديداً على كتمه، حتى على أقرب الصحابة إليه، مثل أبي بكر وعمر..

لقد كان جوابه لعمر ﷺ، الذي رجاه أن يأذن له بضرب عنق حاطب، دالاً على التقدير الواقعي للموقف المبني على حساب كافة الاحتمالات القريبة والبعيدة[1]، وإدخال أسوأ الاحتمالات في حسابه، حتى لا يدع فرصة لحدوث أي خلل في الصف، يؤثر في شحذ الطاقات وتوجيه الجهود وتركيز الاهتمامات، لتحقيق أهداف الدعوة المرحلية والإستراتيجية.

فالرجل الذي زلت قدمه، ليس فرداً عادياً، بل هو طليعة من طلائع الإسلام ورمز من رموز الدعوة، لازمها في أصعب مراحلها. فشخصيته تجسد تاريخاً حافلاً بالصبر والتضحية والثبات والصدق، لا يسهل اتخاذ موقف متسرع منها بسبب هفوة ولو كانت خطيرة مثل هذه!

يقول ابن القيم تعقيباً على الموقف: «من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في

(١) شيت خطاب، الرسول القائد ٣٠٥.

الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل منه مالا يحتمل لغيره، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحتمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه لا يحتمل أي خبث»[1].

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».. فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه، ماله من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ماله من الحسنات[2].

والموقف أو الظرف الذي زل فيه هذا الرجل موقف حساس لا يحتمل ما تحمس له سيدنا عمر وغيره، لأنه قد يؤثر على سير عمليه الإعداد لتحرك إسلامي عظيم الأهمية كفتح مكة.

كل هذه المعطيات الموضوعية، روعيت بدقة في موقف

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٦.

الرسول ﷺ، فجاء صورة حية عن واقعيته الحركية المنضبطة، في التصدي للانحرافات الخطيرة التي تهدد السير والصف.

النموذج التطبيقي الثالث عشر:

الموقف من المبادرات الاجتهادية لقاعدة الدعوة

ونأخذه من موقفه ﷺ من تباين اجتهادات الصحابة في تفسير قوله لهم يوم قريظة: «**لا يصلين أحد العصر إلّا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فيما بعد، فوافق اجتهاد الجميع، ولم يذكر أنه عنف ﷺ واحداً منهم، أو هوَّن من اجتهاده[1].

فالبرغم من أن الأمر اتخذ طابعاً عسكرياً صارماً، بسبب حساسية الموقف العسكري الذي كان يحتاج إلى فعالية حسم الموقف بأقصى سرعة ممكنة، وعدم منح أية فرصة للمتمردين لأخذ نفسهم وتدبير أمرهم، إلّا أنه ﷺ أخذ الأمر بمرونة حركية منضبطة، وراعى هامشاً مقبولاً من تنوع المبادرة لدى

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، حديث رقم ٦٨٧٨.

قاعدة الدعوة، فأثنى على من صلى فأصاب السنة وحاز الفضيلتين[1]، ولم يعنف أو يهون من شأن من أخر الصلاة إعمالاً لمقاصد الأمر، وحرصاً على الالتحاق بساحة المعركة بأقصى سرعة ممكنة، لتعزيز صف الدعوة في مواجهة الحدث واستيعاب تداعياته، والتحكم الجيد في الموقف.

وبهذه المرونة الحركية المنضبطة، وهذا الانفتاح المتوازن على المبادرات الحركية المتنوعة لقاعدة الدعوة، كان ﷺ يستوعب الأحداث ويواجه تحدياتها، ويضمن للدعوة فعالية المبادرة وتنوع الخيارات، ويربي لدى قاعدة الدعوة روح المبادرة المنضبطة، ويحررها من الخوف والاحتياطية الكابحة، التي كثيراً ما تولد روح الانتظار والتواكلية المشلة، أو تدفع إلى المبادرات الفوضوية الانفلاتية المربكة للدعوة والدولة والمجتمع..!

النموذج التطبيق الرابع عشر:

مرونة المواجهة للمشكلات الاجتماعية

ونأخذه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن ادخار لحوم

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد.

الأضاحي فوق ثلاثة أيام، ثم إذنه في الإدخار بعد ذلك، مراعاة لأوضاع الناس وحاجاتهم الاجتماعية. فقد جاء عنه أنه قال: «**من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثلاثة وفي بيته منه شيء**». فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: «**كلوا وأطعموا وادخروا، فإن ذلك العام كان بالناس جهد، فأردت أن تعينوا فيها**»[1].

هكذا كان منطق المصالح الاجتماعية المعتبرة، ضابطاً مهماً من ضوابط السلوك التشريعي والحركي في منهجه عليه الصلاة والسلام، تراه يدور معها حيث دارت، ويقدر الضرورات والحاجات والمصالح الاجتماعية بقدرها، ولا يقفز على هذه الضرورات والحاجات المعتبرة، بل ينطلق من تلبيتها صوب الآفاق العليا التي ترسمها النصوص شيئاً فشيئاً، من غير افتعال معارك وهمية بين النصوص الشرعية وحاجات الواقع الاجتماعي وضروراته، أو التورط في منطق المفاصلة والانحياز التعسفي لأحدهما على حساب

(١) البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي..

الآخر، الذي يعني في المحصلة النهائية إلحاق الضرر بهما معاً؛ باعتبار الشرع جاء لخدمة الواقع الاجتماعي وترقيته، والواقع الاجتماعي لا تتم ترقيته المتوازنة، إلّا عبر اندراج حركة تطوره ضمن السنن العامة للشريعة ومقتضياتها.

ولا شك أن هذه المنهجية المتوازنة الأبعاد، كانت تمنح حركة الدعوة والبناء والمواجهة، مرونة حركية منضبطة، تمكنها من استيعاب التحديات التي تطرحها مسيرة الدعوة والمجتمع والدولة، وتلافي إفرازاتها الجانبية، وتحرير قاعدة الدعوة من الآثار النفسية والاجتماعية المرهقة لهذه الإفرازات السلبية، وتوفير طاقاتها لحركة البلاغ والبناء ومواجهة تحديات التدافع بين الدعوة الإسلامية ونموذجها الاجتماعي من جهة، والمنظومة الثقافية الجاهلية ونموذجها الاجتماعي من جهة أخرى.

النموذج التطبيقي الخامس عشر:

المبادرة المبكرة لمواجهة ظواهر الغلو

ونأخذه من موقفه ﷺ من النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادته، فوقر في نفوسهم أن ذلك القدر منها قليل

لا يبلغهم المراد، فقال أحدهم: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً!

فلما بلغ خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبهم، وناقشهم في الأمر، وقال لهم: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

والدراسة المتكاملة لأبعاد الموقفين، ترينا مدى واقعية الموقف النبوي وانسجامه مع طبيعة البشر، ومقتضيات الحياة المتوازنة التي يستلزمها منطق الاستخلاف في الأرض، الذي يفرض تلبية حاجات الجسد والعقل والروح معاً على صعيد الفرد، كما يفرض تلبية حاجات الجماعة والمجتمع والأمة والإنسانية، على الصعيد الحضاري، في إطار مواجهة التحديات التي تطرحها حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد على

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

البشر في المرحلة الدنيوية من «دورتهم الوجودية» العامة.

هذه لقطات سريعة من مواقف رسول الله ﷺ؛ في الدعوة والبناء والمواجهة، تتجلى فيها واقعيته الحركية الفذة، المبنية على الأصول المعرفية والمنهجية والحركية التالية:

- الانضباط المبدئي البصير بمرجعية الوحي، المتلاحمة مع منظومات سنن الآفاق والأنفس والتأييد.
- مراعاة تحقيق مصلحة الدعوة بوصفها حركة تعريف بالإسلام، وبناء لنموذجه الاجتماعي، ومواجهة للتحديات التي تهدد ذلك كله.
- وتحقيق المصلحة الآنية والاستراتيجية للقائمين بها، من قيادة وقاعدة، باعتبارهم رأسمال الدعوة وأداتها في البلاغ والبناء والمواجهة.
- ومراعاة ظروف الأفراد المستهدفين بالدعوة والتغيير، وطبيعة البيئات المختلفة التي ينتمي إليها هؤلاء، وعدم أخذهم بالعزائم أو الشدة من أول الأمر.

- ومراعاة الإمكانيات والوسائل المتاحة، والتحرك المتوازن في إطارها، لتجنب الأخطار، وضمان فعالية الإنجاز.
- ومراعاة بعد أو معطى مآلات المواقف والأفعال.. على استمرارية التغيير واطراد التجديد، إذ يشكل النظر إلى مآلات الموقف أو الفعل، معطى أو عاملاً أساسياً في طبيعة التصرف ونوعيته، وحدوده.. بعد ذلك.
- والشكر لله على ما وفق إليه في مراحل الإعداد السابقة، واللجوء إلى الدعاء لطلب العون لاستكمال التوفيق في مراحل الإنجاز التالية، ثم التوكل عليه وتفويض الأمر إليه ليختار ما فيه مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع والأمة.. بعد ذلك.

هذه هي قواعد المنهج الكلية، التي يلاحظ الدارس للسيرة النبوية، والمتعمق في تحليل «**الدورة الإنجازية**» لكل فعل من أفعاله عليه الصلاة والسلام، مدى اطرادها في حركة الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة.. وهو ما يفسر لنا سر اتسام جهده الكلي ﷺ، بأعلى مستويات الأصالة والفعالية والاطراد.

وعليه فإننا نؤكد مدى حاجة حركة الدعوة والتجديد اليوم، إلى مثل هذا السير الواقعي المنضبط، الذي يجنبها التآكل الذاتي، والتدمير الخارجي، وينقذها من التراوح المزمن في حلقات دوامية مفرغة، تؤخر ولا تقدم. وهو ما لا يمكن أن تستفيد منه حركة التجديد في تأكيد وتعميق أصالة تأسِّيها، وفعالية استثمارها للخبرة النبوية المرجعية، إلّا عبر قراءة تحليلية استقرائية متكاملة لتلك الخبرة، وانتباه متزايد إلى الأبعاد المقاصدية المنضبطة في التصرفات والمواقف النبوية.

۞ ۞ ۞

تطبيقات نموذجية
من الفعل الدعوي لأجيال الدعوة عبر التاريخ

تمهيد في أهمية الاسترشاد بخبرة الأجيال السابقة

والمتأمل في الميراث الفكري والتربوي والدعوي والسياسي للصفوة الفكرية والسياسية لأجيال الدعوة بعد رسول الله ﷺ، يجد كيف اطرد المنهج وتنوعت آفاق وصور استثماره عبر التاريخ، من غير اتباعية آلية بليدة، ولا ابتداعية مُنبَتَّة، ولا انتقائية تلفيقية مميعة.. وهو ما نتجت عنه ثروة ضخمة في مجال فقه المعرفة، وفقه الدعوة والحركة.. يمكنه أن يساعدنا كثيراً في تأصيل وتفعيل حركة التأسي والتجديد معاً.

فالرسول ﷺ، ربّى أصحابه على الإعداد والاستعداد، وتقدير المواقف، ومراعاة ظروف وملابسات الواقع الفكري والسلوكي للأفراد والجماعات التي يرجى نقلها إلى الإسلام، وهم بدورهم علموا وربوا من بعدهم من التابعين على ذلك، وربى التابعون من جاء بعدهم، وهكذا دواليك

تسلسل انتقال الوعي والخبرة وإغنائهما باستمرار.

وفي أحاديث كثيرة، نبّه ﷺ، إلى الخيرية الغالبة على قرون الإسلام الثلاثة الأولى بالخصوص، كما في هذا الحديث الذي جاء فيه: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[1]. بل وجاءت أحاديث أخرى تؤكد استمرارية الخيرية في الأمة عبر القرون، وإن كان ذلك قليلاً ومحدوداً، لا يرقى إلى حجم الخيرية في قرون التأسيس الثلاثة الأولى للإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**». وفي رواية ذكر بأنهم: «**أهل العلم**»[2]. كما قال ﷺ: «**يبعث الله على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها**»[3].

فهذه النصوص الكثيرة، تؤكد لنا حجم الخيرية الكبير، الذي ينطوي عليه ميراث أجيال الدعوة، وتختزنه خبراتهم

(١) البخاري، حديث رقم ٢٤٥٧.

(٢) البخاري، حديث رقم ٦٧٦٧.

(٣) سنن أبي داود، حديث رقم ٣٧٤٠.

الممتدة عبر القرون، وإن كان ذلك لا يرقى في حجيته وإلزاميته لنا[1]، إلى مستوى حجية وإلزامية الكتاب والسنة الصحيحة، ولكنه يظل يشكل إحدى أهم الخبرات الناضجة في فهم الكتاب والسنة وخدمة الإسلام، التي يجب على أجيال الدعوة اللاحقة الاسترشاد والاستئناس بها، واستصحاب كل ما فيها من ثوابت وأصول الرشد والخيرية والحكمة؛ لتأصيل جهود الأجيال المعاصرة، والمحافظة على تكامل خبرات الأمة وتواصل روحها الحضارية عبر الأجيال، ووقايتها من أخطار التلاعن والتلاغي ـ من الإلغاء ـ والاهتلاك المدمر.

وكما لاحظنا آنفاً، فإن أهم ما تعلمته الصفوة الرسالية من رسول الله ﷺ هو **المنهج؛ كنسقية معرفية ومنهجية أو إجرائية منتظمة؛ في التحليل والتفسير والتوقع أولاً، ثم في التخطيط والإنجاز والمتابعة ثانياً، ثم في المراجعة والتقويم، والوقاية أو الحماية ثالثاً**. متجاوزة بذلك عتبة العلاقة الحرفية

(١) تُراجع هنا قضايا الإجماعات السابقة، وقضايا عمل الصحابة، وشرع من قبلنا بصفة عامة، فهناك أفكار ووجهات نظر كثيرة مهمة، تعين في بناء تصور موضوعي عن العلاقة الصحيحة بالخبرات السابقة.

الذرية أو التجزيئية بخبرته المرجعية، التي كثيراً ما يضطرب ويتيه الفكر الحرفي أو الانتقائي أو الذاتي في مفرداتها الجزئية الكثيرة، التي لا تأخذ معناها الوظيفي الأصيل الفعال، إلّا عبر المنهج الذي انبثقت منه تلك المفردات الجزئية التي لا حصر لها، والتي كانت تندرج كلها في سياق مواجهة تحديات حركة الدعوة والبناء والمواجهة في حياته ﷺ.

ولو أردنا تتبع نتائج هذه التربية النبوية في حياة هذه الصفوة الرسالية عبر القرون، لوقفنا على ثروة معرفية وحركية عظيمة جداً، يتجلى فيها بقوة مدى استيعابها للمنهج الذي صيَّر مفردات الخبرة النبوية المرجعية الهائلة بين يديها، إلى ثروة خاميَّة أو منْجمية أولية متجددة لا تنضب، تمدهم بالمادة الأولية اللاحمة أو المؤصلة للجهود والمبادرات باستمرار.

ولما كانت هذه المتابعة الاستقصائية متعذرة علينا الآن، فإننا سنقتصر على بعض النماذج الحية للواقعية الحركية المنضبطة في أعمال بعض من استوعب هذا المنهج من الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين والأمراء

الصالحين. وسنحرص على أن تكون هذه النماذج متنوعة، ومستوعبة لمجالات حياتية عديدة، حيث تبرز لنا العامل الموضوعي في استصحاب المنهج واستدعائه باستمرار.

النموذج التطبيقي الأول:

أبو بكر ومبررات إبقاء الخلافة في قريش

وفي هذا السياق يمكن ذكر تدخل أبي بكر ﷺ في مناقشات سقيفة بني ساعدة، فهو عندما حبذ أن يكون الخليفة من قريش، لم يصدر في ذلك عن نزعة قبليّة، أو مصلحة شخصية، أو قصور في النظرة.. بل لم يبنِ ذلك على أساس نص مباشر من الدين ذاته، ولكن على أنه نظر صحيح لما لقريش إذ ذاك من العصبية والمنعة، وقد بين ذلك بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نافسته عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نافسته عليهم الأوس، ولا تدين العرب إلّا لهذا الحي من قريش»[1].

فانظر إلى النظر البعيد، والتفكير المبني على معطيات

(١) عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية ٢٧.

واقعية، في ضوء الروح الإسلامية، التي تحمل المسلم على مراعاة مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع والأمة، في كل ما يقوم به من أعمال، ويتخذه من مواقف، متجاوزاً بذلك الأطر الذاتية والمصلحية والفئوية المحدودة، ومنسجماً مع سنن الله في التسخير والاستخلاف.

لقد أدرك ﷺ بما كان لديه من خبرة واسعة، ومعرفة دقيقة بالتركيب الاجتماعي للمجتمع الإسلامي الوليد[1]، أن العصبية مازال لها دور تؤديه في حياة الناس، وأن قمة العصبية يومئذ كانت في قريش، فلم يحاول تجاهل هذه المعطيات الموضوعية التي خفيت على غيره ممن حضر لقاء السقيفة، فاستمات في إقناع القوم بوجهة نظره، حتى تم له ذلك.

والدعوة الإسلامية الآن في حاجة شديدة إلى مثل هذا التفكير الموضوعي، المؤسس على الخبرة والمعرفة بالنفوس والأوضاع وموازين القوى.. أكثر من حاجتها إلى الحماسة العاطفية الساذجة، والجمود واجترار الحلول الجاهزة من غير

(١) انظر للمؤلف: الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية.

روية ولا بصيرة، ولا مراعاة لقوانين وشروط استعارة الخبرات والتجارب البشرية[1]، ذات الطبيعة التاريخية أو المعاصرة.

النموذج التطبيقي الثاني:

عمر ﷺ ومبررات الاحتياط في الزواج بالنصرانيات

ويتمثل في موقف عمر ﷺ من تزوج بعض الجنود بنساء من أهل المدائن، حيث كتب رسالة إلى حذيفة بن اليمان الذي كان والياً على المدائن يقول له فيها: «بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن، من أهل الكتاب، و ذلك مالا أرضاه لك، فطلقها ولا تُبْقها في عصمتك! فكتب إليه حذيفة: أحلال هذا الزواج أم حرام؟ ولماذا تأمرني بطلاق هذه المرأة الكتابية؟ لن أطلقها حتى تخبرني. فكتب إليه عمر، هذا الزواج حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة وخداعاً، وإني لأخشى عليكم منه»[2].

فتأمل النظر الثاقب، والتقدير الصائب لمصلحة الإسلام

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ١٤٧.

والمسلمين. فالمباح أصبح مرغوباً عنه في ظروف معينة، خوفاً من ترتب ضرر عام يمس دين رجال الإسلام، كما يمس كذلك دين المسلمات اللواتي يكثر عددهن ويقل طلابهن، فتقع الفتنة، ويحدث الخلل في العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

فاستيعاب المنهج مكن من تكييف النص والرغبات الذاتية، والمصالح الفردية.. مع المكونات والأبعاد الأخرى «للدورة الإنجازية» للفعل أو الموقف، والمتمثلة في مآلات ذلك على الدعوة والدولة والمجتمع والأمة. ولولا الانضباط المنهجي لتضخم المعطى أو البعد الذاتي على حساب المعطى الموضوعي، ولكانت الاختلالات الخطيرة؛ على مستوى حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ثم على مستوى مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع.

النموذج التطبيقي الثالث:

مقتل الهذلي والصلاة إيماء

ويتمثل في تصرف أحد الصحابة الكرام، في موقف من المواقف الحرجة، التي تحتاج إلى ذكاء وفطنة وإيمان.. وهذا

الصحابي الجليل هو عبد الله بن أنيس الذي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي، وكان نحو عرفات، فقال: «اذهب واقتله». قال: فرأيته وقد حضرت صلاة العصر، فقلت: إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما يؤخر الصلاة، فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومئ إيماء نحوه، فلما دنوت منه قال لي: من أنت؟ قلت: رجل من العرب، بلغني أنك تجمع لهذا الرجل فجئتك في ذلك. فقال: إني لفي ذلك. فمشيت معه ساعة، حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد[١].

النموذج التطبيقي الرابع:

فتح مدينة تستر وتأخير صلاة الصبح عن وقتها

ونأخذه من تصرف الجيش الإسلامي الذي فتح مدينة تُستر الفارسية في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. فقد روي أن فرصة الفتح واتت الجيش قبيل صلاة الصبح، وكان لهم أن يوازنوا بين أداء صلاة الصبح في وقتها، وبين المبادرة إلى اغتنام الفرصة واقتحام المدينة وإتمام فتحها، وتجريد عدوهم

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب.

من أية فرصة للإفلات من قبضتهم، أو تفويت النصر الذي لاحت بشائره عليهم!

واختار قادة الجيش ـ وكانوا من كبار الصحابة ـ بعد تقدير شامل للموقف، وموازنات دقيقة بين أبعاده، أن يؤخروا صلاة الصبح إلى ما بعد اقتحام المدينة وإتمام فتحها والسيطرة عليها!

ولم يصلوا الصبح فعلاً حتى طلعت الشمس، بعد أن أتم لهم الله فتح المدينة الاستراتيجية الهامة، بقيادة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ، أحد فقهاء وقضاة الصحابة الكبار[1]!

والتحليل المتكامل لأبعاد الموقف، يفضي بنا إلى تأكيد مدى استيعاب الصحابة للمنهج، وفعالية استثمارهم له في إنجاز مهماتهم بكفاءة واقتدار. فقد أنجزوا مهمتهم العظيمة، في إطار الموازنة الموضوعية بين الأولويات والمصالح، من غير أي تكلف أو مماحكات نظرية لا يتحملها الموقف الشرعي الأصيل، والحركي القائم، وتركوا لنا سابقة إضافية إلى مجموع

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٣٠.

السوابق المرجعية المعززة للدور الحيوي الحاسم للمنهج، في عمليات استثمار الثروة القرآنية والحديثية والخبرة الصحابية.. في تحقيق أصالة وفعالية التأسي والاقتداء.

النموذج التطبيقي الخامس:

موقف عمر بن عبد العزيز من انتقاد ابنه لسياساته

ويتمثل في موقف عمر بن عبد العزيز ﷺ من الواقع السياسي والاجتماعي المعقد الذي ورثه وواجهه، فقد جاءه يوماً أحد أبنائه المتقدين غيرة على الإسلام ليقول له منتقداً: «مالك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق». فقال له عمر: «لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذا فتنة». ثم قال: «والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلّا ومعه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم، خوفاً أن ينخرق عليّ منهم مالا طاقة لي به».

والموقف لا يحتاج إلى تعليق، لوضوح وقوة دلالاته على

دور المنهج في تحقيق عمق الرؤية وشموليتها، وواقعية الموقف وفعاليته بعد ذلك. وهو ما لم يستوعبه ابنه الذي وقع تحت تأثير سلطان المثال المرجعي المطلق - النص - وغفل عن سلطان بقية الأبعاد الأخرى الفاعلة في هيكلة وبناء «الدورة الإنجازية» للفعل المعرفي أو السياسي أو الاجتماعي.. فجاء موقفه أو فعله منقوصاً، يحمل في طياته أخطاراً كثيرة على الدعوة والدولة والمجتمع.. نبه لها والده ﷺ الذي كان مستوعباً للمنهج بعمق وشمول.

النموذج التطبيقي السادس:

ابن تيمية وأولوية درء المفسدة

ويتمثل في أحد مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية زمن اكتساح المغول لشرق العالم الإسلامي، وإثخانهم في المسلمين، وبسط أيديهم على أرزاقهم وأعراضهم وسائر مقدراتهم! حيث أثر عنه أنه قال: «مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل

النفوس، وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»[1]!

فتأمل هذا الموقف الدقيق، ودقق النظر فيه، على ضوء مقاصد الشريعة، لتدرك بوضوح كيف يحرر المنهج الموقفَ من الوظيفية الآلية التنافرية، المستقطبة من بعد الأصالة الشكلية أو الظاهرية وحده، ويرتقي به إلى آفاق الوظيفية الموضوعية التكاملية، المستقطبة من أبعاد الأصالة والفعالية والاطراد معاً.

النموذج التطبيقي السابع:

حسن البنا وأولوية المحافظة على الواجب

ويتمثل فيما روي عن الإمام البنا رحمه الله، أنه ذهب لزيارة إحدى القرى لإلقاء محاضرة هناك، وكان ذلك في رمضان، وقد انقسم أهل القرية إلى فريقين يختصمان حول صلاة التراويح، أهي عشرون ركعة أم ثماني ركعات؟ حتى كادا يقتتلان، وكلٌّ يدعي أنه على الحق والسنة! فاحتكموا إليه، وكلٌّ يحسب أنه سيحكم له ضد خصمه..

---

(١) إعلام الموقعين.

فقال: ما حكم صلاة التراويح؟ قالوا: سنة، يثاب من فعلها، ولا يعاقب من تركها. قال: وما حكم الأخوة بين المسلمين؟ قالوا: فريضة دينية، ودعامة من دعائم الإيمان. قال: وهل يجوز في شرع الله، أن نضيع فريضة للمحافظة على سنة؟! إنكم لو أبقيتم على أخوّتكم ووحدتكم، وانصرفتم إلى بيوتكم، ليصلي كل منكم في بيته ما ترجح له واطمأن إلى دليله، لكان خيراً من أن تختصموا وتقتتلوا"[1].

النموذج التطبيقي الثامن:

داعية يستقطب اهتمام الملحدين

ويتمثل فيما روي عن أحد رجال جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، أنه كان يتداوى في إحدى المستشفيات بفرنسة، وكان من سوء حظه أن وضع في جناح يضم جماعة كبيرة من الملحدين، فوجد صعوبة بالغة في أداء الصلاة، خاصة بعد أن لاحظ أن هؤلاء التائهين كانوا يثورون في وجه قسيس! كان يتردد على المستشفى لوعظ المرضى كل أسبوع، ويرمونه بأشنع الأوصاف..

(١) القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ١٧٠.

بل ووصل بهم الأمر إلى درجة أنهم رفعوا به تقريراً إلى مدير المستشفى، فمنعه من دخول ذلك القسم.. فما كان منه إلّا أن يستخفي عند الوضوء والصلاة، ويكتم إسلامه، ويقتصر على المظاهر السلوكية والأخلاق الإسلامية العامة..

ومع ذلك فقد لاحظه بعضهم عندما كان يذهب للاستبراء حاملاً زجاجة ماء باستمرار، فسألوه لماذا يحمل الزجاجة دائماً؟ فرد عليهم أغسل بها نفسي، لأن ديني يأمرني بذلك، فقالوا: هذا جميل جداً، ولكننا لا نراك تصلي أمامنا، وألحوا عليه أن يصلي أمامهم، ففعل بعد أن ترك بعض ما تعود فعله كتحريك الإصبع عند التشهد، وكتقبيل كفيه بعد مسح وجهه عقب الانتهاء من الدعاء، خوفاً من أن يسأل عن حكمة ذلك، فلا يوفق في تقديم إجابة مقنعة.. فيؤثر ذلك تأثيراً سلبياً على إعجابهم بالإسلام عموماً، فلما انتهى من صلاته، سألته ممرضة كانت تتابع المشهد باهتمام كبير:

كيف كنت تحس وأنت تفعل هذا؟ فقال: صعب جداً أن أنقل لكم إحساسي وأنا أقوم بالصلاة بين يدي الله!

ولكن يمكن أن أقول لكم باختصار: إنّني أنسى أحياناً أنّني مريض، وينتابني أمل عارم بأنني سأشفى قريباً! خاصة عندما أتمكن من التركيز في صلاتي، وأصل إلى بعض الخشوع المستهدف من هذه الصلاة أساساً.. فتمتموا جميعاً وقالوا: «هذا هو الدين»!! وحركوا رؤوسهم..فأردفت الممرضة تقول: إذن فأنت متزوج بأربع نساء؟ فقال: لا بل بواحدة فقط. فقالت وكيف ذلك، ونحن نعلم أن المسلم يجب عليه أن يتزوج بأربع نساء؟! فأفهمهم وصحح تصوراتهم في كثير من القضايا المتصلة بالإسلام، مما قربهم كثيراً منه، ولو طال مكثه هناك لأنقذ الكثير منهم.

فتأمل مدى أهمية استيعاب المنهج والتحكم المتوازن فيه، في التعامل الواقعي مع النفوس والأوضاع البشرية، ودور ذلك في تغيير المفاهيم وتقريب الناس من الإسلام، وشد انتباههم إليه، حتى ولو كانوا أضل خلق الله وأفسقهم!

قال الإمام الشاطبي مؤكداً على ضرورة الوعي بالمنهج والالتزام به في بناء الأفعال والمواقف: «ومن هنا يعلم، أنه

ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم، فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه مالا يطلب نشره بإطلاق، أو يطلب نشره بالنسبة إلى حال، أو وقت، أو شخص»[1].

النموذج التطبيقي التاسع:

بن باديس وفلسفته في التغيير

ونأخذه من موقف الإمام الرئيس بن باديس من واقع المجتمع الجزائري، وأسلوبه في الحركة والتغيير، حيث نلاحظ واقعيته بصورة جلية في جل خطواته، والتي يمكن إعطاء نماذج عنها على سبيل المثال:

- وأولها فهمه الجيد لمواطن الضعف في الفرد والمجتمع، فهو يقول إجابة على سؤال وُجِّه إليه من قبل حاكم مدينة قسنطينة: «إن الجزائر ثلاث طبقات: طبقة الأكثرية، وقد قتلتم إحساسها بالحياة، فلا تفرق بين فرنسة وبن باديس،

(١) الموافقات ٤/ ١٨٩.

وطبقة الأقلية الواعية، وقد ملأتم أفواهها بعظم الوظائف تلوكه بين أشداقها وهي تحسبه غذاء، وطبقة المعزولين يعيشون للمستقبل ولا خطر منهم على دولتكم اليوم»[1].

- وثانيها مقدرته على تحديد الأسلوب الملائم للتحرك في هذا الواقع الاجتماعي المعقد، والمتمثل في تعليم الأمة وتربيتها تربية إسلامية أصيلة، تنمي فيها الشعور بالتميز والإحساس بالعزة والتكريم، وتبث في نفسها الحياة والحركة الفاعلة.. يقول رحمه الله: «... إني أوصيكم ونفسي بأن يكون في حقكم شاغل لكم عن باطل المبطلين، فإذا قام حقكم واستوى، قضيتم على المبطلين وباطلهم، وإننا نشهد الله والمنصفين من الأمة على أننا ماضون في بيان الحق، وأن مبدأنا قد ملك علينا حواسنا وأوقاتنا.

فإذا بدر منا في بعض الأوقات كلام على باطل المبطلين، فليس ذلك عن قصد له، وحفل به، ولكن لأنه صادفنا وتوقف إثبات حقنا على نفيه»[2].

---

(١) محمد الصالح الصديق، بن باديس من آرائه ومواقفه ٥٨.

(٢) عمار طالبي، بن باديس حياته وآثاره ٣/ ٥٢٦.

- وثالثها أنه بعد أن عرف الميدان، وحدد الأسلوب، كرس نفسه ووجه كل طاقاته لإنجاز مهمته دون التفات إلى الفرعيات والهامشيات يومئذ، ومنها الخوض في السياسة بمفهومها البوليتيكي المكيافيلي المتداول، والإصرار على إنكار بعض ما اعتادته النفوس من البدع... كما فعل غيره.

بل حاول الاستفادة من كل فئات المجتمع، بما يخدم أهدافه، فكان يحاور المثقفين بالفرنسية ويستميلهم، ويسير إلى زوايا الطرق الصوفية ويناقش مشايخها، ويأخذ منهم التأييد المادي والمعنوي لدعوته، ويهادن الإدارة الاستعمارية، ويبدي التزامه بالقوانين المعمول بها، خاصة في المراحل الأولى للدعوة، ويجتهد في إعطاء حركته طابعاً محلياً واضحاً قدر الاستطاعة، ليتجنب المضايقة، ويفوت الفرصة على كل مناوئ يجعل من الارتباط بالحركات الإسلامية الأخرى مسوغاً لعرقلة العمل وتعطيله..

وهو أمر ملحوظ كثيراً في تحرك بن باديس، مع أنه كان

على صلة وثيقة بكل ما يجري في العالم الإسلامي من أحداث.. وبذلك كان كالمحطة التي تجمعت فيها كل الاتجاهات، وعاودت حركتها من جديد، في اتجاه محدد ومرسوم، يقول رحمه الله: «إن هذا العبد له فكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها، ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله ومن ردها فهو أخ في الله. **فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد.. فالاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام**»[1].

والنماذج من هذا القبيل كثيرة، اقتصرنا على ذكر عينات منها، لبيان مدى أهمية وضرورة الواقعية الحركية المنضبطة في تدعيم منجزات العمل الدعوي التجديدي، الذي يتعرض لهزات عنيفة، بسبب ضعف المسلمين عامة، وقوة الكيد العالمي للإسلام خاصة، لتكون عونا للمسلم على التحرك النشيط بمرونة وحرية، كما كان يتحرك من سبقه من العاملين في سبيل الله من جهة، وتبصيراً لأولئك

(١) عمار طالبي، بن باديس حياته وآثاره ٣/ ٥٢٠.

الحَرفيين المصرين على مواجهة التحديات الخطيرة للدعوة الإسلامية، بالمزيد من التوغل في أعماق التراث الإسلامي، الذي لم يكن سوى إجابة عملية عن تحديات مرت بالأمة الإسلامية في مختلف أقطارها وأطوارها.. من جهة أخرى.

ولقد اكتفيت هنا بإيراد النماذج منوعة، دون تعليق في الغالب لوضوحها ودلالتها القوية على المقصود، وهو التحرك الواقعي بالإسلام، الذي يبين لنا:

- مدى إدراك هؤلاء الرساليين لمقاصد التشريع الإلهي من جهة، واستيعابهم لقواعد منهج استثمار القرآن والسنة، في مواجهة تحديات الدعوة والبناء والمواجهة من جهة أخرى.
- ويدلنا علـى روح الانفتاح والمحبة والتسامح والإحسان.. التي كانوا يتحركون بها نحو غيرهم من الناس من جهة ثالثة.
- وعلى مدى التقدير الصادق والمخلص لمصلحة الدعوة إلى الله، والرغبة العارمة في تحققها، ولو أدى ذلك إلى لحوق ضرر بمصالحهم الخاصة من جهة رابعة، وكيف شكل ذلك معلماً ثابتاً محورياً في حياتهم وعلاقتهم بدينهم.

والذي أتمناه من كل غيور على الإسلام ـ يقرأ هذه الرسالة المتواضعة ـ هو أن يعمق التأمل في هذه النماذج، ويقوم باستخلاص ما تضمنته من قواعد في المنهج تساعد على ترشيد السير وتحقيق أصالته وفاعليته، لا أن يمر عليها مروراً سطحياً سريعاً، أو أن يكتفي بحفظ كلماتها حفظاً أصماً، يستظهره متى شاء، دون نظر أو التفات إلى المناسبة ـ المقام ـ أو المغزى، كما تعود بعضنا أن يفعل في كثير من قراءاته الإسلامية وغيرها، فلا ينتفع بها إن لم يضر!

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

المصلحة العليا للإسلام

الواجبات الدائمة لقادة الدعوة والتغيير في المجتمع

والواجب الأساس لقادة الدعوة والتغيير، وهم يسعون إلى تأسيس الوعي الحضاري في الأمة، وتعبئة جماهيرها، وشحذ فعاليتها الاجتماعية، وترشيد جهود البناء المختلفة، أن يبتعدوا عن ردود الأفعال، ويحذروا الانفعالات العاطفية الظرفية، ويبعدوا غيرهم عنها، ويحذروهم منها، لأن العمل المنفعل والمبني على مجرد العواطف الجياشة، والهيجان الأهوج، لن يحل مشكلات الدعوة والدولة والمجتمع والأمة.. بل سيضاعفها ويعقدها، ويستنفد طاقاتها وإمكاناتها في غير صالحها.

إن البناء المستمر للقدرات الحضارية الذاتية للأمة،

ضرورة حياتية وفريضة شرعية، يجب أن تهيمن على تفكير وعمل المسلمين، فكل ما يدعم أصالة هذا البناء، ويدفع بفعاليته إلى الأمام، ويعين على حماية ذلك والمحافظة عليه، يتعين الأخذ به قبل غيره، وفي مقدمة ذلك: **الواقعية في التفكير والعمل**، الذي يراعي كل مكونات وأبعاد **«الدورة الإنجازية»** في الإعداد والاستعداد، ويحترم الأولويات المرسومة، ويولي أهمية لطبيعة الظروف المحلية والعالمية التي تؤثر أو قد تؤثر في تحرك المسلمين.

وأي جهل بهذه الأمور أو تجاهل لها، سيؤدي حتماً إلى الانحراف والضعف، فتلك هي النتيجة الطبيعية لتنكب **سنن التغيير وقوانين البناء**. فالدعوات لها طبائع وأعمار ومستويات، كما للناس وللمجتمعات طبائع وأعمار ومستويات، تحكمها سنن وقوانين فطرية واجتماعية لا تتغير ولا تتحول إلّا بمعجزات خارقة لا يقدر عليها إلّا الله تعالى.

فالإنسان يكون نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً، فطفلاً فشاباً فكهلاً فشيخاً.. وكذا الدعوات، أفكاراً فمشاريع

فأعمالاً فتحديات فانتصارات فحضارات.. وكما أنه من المستحيل الانتقال طفرة واحدة من ضعف الطفولة إلى عنفوان الشباب، فكذلك من البلاهة والحمق الإقدام على أمر دون الوثوق من الاستعداد الجيد له.

فالواقعية الحركية على هذا الأساس الذي انطلقنا فيه من عمل الرسول ﷺ، ومحاولات أصحابه وأتباعه من الدعاة عبر التاريخ.. تستلزم الوعي العميق بالغايات والأهداف، والإدراك الجيد لطبيعة المرحلة ومقتضياتها، وإعطاءها ما تستحقه من الجهد والعناية، في إطار احترام دقيق للأولويات، وإعمال مستمر للموازنات والموافقات في ضوء ثوابت المنهج المعرفية والمنهجية أو الإجرائية.

فإذا كان الموقف يقتضي المرونة وجب مراعاة ذلك، وإذا كان يقتضي الحسم وجب مراعاة ذلك أيضاً من كل حسب طاقته، ولو كان في ذلك تفويت لبعض مصالح الأفراد أو المؤسسات مرحلياً. يقول ابن القيم: « فإن الشارع الحكيم يدفع أعظم الضررين بأيسرهما، فهذا هو

الفقه والقياس والمصلحة، وإن أباه من أباه»[1].

ولعل مما يساعد المسلم على الالتزام بهذه الواقعية في التفكير والممارسة الميدانية، أمران أساسيان هما:

الوعي بالنسقية المعرفية والمنهجية للإسلام: باعتبارها نظاماً عقدياً ومعرفياً، يؤسس الوعي «بالدورة الوجودية» للإنسان، ويزوده بالآليات المنهجية التي تضمن لحركته العبادية الإعمارية، التناغم مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وتجنبه الاصطدام بها، وهو ما يحقق لها الأصالة والفعالية والاطراد.

المعايشة الميدانية لواقع الحياة: الجديدة في البلاد الإسلامية وغيرها في الشرق والغرب، وفضلنا استعمال كلمة معايشة، لأنها تتضمن الإلحاح على فهم هذا الواقع وإدراك حقيقة القوى المؤثرة فيه والمتأثرة به، من خلال الاحتكاك والمشاركة، ورصد المواقف والتحركات. وكما لا يخفى فإن الاستيعاب الفكري النظري للمذاهب والاتجاهات المعاصرة وحده ـ رغم أهميته

---

(١) ابن القيم، الطرق الحكمية ٣١٠.

القصوى - يبقى عديم الجدوى من دون هذه المعايشة الميدانية المباشرة لمشكلات الناس وهمومهم واهتماماتهم.

فعندما يحقق المهتم بعملية التغيير والتجديد هذين الشرطين، سيتعلم كيف يفكر بعمق وشمولية، ويتحرك بوعي ودقة وثبات، وسيلمس عندها الأثر الإيجابي لتحركه... أما إذا اكتفى بأحد الشرطين، وظن أنه سيقدم خدمة للدعوة الإسلامية في مستوى ضعف المسلمين، وضخامة التحديات المعاصرة، فقد وهم، بل الخوف كل الخوف أن يوجه نشاطه ضد رسالة أمته وهو لا يدري، ولنا في تاريخ المسلمين مع الإسلام قديماً وحديثاً العظة البالغة!

فكم من مطلع على الإسلام حافظ لمسائله، مستبحر في علومه، لم تنتفع الدعوة والمجتمع والدولة من علمه، بل أضر بها من حيث كان يريد الإحسان إليها، لأن ثقافته كان يعوزها بعض المعاصرة أو الفعالية.

وكم من خبير بشؤون العصر متضلع من تقنيات الصراع الإيديولوجي المعاصر، أساء إلى الإسلام وإلى

المجتمع والدولة والأمة.. حيث قصد الإحسان، لأن تكوينه كان يفتقر إلى البعد الشرعي أو التأصيلي، وهو شأن جل العلمانيين المستلبين في العالم الإسلامي.

فمثل هذين الصنفين ـ المنفصمين ثقافياً ـ في علاقتهما ببعدي الأصالة والمعاصرة، كمثل الدب مع صاحبه، عندما كان مستلقياً على شاطئ واد، فوقع عليه ذباب فعز عليه ذلك، وأشفق على صاحبه من شدة حبه له، فرفع حجراً ضخماً وأهوى به على الذبابة بكل تأثر وهيجان، فكانت النتيجة المؤلمة، أن نجت الذبابة وتهشم رأس صاحبه! فلما عاد إليه صوابه ورشده، ورأى ذلك حزن حزناً قاتلاً لا معنى له، لأنه كما قالت العرب في بعض أمثالها الحكيمة: «يداكَ أوكتا، وفوكَ نفخ»!!

وربما استدرك علينا بعض الإخوة، صعوبة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، أو الفقه في الدين والخبرة بشؤون الحياة المعاصرة، وهو استدراك وجيه، خاصة عندما نعلم مدى التوسع الكبير الذي شهدته وتشهده العلوم المختلفة،

شرعية كانت أم عمرانية، مما يجعل التخصص ضرورة حيوية لامناص منها. وكذا التوسع الهائل في نطاقات الحياة ومشكلاتها وإمكاناتها التسخيرية..

وينحل هذا الإشكال بتكامل جهود المعنيين بحركة التغيير والتجديد، أفراداً كانوا أم مؤسسات؛شعبية أو رسمية، حيث يستفيد الفقيه أو المفتي من الطبيب، ومن الكيميائي، ومن الخبير الاقتصادي، والبصير بقضايا الصراع الفكري.. كما يستفيد المحدث والواعظ، والمؤلف، والمربي، من هؤلاء جميعاً..."[1].

إن الذي ينقص ليس الوسائل والكيفيات، بل هو إرادة التعاون بين العاملين للإسلام.. هو التغلب على الأنانية المفرطة.. هو النزول عند الرأي الصائب بغض النظر عن مصدره.. هو إعلاء صوت التعقل والحكمة في معالجة قضايانا الخاصة والعامة..

باختصار هو الإحساس القوي الصادق بمصلحة

(١) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد ١٢.

الإسلام والدعوة إليه، وبمصلحة المجتمع والأمة.. التي يجب أن تهيمن على غيرها من المصالح الجزئية الأخرى، فما فيه مصلحة الإسلام يجب عمله، ولو أدى ذلك إلى تفويت بعض المصالح الخاصة، أو التأذي بسبب ذلك؛ في النفس والأهل والولد والمكانة الاجتماعية بين الناس، وما فيه الإضرار بالإسلام والدعوة والمجتمع والدولة.. يجب على المسلم الإحجام عنه، ولو أدى ذلك إلى تفويت بعض المنافع عليه كما ذكرنا آنفاً.

ذلك لأن في الدوران مع مصلحة الإسلام العليا، تحقيق للمصالح العامة والخاصة معاً، وفي التهاون في مراعاة ذلك تضييع للمصالح كلها، كما هو حال المسلمين اليوم، الذي هو عبارة عن نتيجة منطقية لتضخم «الأنا» عند الفرد المسلم، حيث حسم الموقف لصالح النزعة الفردية، التي جعلت العمل الجماعي المشترك أمراً صعباً أو مستحيلاً.. وفقد أو ضعف كثيراً الإحساس بالمصالح العامة.. فصار شعار الناس **«دعه يئن»**، **«كل القوت وانتظر الموت»**، **«هات**

تخطي راسي برك» «واش راحلك في الناس»..!!

وأثبت هنا بعض ما جاء في كتاب (ميلاد مجتمع) لأهميته، حيث قال صاحبه رحمه الله: «فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين.

في حالة الصحة يكون تناول المشكلات من أجل علاجها هي، أما في الحالة المرضية، فإن تناولها يصبح فرصة لتورم الذات وانتفاشها، حينئذ يكون حلها مستحيلاً...

وفي هذه المرحلة أيضاً لا يهتم أحد بالمشكلات الواقعية، كما كان يفعل أئمة الفقه الإسلامي، بل يكون الاهتمام منصباً على مشكلات خيالية، على ما كان عليه فقهاء «عصر الانحطاط»، لم يعودوا ينكبون على المشكلات التي يثيرها المجتمع، بل على حالات «خيالية محضة»، كالبحث عن جنس الملائكة، أو كالتوضؤ من وطء البهيمة.

وبوسعنا أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث ـ في مجتمع

مريض ـ لو أن خليفة من طراز عمر بن الخطاب أراد أن يعزل رجلاً كخالد بن الوليد من قيادة جيش الشام!!

إن محاولة كهذه كانت كفيلة بزلزلة العالم الإسلامي، لو أنها حدثت بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون فحسب، ولكن «الأنا» الإسلامية كانت في العهد الأول سليمة سوية، فكان فعل عمر دون عقدة، وكان «رد فعل» خالد دون عقدة أيضاً، لأن علاقاتها كانت علاقات سوية منزَّهة، وفي الوقت الذي تظهر فيه العقد النفسية على صفحة «الأنا» في مجتمع معين، يغدو عمله الجماعي صعباً أو مستحيلاً »[1].

فيوم أن فقد المسلمون المقياس الضابط للمنافع والمضار ـ بفقد المنهج ـ وهو مصلحة الإسلام وحركة تجديده والامتداد به في الأرض، وأصبحت المقاييس الضابطة هي المصالح الخاصة والمنافع الشخصية، والاهتمامات الجزئية المتضخمة أو المتورمة، التي ملكت على أصحابها نفوسهم، حتى صاروا أسرى لها.. ساءت أحوالهم، وتحكم فيهم أعداؤهم من حثالات

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ٤١.

البشر وأراذلهم، وساموهم سوء العذاب!

مصلحة الإسلام والدعوة إليه وميزان الوعي

ونقصد بالمصلحة هنا: الإدراك العميق لما يخدم الإسلام ويعزز حضوره في واقع الحياة، وما يُفعِّل الدعوة إليه ويحمي منجزاتها، والسعي الدائب لمطابقة مواقف الأفراد والجماعات والمؤسسات والمجتمع... مع ما يحقق خدمة الإسلام والدعوة إليه، وتقديم ذلك على سائر المصالح الأخرى عند تعذر الجمع والتوفيق بين ذلك، باعتبار تقديم مصلحة الإسلام والدعوة إليه على ماعداها، سيحقق بقية المصالح الكلية والجزئية الأخرى.

إن إحساس المسلم بمصلحة الإسلام والدعوة إليه، والاعتزاز به، هو العامل الأساس الثالث بعد الوعي بالنسقية المعرفية والمنهجية للإسلام، والمعايشة الميدانية لواقع الحياة، الذي يضمن بإذن الله فعلاً دعوياً تجديدياً أصيلاً وفعالاً ومطرداً، إن لم يكن أحياناً العامل الأول الذي يتفرع منه العاملان الآخران، ذلك لأن هذا الإحساس الصادق

بمصلحة الإسلام والدعوة إليه، سيجعل العامل في سبيل الله يهتدي إلى:

- ضرورة معرفة ما يدعو إليه، والوقوف على أسراره ليحببه إلى الناس، ويقنعهم به، بعد إن اقتنع هو به، وتناغمت حياته معه.
- وإلى ضرورة معرفة من يدعوهم، ويسعى لتغيير نفوسهم وأوضاعهم، تماماً مثل رجل مسافر فرض عليه أن يسلك طريقاً محفوفة بالمخاطر، ومعه طفل صغير، فكان طوال الطريق يتعرض للأذى من قبل أصناف شتى من البشر، كلهم يريد انتزاع الطفل منه، وإلّا وجب عليه التضحية بماله، والصبر على الأذى في نفسه وأهله وأحبته، فكيف يكون يا ترى الموقف العملي لمثل هذا الرجل وهو الحريص على ولده الصغير الذي ستكون سلامته سبباً لسعادته، وأذيّته سبباً لشقاوته؟

لاشك أن حبه له، وشفقته على ضعفه، سيدفعانه لا محالة لتحمل الأذى مهما كانت قساوته، وسيفرط في ماله

وأرضه وجاهه.. من أجل سلامته، سيصبر على المحنة وهو قادر على دفعها برد الفعل أو الفرار أو التراجع عن السير..!

فإذا اشتد ساعد طفله، وأصبح قادراً على تحمل بعض الأذى، أو الفرار معه أو رد الفعل، غيّر موقفه تبعاً لذلك، وانتقل إلى مرحلة رد الفعل المحدود، دفاعاً عن طفله وماله ونفسه، فإذا بلغ مبلغ الرجال انتقل إلى مرحلة أخذ زمام المبادرة تأميناً لطريق السير!

فانظر مثلاً من خلال هذا المثال إلى سيرة النبي ﷺ، ستجدها متطابقة معه انطباقاً تاماً، ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يحس إحساساً صادقاً وعميقاً بمصلحة الدعوة إلى الله، التي تدرج معها بعناية فائقة، معطياً كل مرحلة ما كانت تتطلبه من المواقف، فلم يستعجلها كما لم يتأخر عن نصرتها بعد تمكنها.

وهذه بعض صور التطابق على سبيل المثال، وقد مرت صور أخرى عامة من حياته ﷺ، وحياة أصحابه وأتباعه عبر التاريخ فتأملها هناك.

النموذج التطبيقي الأول:

مصلحة الدعوة والغض المرحلي عن بعض الانحرافات

إن الهدف الأساسي للدعوة الإسلامية كما نعرف، هو تحقيق عبودية الناس لله رب العالمين، لذلك تركز اهتمام الدعوة في الفترة المكية بصفة خاصة على تصحيح العقيدة، وإنهاء كل ألوان الشرك بالله؛ في الاعتقاد والعمل والسلك والعلاقات.. لكن الشيء الذي نلحظه من الناحية العملية أو المنهجية، هو عدم إقدام الرسول الله ﷺ ولا أصحابه على تحطيم جيش الأصنام الذي كان يلوث بيت الله ويحيط بها إحاطة السوار بالزند، وهو ﷺ لا يرفع يده لتحطيمها، ولايأمر أصحابه بتكسيرها، ولو أراد لأمر، ولو أمر لنفذ المسلمون ما أمرهم به من دون تردد، ولكنه لم يفعل! فلماذا؟ مع أن مهمته كانت إنهاء الشرك ومظاهره من حياة الناس.

والجواب يكمن في المنهج، ذلك لأن المسألة يومئذ ليست مسألة تحطيم الأصنام، وإنما هي مسألة تحطيم وتكسير أقفال القلوب حتى تفقه الحق، ثم يأتي اليوم الذي

تخر فيه تلك الأصنام تحت ضربات المؤمنين"[1]. فالقضية وإن كانت واضحة ومحسومة من الناحية المبدئية؛ العقدية والمعرفية، فإنها اقتضت ترتيباً آخر من الناحية المنهجية أو الإنجازية.

لقد اقتضت مصلحة الدعوة الصبر على رؤية هذه المناظر المؤلمة، وعدم الإقدام على تكسيرها، حتى لا يجن جنون المؤمنين بها، فيزدادوا بعداً عن الإسلام ونفوراً منه وتألباً عليه وعلى أتباعه، ورسول الله ﷺ، لا يريد ذلك، فهو الحريص على إنقاذ الناس من الضلال الرهيب الذي يعيشونه، خاصة بعد أن لاحظ أن مجرد تنبيه الجاهليين إلى تفاهة هذه الأصنام، قد هيجهم، فنالوا من ضعفاء الصحابة نيلاً عظيماً، فكيف لو أقبل أحد في تلك الفترة المبكرة للدعوة على تكسيرها، لاشك أنه سيحدث له ماحدث لإبراهيم عليه السلام، عندما ألقوه في النار، أو قريباً من ذلك.

---

(١) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة ٤٠٩.

النموذج التطبيقي الثاني:

مصلحة الدعوة والتحكم في المبادرات العاطفية

في أثناء وعقب بيعة العقبة الثانية، التي بايع فيها الأنصار على السمع والطاعة والنصرة، في المنشط والمكره، واليسر والعسر، أراد بعض المبايعين أن يؤكد لرسول الله ﷺ صدق بيعتهم، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق إن شئت لنُميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[1].

فلماذا لم ينتهز ﷺ، الفرصة لينتقم من بعض زعماء الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين، كأبي جهل مثلاً، الذي بلغ أذاه له حداً لا يطاق، فكان يلاحقه إلى منزل كل قبيلة يذهب إليها، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من كلامه رد عليه، وحاول تكذيبه، والتهوين من شأنه[2]؟

إنه لم يفعل ذلك وطالب أصحابه بالمزيد من الصبر

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥١ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٣.

والانضباط والاحتساب، لأنه ﷺ كانت تحُركه مصلحة الإسلام والدعوة، وتتحكم في مواقفه وسلوكاته وأعماله. أي إنّه منضبط بالمنهج لا يتزحزح عنه.

فالإقدام على مثل ذلك العمل في تلك المرحلة، ليس من مصلحة الدعوة الفتية، التي تحتاج إلى حماية ورعاية حتى يشتد عودها، وهو ما التزمه رسول الله ﷺ بكل دقة..

نلاحظ ذلك مثلاً من تتبع خطوات إنجاز بيعة العقبة، فلقد طلب من المبايعين أن يأتوه في جنح الظلام في وقت محدد ومكان مدروس، وفي سرية تامة وصفها كعب بن مالك الأنصاري بقوله: «... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا، لميعاد رسول الله ﷺ، **نتسلل تسلل القطا مستخفين** حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة»[1].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤٤٠.

النموذج التطبيقي الثالث:

مصلحة الدعوة والمصالح الحيوية الخاصة

وعندما فرضت الهجرة، وأمر المسلمون بالالتحاق بالمدينة، واجه الناس امتحاناً قاسياً لإيمانهم وإرادتهم، لأن الهجرة يومها لم تكن سياحة، بل كانت إهداراً للمصالح، وتضحية بالأموال، وتركاً للأرض والأهل، والأولاد والأحباب، ونجاة بالنفس فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها[1].

ولقد عبّر رسول الله ﷺ نفسه عن ذلك الألم الذي كان يسري في قلوب المهاجرين وهم يخرجون متسللين متجردين من كل شيء، عندما كان يغادر مكة مهاجراً، والتفت إليها وقال: «**الله يعلم أنك أحب بقاع الأرض إلي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت**»[2]. وفي المدينة بسَط يديه إلى السماء قائلاً: «**اللهم حبِّب إلينا يثرب كما حبَّبت إلينا**

(١) صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ١٧٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ١٧٨ .

مكة.. وانقل وباءها إلى مهيعة»[1].

إن مصلحة الإسلام والدعوة إليه اقتضت هذه الهجرة وهذا الاغتراب، وتعارضت مع مصلحة الأرض والمال والأهل والنفس.. ففضلها المؤمنون على الأرض والمال والأهل والنفس، لعمق وعيهم بالمنهج في أبعاده كلها، التي تقتضي تفويت العاجل لصالح الآجل، والتضحية بالحاضر من أجل المستقبل، والصبر على فوات الخاص من أجل العام...

النموذج التطبيقي الرابع:

مصلحة الدعوة والوفاء بالعهود

وفي أثناء كتابة صلح الحديبية جاء أبو جندل يرْسُفُ في قيوده، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فوثب عليه أبوه سهيل يضرب وجهه ويجره من تلابيبه ليرده إلى قريش، فجعل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فزاد ذلك الناس غمّا إلى ما بهم من غم، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل: اصبر واحتسب، فإن الله**

(١) ابن هشام، السيرة ٢/ ٢٢١ .

جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً! إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، و إنا لا نغدر بهم...»»[1].

ولقد دخل بسبب هذا على المسلمين أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، خاصة عندما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فما قام منهم رجل واحد حتى قالها ثلاثاً!!

إن مصلحة الإسلام والدعوة إليه هي التي جعلت رسول الله ﷺ يعيد أبا جندل إلى قريش، ومن بعده أبا بصير رضي الله عنهما. فبالإضافة إلى وجوب الوفاء بالعهد ـ وهو من مصلحة الدعوة طبعاً ـ فإن رسول الله ﷺ، كان يرمي إلى تحقيق أهداف بعيدة المدى، خفيت يومئذ على المسلمين، أشار ابن القيم إلى بعضها عندما حاول تقصي ما في الصلح من فقه سياسي وحركي بالغ الدقة والبصيرة فقال:

«ومنها أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن

(١) عبد السلام هارون، مختصر سيرة ابن هشام ٢٠٢.

الناس أمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، فكانت تلك الشروط من أكبر الجند التي أقامها المشترطون لحزبهم، فذلوا من حيث طلبوا العز، وعز المسلمون من حيث انكسروا، فانقلب العز بالباطل ذلاً بحق»[1].

النموذج التطبيقي الخامس:

مصلحة الدعوة ومصالحة الخصوم

وفي أثناء اشتداد الحصار على المسلمين في غزوة الأحزاب، رأى رسول الله ﷺ أن يصالح بعض رؤساء القبائل على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفوا بقومهم، فاستشار السعدين في ذلك فقال له سعد بن معاذ، بعد أن تبين بأنه ليس وحياً، إنما هو اجتهاد ونظر من رسول الله ﷺ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان،

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٣٠٩.

لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلّا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا إليه وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلّا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك»[1].

وفي نفس السياق ترك المهاجرون ـ كما ذكرنا ـ كل شيء، بل منهم من اشترى هجرته بماله دفعه بنفسه للمشركين، ومن اشترى إسلامه بروحه دفعها في سبيل الله، ومن فارق الأهل والأحباب...

فنحن اليوم عندما ننظر في هذين الموقفين المختلفين ـ موقف السعدين وموقف المهاجرين رضي الله عن الجميع ـ لنحدد سبب اختلافهما، نجد أن مصلحة الإسلام والدعوة إليه، هي التي كانت سبباً في ذلك.

فعندما كان المسلمون ضعافاً، كان الهدف هو النجاة بالنفس المسلمة، وعندما شد الله أزرهم، وأصبح بإمكانهم

(١) عبد السلام هارون، مختصر سيرة ابن هشام ١٦٩.

الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأرضهم من غير أن يلحق ذلك ضرراً بسير الدعوة الإسلامية، أقر رسول الله السعدين على اجتهادهما، وتخلى عن وجهة نظره التي بناها على مصلحة الدعوة، وتركها لمصلحتها كذلك.

النموذج التطبيقي السادس:

مصلحة الدعوة والموازنات الصعبة

وأختم هذه النماذج التطبيقية بنموذج معاصر يلخص لنا منهج الإمام بن باديس رحمه الله في هذا المجال، والذي لخصه بقوله: «إن ميدان العمل في الجمعية لميدان واسع، هناك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها، ولكن إن كان فيها منفعة أدخلها باسمي ـ إن كان لاسمي عند قومي قيمة ـ وأرجو أن يعينني الله عليها»[1].

أي فإن كانت مصلحة حركة تجديد الإسلام في الأمة تقتضي إنجاز العمل باسم الجمعية أنجزته باسمها، وإن كان في إنجازه باسمها ضرر لها، أنجزه باسمي الخاص، مادام فيه

(١) عمار طالبي، بن باديس حياته وآثاره ٣/ ٥٥٤.

نفع للدعوة، ولو لحق الضرر بشخصي.

فهو في الحالتين محكوم بمصلحة الدعوة التي تتولى جمعية العلماء أمرها. ولقد أكد ذلك في إحدى كلماته الخالدة، عندما سأل نفسه أمام جمع غفير من علماء الجمعية ورجالاتها الأفذاذ، وهو يحاضر فيهم: لمن أعيش؟ وأجاب: للإسلام والجزائر.. هكذا بالترتيب، أي إنّني وقْف على خدمة الإسلام في الجزائر، فخطواتي مقيدة بمصلحتهما العاجلة والآجلة، فإذا تعارض شيء من حياتي أو حياة أهلي أو قومي وأحبتي... مع مصلحة الدعوة الإسلامية التي أعيش لها، فسوف لن أتردد في الانحياز كلية إلى جانبها، مهما كان الثمن!

وقد أنجز عهده الذي يكفي هذا الموقف الفذ دليلاً عليه. فقد سعت فرنسة بكل قواها إلى ضرب نشاط جمعية العلماء، وركزت على فصل بن باديس عن جمعية العلماء، باعتباره القوة الضاربة فيها، فعجزت، فلجأت إلى أخبث الحيل، واستدعى (ماسنيون) يوماً بن باديس، فلما دخل عليه في مكتبه بالجزائر العاصمة، وجد والده هناك، فقام

يقبل قدميه وينوح كالثكلى، وهو يقول له: يا بني إن مستقبل أسرة آل باديس ومصيرها بيدك، فاقبل ما طُلب منك، وهو أن تُعيّن قاض للقضاة، وُتمنح لك رخصة التدريس، وامتيازات أخرى.. على أن تخرج من هذه الجمعية! فطلب منهما إمهاله ليفكر قليلاً.

وفي نادي الترقي، قال لإخوانه العلماء: إنني لم أفهم موقف رسول الله ﷺ، يوم ناداه عمه أبو طالب وقال له: «إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلني من الأمر مالا أطيق، فقال رسول الله ﷺ: **والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**»[1]. لم أفهم هذا الموقف إلّا اليوم، بالرغم من دراستي له وتدريسي إياه. ثم كتب رسالة قصيرة عجيبة إلى (ماسنيون) يقول له فيها: «**أُقتل أسيرك! أما جاري فإني مانعه**»[2] أي ارهن والدي

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤ .

(٢) جريدة الشعب الجزائرية ١٩٧٦.

أو اقتله، أو جرده من امتيازاته المرموقة، أو اسجنوني أو اقتلوني، أو انفوني.. فإني لن أفرط في جمعية العلماء، ولن أتخلى عن الدور الحضاري الإستراتيجي الذي تقوم به.

وبذلك انحاز إلى الدعوة الإسلامية، وقدم مصلحتها على مصلحة الأبوة، والأهل، والمال، والمنصب العالي، والجاه الشخصي العريض... وكذلك يفعل الرساليون في كل حين، ليحافظوا على شرف الدعوة وكرامة الدعاة، ويضيئوا طريق الرسالية أمام الأجيال، لتمضي فيه واثقة مطمئنة راشدة!

هكذا يتبين لنا أن مصلحة الإسلام والدعوة إليه، هي التي يجب أن تحكم حركة المسلم ومواقفه، خاصة في هذه الظروف القاسية التي يعيش فيها المسلمون أوضاعاً مناقضة لسنن الله في خلقه، بسبب ابتعادهم عن كثير من قيم الإسلام، وتخليهم عن كثير من أخلاقه وآدابه وموازينه، ويحاول فيها العاملون المخلصون الجادون.. العودة بالأمة الإسلامية إلى سواء السبيل، لتمارس وظيفتها الأساسية في:

- الدعوة: حركة تأسيس للوعي «بالدورة الوجودية» للإنسان.

- القدوة: حركة تجسيد ذاتي لذلك الوعي في واقع الحياة.
- القيادة: حركة تأطير للوعي الإنساني عامة.
- القوامة: حركة إقرار لموازين العدل والقسط في الحياة.
- وتتهيأ للشهادة في الآخرة، كما هو مطلوب منها شرعاً.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ٢/ ١٤٣].

كما يتبين لنا كذلك أن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد ليس أمراً سائباً أو متروكاً للذاتية والأهواء.. بل هو مضبوط بميزان الشريعة[1]، وببقية موازين سنن الله في الآفاق والأنفس والتأييد، النافذة في الحياة البشرية.

إن انحياز المسلم في مواقفه جميعاً للإسلام، دليل على صدق إيمانه، وتجرده لله تعالى، وسلامة فهمه لوظيفته، وصحة تصوره لرسالته. فهو بهذا الانحياز للإسلام، والاستجابة

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٢٩.

المجردة للدعوة ومتطلباتها، يحقق عملياً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام ٦/ ١٦٢-١٦٣].

والمسلم عندما يصل إلى هذا المستوى من الولاء للإسلام، يصير ولياً من أولياء الله تعالى، يتلقى منه التأييد والعون والتوفيق، بما يمنحه له من:

- صفاء القلب وشفافية الروح.
- وحسن الفهم وسلامة العمل.
- وقبول الناس منه وتعلقهم به.
- وحمايته من الزيغ والأذى..
- والدفاع عنه والتثبيت له.

كما جاء تأكيد ذلك في القرآن الكريم والسنة في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل ١٦/ ١٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ

مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق ٦٥/ ٢-٣]. وقوله كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال ٨/ ٢٩].

وقوله ﷺ في الحديث القدسي: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ ني لأعيذنّه»[1].

إن الذي ينقص اليوم كثيراً، هو استشراف هذه المعاني الجليلة واستهدافها في كل عمل يقوم به الإنسان المسلم، من خلال تحري مصلحة الإسلام والدعوة إليه، ومجاهدة النفس على الدوران معها في العسر واليسر، والمنشط والمكره،

---

(١) رواه البخاري.

وتقديمها على مصلحة النفس والأبوة والبنوة والزوجية والأخوة والقرابة والجاه والمال... إن تعذر الجمع والتوفيق بينها، لأن في تقديم مصلحة الدين والدعوة إليه، تحقيق للمصالح كلها، وفي تقديم مصلحة غيرها مما ذكر في حالة تعذر الجمع، تضييع للمصالح كلها، في الدنيا والآخرة.

والواقع العملي خير شاهد على صدق هذه الحقيقة، التي قررها القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة ٩/ ٢٤].

وزادها رسول الله ﷺ توضيحاً وتأكيداً في مثل قوله: «رحم الله من سمع مقالتي حتى يبلغها غيره. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعاءهم يحيط من

ورائهم. إنه من تكن الدنيا نيته، يجعل الله فقره بين عينيه، ويشتت عليه ضيعته، ولا يأتيه إلّا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه، ويكفيه ضيعته، وتأتيه الدنيا وهي راغمة»[1].

فالحديث يتضمن تفسيراً سننياً جذرياً لمسألة الضعف والقوة، والاختلال والتوازن، والانحطاط والتمكين.. ويؤسس الوعي بقانون التداول الحضاري، الذي يحتل فيه الارتباط بسنن الهداية أو الانفلات منها، محور ارتكازه. فقد أكد النص أن استيعاب الوعي بسنن الهداية؛ فهماً وتمثلاً ودعوة وبناء ومواجهة.. أساس التمكين في الأرض، والفوز بوراثة أعلى المقامات في الجنة.

ومعنى هذا أن مصلحة الإسلام وحركة تجديده، هي المقياس الموضوعي للوعي والاستقامة والصوابية، وشرط للأصالة والفعالية وديمومة التمكين والظهور الحضاري، وهو ما تنبّه إليه علماؤنا مبكراً ـ أخذاً من الكتاب والسنة وفقه

(١) رواه أحمد وابن ماجه.

الصحابة ـ فجعلوا المحافظة على الدين في مقدمة الكليات الحياتية الخمس، التي جاءت الشرائع كلها تؤسس الوعي بها وتحميها، فقرروا أنه إذا تعارضت مصلحة الدين مع بقية المصالح الأخرى، وتعذر الجمع بينها قدمت مصلحة الدين، لأن في تقديمها رعاية لبقية المصالح الأخرى.

الحاجة إلى التخلص من الأنانية والإمعية المرضية:

وتحري المصلحة تقف أمامه عقبات كثيرة، نشير إلى اثنتين من أخطر هذه العقبات، وهما معضلة الأنانية ومعضلة الإمعية المرضيتين، اللتين تحولان دون تحقيق مستوى عال من تحري مصلحة الإسلام والدعوة إليه.

- وقد نبهنا آنفاً إلى أخطار معضلة الأنانية: باعتبارها عملية استقطاب واختزان واختزال.. للدعوة والدولة والمجتمع والأمة والعالم.. لصالح الذات أو الفرد.

- ضعف الارتباط بالفكرة أو المبدأ: وتنامي الارتباط بالأشخاص والهيئات أو ما يسميه بعضهم بالإمعية، فنحن نلاحظ من خلال استقراء التاريخ الإسلامي،

وتأمل حركة الحياة المعاصرة، أن ارتباط المسلمين ـ وخاصة الشباب منهم ـ بالأشخاص والهيئات أكبر وأقوى من ارتباطهم بالإسلام نفسه، بالرغم من حرص الجميع، من الناحية النظرية، على ضرورة جعل الإسلام هو ميزان الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، وإلّا فما معنى أن يوصي مؤسس إحدى المدارس في صك الوقف أن المدرسة لن يلتحق بها أحد من النصارى أو اليهود، أو الحنابلة![1].

أو أن يمنع زواج شافعية بحنبلي أو حنفي، لإلحاقها بالنصارى واليهود؟! أو ما معنى أن تعرض فكرة أو أفكار على بعض الإسلاميين من المهتمين بشؤون العمل الدعوي التجديدي، مغفلاً سهواً أو عمداً ذكر مصدرها، فيعجبون بها، ويقبلون عليها، ويتحمسون لها، ويرجونك أن تفصح لهم عن مصدرها للاستفادة أكثر، فعندما يرشدون إليه يمتعضون، وتتغير نفوسهم ومواقفهم، وينقلبون من مؤيدين إلى رافضين، لا لشيء إلّا لأن هذه الأفكار صادرة

(١) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ٨٦.

من فلان الذي لا يعرفونه، ولا يحبونه!؟

وأكتفي هنا بمثال واحد سبق ذكره عيّنة على هذه العقلية الخطيرة، فقد قرأت في أحد الكتب الهامة[1] أن أحد الأذكياء كان في مجلس علم ضم نخبة ممتازة من المثقفين المعجبين بفكر الشهيد سيد قطب رحمه الله والمتحمسين له، والمنفرين من فكر مالك بن نبي رحمه الله والمتحمسين ضده، وفي أثناء الحوار الخصب، طرح رأياً نسبه إلى سيد قطب، وبعد لحظات طرح رأياً آخر في نفس الموضوع، نسبه إلى مالك بن نبي، فلم يعجبهم، وأبدوا رفضهم له، وتحمسهم ضده. فلما هدأ الموقف، قال لهم:إنّ الرأي الذي أُعجبتم به واستحسنتموه وتبنيتموه هو لمالك بن نبي؟! أما الذي رفضتموه، وتعصبتم ضده، فهو لسيد قطب، فوجم الجميع؟! والعكس صحيح كذلك.

والسؤال المفجع هو:

- أين نشدان الحق الذي يزعمه الجميع؟

(١) خالص جلبي، النقد الذاتي ٢١٩.

- وأين تحري مصلحة الإسلام والدعوة إليه، والوقوف معها بغض النظر عن الأشخاص والهيئات والواجهات؟

يقول ابن تيمية: «ومن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً...» ويضيف: «وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل أتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم. فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه، والعمل به، فهذا زاجر. وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة، أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله...»[1].

تجاوز معضلتي الأنانية والإمعية:

إن مرضا الشخصانية والإمعية عقبة كؤود في طريق الدعوة الإسلامية، تحطمت عليها جهود ضخمة، ومازالت

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٠/٨.

تهدد باستنزاف جهود وطاقات أخرى، الأمر الذي يفرض على كل مخلص متجرد لله، العمل الجاد الواعي لتجاوزها من خلال:

- **تقوية الصلة بالله تعالى**: عبر تعميق الوعي بسننه سبحانه وتعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.
- **وتقوية الصلة برسول الله ﷺ**: بالتعمق في دراسة سنته وسيرته.
- **وتعميق الوعي الشرعي والحركي**: حتى يتمكن المسلم بصفة عامة، والمهتم بشؤون الدعوة والتجديد بصفة خاصة، من وزن أقوال وأعمال ومواقف غيره من الدعاة والمربين والمفكرين.. بميزان الشرع من غير غلو في الحب والكره.
- **وتنمية الحاسة النقدية**: وتنشيطها وتوجيهها، حتى نتخلص من «**الإمعية**» والروح الكلية التواكلية السلبية، التي تعيش على اجترار وتكرار «الجاهز» من الأفكار والمواقف والوسائل والأساليب...

- **وتنويع مصادر التلقي عند المتكون:** حتى لا يقع تحت تأثير لون واحد من ألوان التفكير، فينشأ عليها ويصطبغ بها، ويتبنى صوابها وخطأها، ويفنى في التعصب لها، لأنه لم يعرف غيرها.

- **والاهتمام بمتابعة الدراسات التقويمية الموضوعية البناءة:** التي تحاول نقد وتقويم وتوجيه أفكار وأعمال ومواقف العلماء والمفكرين والدعاة والحركات والمؤسسات..

وهذا الأمر ينبغي الحرص عليه كثيراً، وتجاوز المواقف العاطفية، التي تنفر من النقد والتقويم الموجه، وتعتبره تجريحاً وانتقاصاً من أقدار الرجال والمؤسسات.

- **وتوسيع دائرة الاحتكاك بأهل الخبرة:** من رجال العلم والفكر، والدعوة والإصلاح... وتعميق الصلة بهم، والأخذ منهم جميعاً، كل في مجال تفوقه، مع تحسين الظن بهم في بعض ما لم نستوعبه من مواقفهم وآرائهم وأعمالهم وسلوكاتهم...

- وتمحيص الأخبار والإشاعات: التي تصلنا عن العاملين في سبيل الله، والسعي للتأكد منها من المعنيين بالأمر أنفسهم، حتى ولو كان ما قيل فيهم صحيح، لأنه قد يكون له تأويل أو وجه اجتهادي آخر لديهم.

إن التزام هذه التوجيهات، يؤدي بنا إن شاء الله تعالى إلى تجاوز معضلتي الأنانية والإمعية، والتوفيق في تحري مصلحة الدعوة والالتزام بها قدر الإمكان.

✿ ✿ ✿

الفصل الثالث

ضوابط المصلحة

وقواعد الموازنة والترجيح في العمل الدعوي

تمهيد

وما دامت مصلحة الإسلام والدعوة إليه، والسعي الدائب لتجسيد نموذجه الاجتماعي والحضاري في واقع الحياة، هي مقياس الوعي، وشرط تحقق الأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية في مواقفنا وسلوكنا وأعمالنا وحركتنا.. فإن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح، ويحتاج إلى إجابة دقيقة من العلماء هو:

- ما المصلحة عامة؟ وما مصلحة الدعوة خاصة؟
- كيف نحقق هذه المصلحة؟
- وقبل ذلك كيف نعرف هذه المصلحة؟ وكيف نستطيع

التفريق بين ما هو مصلحة موهومة وما هو مصلحة حقيقية معتبرة؟

- أو كيف نحكم على أمر ما بأنه يحقق المصلحة، وعلى غيره بأنه يجلب الضرر؟
- أو كيف نفرق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، فنقدم الأولى ونؤخر أو نهدر الثانية؟
- كيف نتعرف المصلحة ونتحقق منها؟

وهي أسئلة هامة جداً، ينبغي أن يهتم بها أهل البصيرة بمقاصد الوحي والدراية بشؤون الدعوة ومتطلباتها الآنية والمستقبلية، ليساعدوا غيرهم من السائرين في الطريق على تجنب العثرات، وأمن المزالق، وذلك هو المطلوب منهم شرعاً بوصفهم ورثة علم النبوة ومهمة الأنبياء، وقادة لغيرهم وقدوة لهم، ومراجع للأمة، تعود إليهم فيما يستعصي حله عليها.

وسأعرض الإجابة باختصار تماشياً مع منهج هذه الرسالة، تاركاً التفاصيل لغيرها...

مقاصد الشريعة وضوابط المصلحة:

وفي هذا السياق نجد أنّ علماء الإسلام وخاصة الأصوليين منهم، قد اهتموا قديماً وحديثاً بتحديد ضوابط المصلحة المعتبرة شرعاً، والتي سنحاول هنا إيجاز ما قرروه بشأنها، ليكون دليلاً لنا في الفرز والحكم والترجيح [1].

مقاصد الشريعة:

وقبل أن نستعرض ضوابط المصلحة الشرعية؛ الفردية والجماعية، لابد أن نقرر هنا أن الإسلام يرسي أهدافاً معينة للحياة البشرية، فكل الأمور ـ سواء كانت أعمالاً أو أشياء ـ التي تساعد على تحقيق هذه الأهداف، تدعى مصالح أو منافع، لأنها تزيد أو تفيد النفع الاجتماعي، وعكسها المفاسد أو المضار.

فالذي يستعرض تعاليم الإسلام، والأوامر والنواهي التي تضمنها القرآن والحديث، يجد أن المصالح الاجتماعية

---

(١) اعتمدنا هنا على ما كتبه الدكتور محمد أنس الزرقا في مجلة (المسلم المعاصر: العدد ١٦/ ١٩٨٧) تحت عنوان «صياغة إسلامية لدالة المصلحة الاجتماعية» وهو بحث قيم نشر في ثلاث حلقات.

في الإسلام لها ثلاثة مستويات أو دوائر تتحقق عبرها بشكل تكاملي متدرج:

- مستوى أو دائرة الضروريات.
- مستوى أو دائرة الحاجيات.
- مستوى أو دائرة التكميليات، وتسمى أحياناً التحسينيات.

مستوى أو دائرة الضروريات:

وتشمل كافة الأفعال والأشياء التي تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة للحياة الفردية والجماعية الصالحة بنظر الإسلام وهي:

- حفظ الدين.
- حفظ النفس.
- وحفظ العقل.
- وحفظ العرض والنسل.
- وحفظ المال.

فصيانة هذه الأركان من أولى مقاصد الشريعة.

فتشمل الضروريات كافة التصرفات التي لابد منها للحفاظ على هذه الأركان الخمسة، وكذلك الأوامر والنواهي المتعلقة بهذه التصرفات مثل:

- إقامة الواجبات الأساسية: وهي الشهادة والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والدعوة في سبيل الله.. وهذه تتعلق بالركن الأول وهو حفظ الدين.
- حرمة النفس الإنسانية: وما يتصل بذلك من أوامر ونواهي، وإباحة، بل وإيجاب الأكل والشرب والملبس، بما يصون الأبدان ويستر السوءات، واتخاذ المساكن، وما يتصل بمثل هذه الأمور، كالبيع والشراء، وهذا يتعلق بالركن الثاني، وهو حفظ النفس.
- المحافظة على السلامة العقلية: بتحريم الخمر وسواها من المواد التي تحجب العقل والإدراك، بل والنهي عن استعمال العقل في التفكير فيما لا قدرة له عليه، كالمغيبات وماهيتها، ومالا طائل من ورائه.

- **المحافظة على سلامة الأعراض وبقاء النوع:** بحماية مؤسسة الزواج، وما يتصل بها من أحكام، كتحريم الزنا والقذف والسفاح والتبني... لصيانة الأعراض، وحفظ الأنساب، وحماية النسل.

- **حماية المال:** بمعناه الواسع وتحريم إتلافه، سواء أكان في ملك الشخص أو في ملك سواه، وتحريم العدوان على أموال الآخرين.

- **الجهاد بمفهومه الحضاري الشامل:** للدفاع عن الأهداف السابقة، واكتساب العلم والمعرفة بالقدر الذي يتوقف عليه الحفاظ على ما سبق، والفعاليات الاقتصادية بالقدر الضروري للمحافظة على الأركان الخمسة، كإنتاج الأغذية مثلاً.

مستوى أو دائرة الحاجيات:

وتشمل الأفعال والأشياء التي لا تتوقف عليها صيانة تلك الأركان الخمسة في ذاتها، ولكن تتطلبها الحاجة لأجل التوسعة ورفع الحرج. ومن الأمثلة على هذه الفئة:

- التمتع بالطيبات التي يمكن أن يستغني عنها الإنسان، ولكن بشيء من المشقة...

- ويعتبر من الحاجيات، كثير من الحرف، والصناعات، والفعاليات الاقتصادية، التي تقع منتجاتها أو الخدمات التي تقدمها ضمن صنف الحاجيات، أي ضمن القدر الكافي لإزالة الحرج، ودفع الشبهة. فعلى سبيل المثال يصعب الاستغناء عن تغطية أرض البيت حين البرد، فإنتاج بسيط من الأغطية يكفي لدفع البرد، يعتبر من الحاجيات، وعندما تتوافر مثل هذه البسط يعتبر السجاد وصناعات السجاد من التكميليات.

- وتحسن الإشارة إلى أن تغير وسائل العيش وصوره، قد تحول بعض الأعمال أو الأشياء من صنف إلى آخر، فمثلا تعتبر المجاري العامة في المناطق الريفية القليلة السكان، من الأمور التكميلية، في حين تعتبر من الحاجيات في المدن المكتظة بالسكان الشائعة في الوقت الحاضر، إذ لولا هذه المجاري لوقع الحرج والمشقة،

ولتعرض السكان إلى مخاطر صحية.

- وكذلك فإن تأمين وسائل النقل العامة، في التجمعات السكانية الصغيرة، لا يعتبر حاجياً بل تكميلياً، في حين يدخل في زمرة الحاجيات تأمين وسائل النقل للسفر بين هذه التجمعات السكانية.

- أما في التجمعات السكانية الكبيرة الممتدة على مساحات واسعة، فتعتبر وسائل النقل العامة من الحاجيات، وعند توافرها بصورة مقبولة، تعتبر وسائل النقل الخاصة من قبيل التكميليات.

وتشمل الحاجيات أيضاً، تلك الأعمال والأشياء التي لا تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة، لكنها تساعد وتسهل سبل المحافظة عليها، فمن ذلك:

- طباعة الكتب المتعلقة ببعض الضروريات كالدعوة في سبيل الله، أو نقل بعض المعارف الضرورية.

ولو كانت طباعة الكتب، يتوقف عليها الحفاظ على الأركان الخمسة، لوجب تصنيفها في الضروريات، لكن

المفترض أن من الممكن الحفاظ على هذه الأركان بطرق أبسط من طباعة الكتب، كالمشافهة والكتابة باليد.

- حفظ الصحة والفعاليات المتصلة بها، وتشجيع التربية البدنية لتقوية الجسم ويلحظ أن حفظ الحياة والفعاليات المتصلة به، هو من الضروريات.

- وأخيراً تشمل الحاجيات، اكتساب المعرفة، وتشجيع التربية والتعليم، وتنمية الثروة العامة والخاصة، إلى الحد اللازم للتوصل إلى الحاجيات المذكورة آنفاً، وهذا تطبيق مباشر للقاعدة الأصولية: «ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب».

مستوى أو دائرة التكميليات:

وتشمل الأعمال والأشياء التي تتجاوز حدود الحاجيات، أو بعبارة أدق تشمل الأمور التي لا تتحرج الحياة ولا تصعب بتركها، ولكن مراعاتها مما يسهل الحياة أو يحسنها ويجملها.

- فمن الأوامر التي تقع في هذه الفئة، تلك المتصلة بمكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، كآداب السلوك

الإسلامي في الطعام والشراب والكلام واللباس، والتحية والنظافة... وكذلك الأوامر المتصلة بالاعتدال إجمالاً، وعدم الإفراط والتفريط، ويشمل ذلك الأمر بالاعتدال في الإنفاق، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٦٧].

- ومن التكميليات: تحسين نوعية العمل والإنتاج، لقوله ﷺ: «إن الله يحب العبد المتقن عمله»(١)، على أن ترك الإتقان إذا كان يفوت حاجة أو ضرورة، فإن الإتقان حينئذ يصبح من الحاجيات أو من الضروريات.

- ومن التكميليات: الراحة والهوايات البريئة والاستجمام، والفعاليات المتصلة به، بالقدر الضروري للمحافظة على راحة العقل والبدن، واسترداد النشاط والقوة.

- وتشمل الكماليات أيضاً: مقادير معتدلة من الأشياء البريئة التي تؤمن الراحة، ويمكن أن يستغني عنها

---

(١) انظر ابن تيمية، الكلم الطيب ١١.

الإنسان دون صعوبة، كالسجاد والأثاث الجيد، وطلاء المنزل، كما تشمل مقادير معتدلة من الأشياء التي تتخذ للتمتع والزينة، كالزهور والمجوهرات...

فإذا تجاوزنا حدود التكميليات، فإننا ندخل في منطقة الإسراف والترف، الذي يعتبره الإسلام مفسدة للفرد والمجتمع، وينهي عنه بشكل واضح.

قواعد الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد

هذه هي أركان ومستويات أو دوائر تحقق المصالح، التي يجب مراعاتها في كل ما يقوم به الإنسان المسلم، وخاصة من يتصدى للنهوض بواجب الدعوة والتجديد في الأمة، وهي مرتبة بحسب أهميتها كما يلي:

- حيث تراعى أولاً المحافظة على الضروريات.
- ثم تليها المحافظة على الحاجيات.
- ثم تعقبها المحافظة على التحسينات.

والضروريات نفسها ليست في مستوى واحد من الأهمية

عند التعارض، بل هي متفاوتة وظيفياً، ومرتبة بحسب أهميتها ومكانتها ودورها في نظام وحركة الحياة كما يلي:

- حيث يراعى حفظ الدين أولاً.
- ثم تليه مراعاة حفظ النفس ثانياً.
- ثم تليه مراعاة حفظ العقل ثالثاً.
- ثم تليه مراعاة حفظ العرض والنسل رابعاً.
- ثم تليه مراعاة حفظ المال خامساً.

وبهذا التركيب لأركان المصالح، والتصنيف والترتيب لمستوياتها ودوائرها، يضع الإسلام بين يدي القائم بعملية التغيير سلماً متدرجاً للأولويات، يساعده على حسم الخلاف والتعارض بين الأهداف الاجتماعية المختلفة، ومن ثم ضمان التوازن في حركة الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة.

فلقد قرر علماء الأصول أن الأشياء المتعلقة بفئة ذات مستوى أدنى، تهمل إذا تعارضت مع أهداف فئة ذات مستوى أعلى، فلا يراعى مثلاً حكم تكميلي إذا كان في مراعاته إخلال

بما هو ضروري أو حاجي، لأن الفرع لا يراعى إذا كان في مراعاته والمحافظة عليه تفريط في الأصل.

والترتيب نفسه يراعى ضمن الفئة الواحدة أيضاً، حين تكون عناصر تلك الفئة مرتبة، أي متفاوتة في القوة، فبعضها أدنى أهمية وبعضها أعلى. فالضروريات مثلاً ليست في مرتبة واحدة، فلا يراعى ضروري إذا كان في مراعاته إخلال بضروريٍ أهم منه، وكذا الحاجيات والتحسينيات.

- ولهذا فرض الجهاد محافظة على الدين، ولم يراع حفظ النفس.
- وأبيح لمن اضطر في مخمصة، شرب مسكر محافظة على النفس، ولم يراع حفظ العقل.
- وأبيح إتلاف مال الغير حين الإكراه عليه بإتلاف نفس أو عضو محافظة على النفس، ولم يراع حفظ المال.
- وفرضت على المكلف عبادات عدة وتكليفات فيها نوع مشقة عليه، محافظة على صحة البدن، ولم يراع التحسين بالطهارة.

• وأبيح كشف العورة في أثناء عملية جراحية أو شبهها، محافظة على صحة البدن، ولم يراع التحسين بستر العورة[1].

ونختم هذه التوضيحات الهامة، بما أورده الإمام الغزالي في المسألة، حينما تعرض لبحث مشكل تعارض النص مع المصلحة، فقال: «إذا عارضت مصلحة حكماً ثبت بالنص أو الإجماع، فهذا في الحقيقة تعارض بين مصلحتين: مصلحة حكم النص والمصلحة المعارضة، فإذا ترجحت المصلحة المعارضة... روعيت وعدل عن حكم النص أو الإجماع! ومرجحات المصلحة المعارضة أمور ثلاثة: أن تكون ضرورية وقطعية وكلية.

ضرورية: ومثل لهذا بما إذا تترس الكفار ببعض أسرى المسلمين، وعلم أن المسلمين يُستأصلون إذا لم يرموا من تترس بهم الكفار من المسلمين، فإنه يباح لهم رمي المسلمين المتَتَرس بهم. فهذه الإباحة تعارض حكماً ثبت بالنص، وهو تحريم قتل المسلم، ولكنها لمصلحة ضرورية هي حفظ حياة جميع المسلمين.

---

(١) خلاف، مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه ٥٧.

وقطعية: لأننا قطعنا بأننا لو لم نرم من تترّسوا بهم من المسلمين، استؤصل المسلمون.

وكلية: لأنها لا تتعلق بنجاة فرد أو أفراد، بخلاف ما لو تترس أهل قلعة، ببعض أسرى المسلمين، لا يباح رمي المسلم المتترس به للوصول إلى فتح القلعة، لأن فتحها ليس ضرورياً لحياة المسلمين»[1].

باستيعاب المسلم لهذه التوجيهات الهامة في قواعد المنهج، التي نبه إليها أفذاذ الأصوليين وغيرهم من العلماء، ومراعاتها في إنجاز الأعمال، واتخاذ المواقف، يستطيع أن يتعرف على المصلحة، ويميز بين المصلحة المعتبرة شرعاً، والنافعة للدعوة والمجتمع والدولة.. وغيرها من المصالح الضارة لها، وأن يختار من ثمّ المواقف السليمة التي تخدم مصلحة الإسلام والدعوة إليه، ويغلبها على غيرها من المصالح الأخرى، الجزئية أو الفردية أو الظرفية.. لصالح ما هو كلي أو عام أو استراتيجي. خاصة إذا:

(١) خلاف، مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه ٥٩.

- **أخذ بمبدأ الشورى:** واجتهد في سبر آراء أهل العلم والتقوى والخبرة.. من الذين عرفوا بولائهم للإسلام، وحرصهم على مصلحة الدعوة إليه والتمكين له..
- **وابتعد عن ردود الأفعال العاطفية:** واحترز من الاستجابة للاستفزاز..
- **وقدر خطورة المواقف المرتجلة وعواقبها الوخيمة:** على حاضر ومستقبل الدعوة والمجتمع والدولة والأمة...
- **وتجرّد لله:** واستشعر الخوف منه، ورغب فيما عنده.
- واستعان بعد ذلك كله بالاستخارة والدعاء والتوكل...

إن استيعاب الداعي إلى الله لهذا الموضوع المتعلق بالمصلحة المعتبرة شرعاً، وضوابطها الشرعية والموضوعية، وأنواعها، ودرجاتها أو مستوياتها.. هو الذي يزوده **بمنهج متكامل للحركة الفاعلة المؤثرة**، ويمكنه من تحديد أولوياته بدقة، ويساعده على اختيار الوسيلة المكافئة والأسلوب المناسب لإنجاز مهامه، جلباً للمصالح ودرءاً للمفاسد، وتلك هي الواقعية الحركية المنضبطة في الدعوة إلى الإسلام، التي يلزم

الشرع الحنيف أتباعه بها، وهم يقومون بتعريف الناس بطبيعته، ودلالتهم على خصائصه، وإطلاعهم على حقائقه، أو وهم يتولون الالتزام الذاتي به، ويحاولون تجسيد نموذجه الاجتماعي أو الحضاري في واقع الحياة، والذود عنه بأموالهم وأنفسهم، سواء في حالة ظهورهم أو ظهور غيرهم عليهم.

أخطار الإخلال
بالانضباط بقواعد المنهج في عملية الموازنة والترجيح

كما أن عدم استيعاب الداعي لهذه القضايا الهامة، أو نقص معرفته بها، وضعف خبرته فيها.. سيحرمه من النظرة الموضوعية، والحركة الواقعية، ويجعله يخبط خبط عشواء:

- فيقدم ما يجب أو ينبغي تأخيره من الأعمال والمواقف والمبادرات..
- ويؤخر ما يجب أو ينبغي تقديمه من ذلك.
- ويعمل ما لا يجب أو لا ينبغي عمله من ذلك.
- ويترك ما يجب أو ينبغي عمله من ذلك.

- ويتدخل حيث يجب عليه أو ينبغي له ألاّ يتدخل.
- ولا يتدخل حيث يجب عليه أو ينبغي له أن يتدخل.
- ويتحمس حيث يجب عليه أو ينبغي له ألاّ يتحمس.
- ويبرد حيث يجب عليه أو ينبغي له أن يتحمس ويثور ويقاوم ويصابر.

وهكذا يتحول إلى قوة مضطربة، تفسد، وهي تظن أنها تحسن صنعاً، ويعظم الخطر عندما تتعدى آثاره إطارها الذاتي المحدود، إلى النطاق الاجتماعي العام، فيكتوي بنارها المجموع الاجتماعي كله أو جله:

- فتمس الإسلام نفسه.
- وتؤثر سلباً على حركة الدعوة إليه.
- وتسيء إلى القائمين بها.
- وتمس مصالح المستهدفين بها من الأفراد والجماعات والمجتمعات...

نماذج تطبيقية عن هذه الأخطار:

وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ مراراً، ونبه المربين والدعاة وقادة التغيير الاجتماعي عامة، إلى ضرورة التزام الواقعية في معاملة أنفسهم ومعاملة غيرهم، والتنبه إلى المضاعفات الوخيمة التي قد تنجر عن الغفلة عن الفروق الفردية والاجتماعية بين الناس وبين المجتمعات، كما تدل على ذلك بعض هذه النماذج التطبيقية المنتقاة:

النموذج التطبيقي الأول:

نهيه ﷺ معاذ رضي الله عنه عن إطالة الصلاة بالناس

كقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، عندما أطال الصلاة بالناس، فشكاه أحدهم إلى رسول الله ﷺ، فقال مغضباً: «أفتّان أنت يا معاذ...؟ ثم قال: إن منكم منفّرين فأيّكم ما صلى بالناس فليجوِّز، فإن فيهم الضعيف والكبير، وذا الحاجة»[1].

فالإنسان لا ينبغي له أن يفرض ذوقه، أو اختياراته

(١) رواه البخاري.

الاجتهادية، أو أوضاعه الخاصة.. على غيره من الناس، بل عليه أن يتحرى المنهج الوسط في إدارته للشأن العام، وأن يراعي أوضاع الناس وأحوالهم، وألاّ يحمّلهم ما لا يطيقون. وكما قيل بحق: «إذا أردت أن تُطاع فأمر بما يستطاع».

النموذج التطبيقي الثاني:

قطعه ﷺ العمل المندوب شفقة على غيره

وعندما قام في رمضان، فقام الصحابة معه، وأدرك مشقة ذلك عليهم إذا ألزموا أنفسهم به، فقطع صلاته، ثم قال لهم: «**أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها**»[1]. وهي كما نرى نظرة بعيدة الغور، تستهدف تحبيب العبادة للناس، عبر إبقاء بعض صورها في حدود المباحات أو المندوبات التي يقبل عليها الإنسان من تلقاء نفسه بعيداً عن منطق الأمر والإلزام، الذي إذا هيمن على الموقف التربوي أو الدعوي أضر به، وأفقده حرارته وحيويته، وأدخله في الروتينية والشكلية.

(١) رواه مسلم.

النموذج التطبيقي الثالث:

إنكاره ﷺ الغلو في العبادة

وعندما أخبر بأن الحولاء بنت تويب لا تنام الليل، قال مستغرباً وناكراً وموجهاً: «**لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا**»[1]. وهي نظرة كذلك بعيدة الغور في الخبرة بمكونات النفس البشرية، وكيف يجب ألّا نصل بها إلى الملل والسآمة، وألّا نرهقها بأنواع المجاهدات التي تفقدها الحماسة إلى العبادة، أو تدخل أضراراً بجوانب أخرى من حياة الفرد أو الجماعة، فيكون ذلك سبباً في أنواع من الإحباطات والتراجعات والاضطرابات المربكة لاستمرار الترقية الروحية والاجتماعية لحياة الإنسان، ومن ثم لتطور المجتمع!

النموذج التطبيقي الرابع:

دعوته ﷺ إلى التوغل في الإسلام برفق

وقال منبهاً إلى المنهج السليم في تحقيق الالتزام الشامل الفعال بالإسلام: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق،**

---

(١) رواه مسلم.

ولابغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولاهراً أبقى»[1]. فالتدرج في العبادة، وأخذ النفس بالرفق والملاينة، والدأب في ذلك والمداومة عليه، ومراكمة الخبرة، وتأمين عملية البناء.. هي أسس المنهج التربوي الذي يحقق الترقي الروحي والسلوكي والاجتماعي المطلوب في حياة الإنسان.

النموذج التطبيقي الخامس:

دعوته ﷺ إلى الموازنة المتكاملة بين المصالح

وعندما بلغه أن ابن عمرو يسرد الصوم قال: «**إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً**». وقد قال ابن عمرو بعد كبره وعجزه عن مواصلة ما ألزم به نفسه: «ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ»[2]. فالحياة تحتاج إلى حركة شمولية متكاملة ومتوازنة، تغطي كل أبعاد الكيان الإنساني، وتمنح كل بعد أو جانب منه حقه من الطاقة التي تغذيه وتنميه وتجدده وتطور أداءه. ذلك لأن الإنسان لا يتحرك

---

(١) رواه أحمد و البيهقي.

(٢) رواه البخاري.

بجانب أو بعد واحد، كما أنه لا يتحرك بطاقة واحدة، بل يتحرك ويتكامل تحركه، وتعظم فعاليته التسخيرية، بحركة مجموع جانبه، ومجموع طاقاته.

النموذج التطبيقي السادس:

تنبيهه ﷺ إلى ضرورة مراعاة الخصوصيات في عملية التأسي

وكان ﷺ عندما يفعل أمراً يعود إلى الجبلة أو إلى ما اختصه الله به ويظهر للناس، يبادر إلى بيان ذلك لهم، حتى لا يقتدوا به فيه فيشق ذلك عليهم، كما حدث بالنسبة إلى امتناعه عن أكل لحم الضب، أو سرده للصوم. وكما حدث عندما كان معتكفاً وخرجت من عنده إحدى نسائه، فرآها صحابيان فناداهما وأخبرهما بأنها زوجته، دفعاً للظنون السيئة قائلاً: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[1].

يقول الإمام الشاطبي مقرراً لهذه الحيثية من ثوابت أو قواعد المنهج الأساسية: «قد يسوغ أن يحمل نفسه من التكليف

---

(١) رواه الشيخان.

ما هو فوق الوسط، بناء على ما تقدم في أحكام الرخص، ولما كان مفتياً بقوله وفعله، كان له أن يخفي ما لعله يقتدى به فيه، فربما اقتدى به فيه من لا طاقة له بذلك العمل فينقطع، وإن اتفق ظهوره للناس نبه عليه، كما كان رسول الله ﷺ يفعل. إذ كان قد فاق الناس عبادة وخلقاً، وكان عليه السلام قدوة، فربما اتبع لظهور عمله، فكان ينهي عنه في مواضع... وربما ترك العمل خوفاً أن يعمل به الناس فيفرض عليهم»[1].

أو تعتبره الأجيال مفروضاً فتتشبث به، كما هو الحال بالنسبة إلى كثير من البدع التي أخذت في نفوس الناس وعقولهم واهتماماتهم مكان السنن، عندما غفل المقتدَى بهم؛ من العلماء والمفكرين وذوي الشأن.. عن التنبيه إلى ذلك، والتأكيد على قواعد المنهج الضابطة والموجهة لذلك!

إن قادة التغيير والتجديد المحنكين.. هم الذين يحملون الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهبون به مذهب الشدة، ولا يميلون به إلى طرف الانحلال... لأن

(١) الموافقات ٤/ ٢٦٠.

الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق:

- أما في طرف التشديد فإنه مهلكة.
- وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضاً.

لأن المستفتي ـ أو المتربى أو المتأسي أو المقلد ـ إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة ـ وهو مشاهد ـ وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة.

ويسمي العلماء صاحب هذه المرتبة الرباني، كما يضيف الشاطبي موضحاً: «ويسمى صاحب هذه المرتبة الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم والفقيه، والعاقل، لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، ومن خاصته أمران:

أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص، بخلاف

صاحب الرتبة الثانية ـ أي من هو دونه ـ فإنه إنما يجيب من رأس الكلية، من غير اعتبار الخاص.

والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات، وصاحب الثانية لا ينظر إلى ذلك ولا يبالي بالمآل»[1].

هذه هي الواقعية الحركية في الدعوة إلى الإسلام:

- تأسيساً للوعي بنسقيته العقدية والمعرفية والمنهجية.
- والتزاماً سلوكياً ذاتياً بصيراً به.
- وتجسيداً عملياً لنموذجه الحضاري في الحياة.
- ومحافظة على اطراد حركة الالتزام والدعوة والبناء.
- وحماية لمنجزات ذلك كله.

تقوم وتتحقق من خلال الوعي بـ **«منظومة سلطة المصالح»**، والالتزام بها في العمل الدعوي التجديدي، حيث تراعى وتحفظ مصالح كل أطراف ومكونات وأبعاد **«الدورة الإنجازية»** للفعل التغييري بنسب متوازنة.. بغية التدرج بالواقع الإنساني والانتقال بأوضاعه إلى الحال التي ينسجم فيها

(١) الموافقات ٤/ ٢٣٢.

تدريجياً مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وفي هذا يقول ابن القيم وهو يتحدث عن هذه الواقعية في مجال الفتوى وملاحقة مستجدات الحياة: «وعلى هذا أبداً تجيء الفتاوى في طول الأيام، فمهما تجدد في العرف فاعتبره، ومهما سقط فألغه، ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك، فلا تجره على عرف بلدك، وسله عن عرف بلده، فأجره عليه وافته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك.. فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين، وجهل بمقاصد المسلمين والسلف الماضين»[1].

ما أروع هذه التوجيهات التي تدل على حيوية هذا الدين وحركيته الفذة، التي بمقدورها أن تستوعب كل مظاهر النشاط البشري، وتوجهه نحو الكمال، لو وجدت المسلم الفقيه، الذي يستوعب النسقية المعرفية والمنهجية للإسلام؛ نظرية وتطبيقاً، وينضبط بها في بناء «الدورات الإنجازية»

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٩٩.

لأفعاله المعرفية والتربوية والاجتماعية والدعوية.

۞ ۞ ۞

الباب الثالث[1]

نحو بناء حس واقعي متوازن

(١) ويحتوي على فصلين.

الفصل الأول

من أجل ثقافة واقعية متوازنة

الفصل الثاني :

من وحي الخبرة المعرفية والحركية

تمهيد

اتضح لنا من خلال البابين السابقين، مدى الأهمية الكبيرة التي تحتلها الواقعية الحركية المنضبطة في عملية الدعوة والبناء والمواجهة، ومن ثم ضمان الأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية لحركة التغيير والتجديد.

كما اتضح لنا بناء على ذلك، مدى الموقع الحيوي الكبير الذي يمنحه الإسلام للواقعية، على الصعيدين المعرفي والمنهجي أو الإنجازي معاً.

ولقد أمكننا من خلال كل ما سبق أن نستخلص عدة ملاحظات وتوجيهات هامة، نثبتها في هذا الباب الأخير، مساهمة منا في العمل على تأسيس وبناء الحس الواقعي لدى المسلم المعاصر، حتى تعود إليه حيويته وأصالته وفعاليته وأناقته الحضارية.

وتتمحور هذه المستخلصات حول محورين أساسين هما:

- بناء ثقافة واقعية من خلال التنبيه إلى ضرورة العناية بمجموعة من المعارف والخبرات الهامة في هذا المجال.

- إعطاء بعض العينات النموذجية من مستخلصات التجارب والخبرات السابقة في مجال التأصيل الفكري المتوازن، والخبرة الحركية الواقعية الناضجة، المستمدة من تراثنا الحضاري الذاتي، ومن الخبرة الإنسانية العامة.

وقبل الشروع في ذلك نبدأ مرة أخرى بالتنبيه إلى أن الواقعية في الدعوة إلى الإسلام لا تعني ولا يمكن أن تعني الخضوع الإرادي المختار للواقع المنحرف، والركون إلى أهله ومحاولة تبرير ذلك المسلك، من الداعية أو من غيره، كما يفعل بعض الذين يجهلون النسقية المعرفية والمنهجية للإسلام، ويريدون أن يؤصلوا وضعاً لا سبيل إلى تأصيله، بل لابد من تأصيل ضرورة تغييره.

وعليه فإن الواقعية في المنظور الإسلامي الأصيل، تعني التحرك حسب الإمكان، ووفق سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية، وبناء على ما تمليه مصلحة الدعوة، بعيداً

عن المثالية السلبية، والحرفية الجامدة، التي تثقل خطا المسلم، وتقوده إلى العزلة والانغلاق، والتعامل مع المجتمع وحركة الحياة فيه من خلال الكتب، والافتراضات الإسقاطية الذاتية البعيدة عن الحقيقة...

فالواقعية التي نعنيها في هذه الرسالة هي تلك الحركة الواعية التي تنطلق من الاستيعاب العميق للنسقية المعرفية والمنهجية للإسلام، والإحاطة الدقيقة بواقع الأفراد والمجتمعات التي يراد تغييرها ومطابقة أوضاعها مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، بالوسائل والأساليب الأكثر أصالة وفعالية وكفاءة، في إطار من الوعي العميق بمآلات الموقف الحركي وعواقبه الآنية والمستقبلية المنظورة.

۞ ۞ ۞

الفصل الأول

من أجل ثقافة واقعية متوازنة

تمهيد

نظراً للأهمية الحيوية التي تكتسيها المعرفة، في مجال تأسيس الوعي أو الحس الواقعي، وبناء القدرات الإنجازية لدى الإنسان المسلم، وتزويده بالضوابط والآليات المنهجية التي تساعده على ذلك. نشير في هذا الفصل إلى مجموعة هامة من العلوم والمعارف والخبرات التي من شأنها أن تعزز بناء الوعي، ومن ثم الحس الواقعي المتوازن لدى الإنسان المسلم، وتنتشله من متاهات الاهتلاك الفكري والسلوكي الذي يبدد طاقته، ويهدر إمكانات المجتمع والأمة دون طائل.

قواعد أساسية في التأهيل الرسالي

وقبل الشروع في الحديث عن بعض الحقول الثقافية المساعدة على بناء الحس الواقعي المتوازن لدى المسلم عامة،

والإسلامي خاصة! أود أن أشير إلى بعض القواعد المنهجية الأساسية، التي يجب أن تراعى في عملية التكوين التربوي لأجيال الدعوة، حتى يمنحهم هذا التكوين، **الواقعية الفكرية والحركية المنضبطة**، التي تطبع حركتهم الالتزامية والدعوية والتغييرية.. بالأصالة والفعالية والقابلية للاطراد.

وسأقتصر هنا على ثلاث قواعد أساسية فقط وهي:

تنوع مصادر التكوين الثقافي:

على اعتبار أن حاجات الواقع وتحدياته شديدة التنوع، والاجتهادات المتصلة باستيعاب ذلك متعددة ومتنوعة كذلك، فإن المتصدي لعملية الدعوة والتغيير والإصلاح الاجتماعي، يجد نفسه في حاجة ماسة إلى أرضية ثقافية متنوعة، تتيح له وعياً متكاملاً ومتوازناً، يمنحه القدرة على مواكبة الأحداث، والتأثير الإيجابي الفعال فيها.

من يتوق إلى الحظوة بشرف الانخراط في قافلة الدعاة والمصلحين الرساليين، عليه أن يوسع دائرة ثقافته وينوعها، ثم يعمقها في مجال اختصاصي معين، ولا يضيِّق على نفسه،

النموذج التطبيقي الثالث:

إنكاره ﷺ الغلو في العبادة

وعندما أخبر بأن الحولاء بنت تويب لا تنام الليل، قال مستغرباً وناكراً وموجهاً: «**لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا**»[1]. وهي نظرة كذلك بعيدة الغور في الخبرة بمكونات النفس البشرية، وكيف يجب ألّا نصل بها إلى الملل والسآمة، وألّا نرهقها بأنواع المجاهدات التي تفقدها الحماسة إلى العبادة، أو تدخل أضراراً بجوانب أخرى من حياة الفرد أو الجماعة، فيكون ذلك سبباً في أنواع من الإحباطات والتراجعات والاضطرابات المربكة لاستمرار الترقية الروحية والاجتماعية لحياة الإنسان، ومن ثم لتطور المجتمع!

النموذج التطبيقي الرابع:

دعوته ﷺ إلى التوغل في الإسلام برفق

وقال منبهاً إلى المنهج السليم في تحقيق الالتزام الشامل الفعال بالإسلام: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق،**

---

(١) رواه مسلم.

ولابغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولاهراً أبقى»[1]. فالتدرج في العبادة، وأخذ النفس بالرفق والملاينة، والدأب في ذلك والمداومة عليه، ومراكمة الخبرة، وتأمين عملية البناء.. هي أسس المنهج التربوي الذي يحقق الترقي الروحي والسلوكي والاجتماعي المطلوب في حياة الإنسان.

النموذج التطبيقي الخامس:

دعوته ﷺ إلى الموازنة المتكاملة بين المصالح

وعندما بلغه أن ابن عمرو يسرد الصوم قال: «إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً». وقد قال ابن عمرو بعد كبره وعجزه عن مواصلة ما ألزم به نفسه: «ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ»[2]. فالحياة تحتاج إلى حركة شمولية متكاملة ومتوازنة، تغطي كل أبعاد الكيان الإنساني، وتمنح كل بعد أو جانب منه حقه من الطاقة التي تغذيه وتنميه وتجدده وتطور أداءه. ذلك لأن الإنسان لا يتحرك

(١) رواه أحمد و البيهقي.

(٢) رواه البخاري.

بجانب أو بعد واحد، كما أنه لا يتحرك بطاقة واحدة، بل يتحرك ويتكامل تحركه، وتعظم فعاليته التسخيرية، بحركة مجموع جانبه، ومجموع طاقاته.

النموذج التطبيقي السادس:

تنبيهه ﷺ إلى ضرورة مراعاة الخصوصيات في عملية التاسي

وكان ﷺ عندما يفعل أمراً يعود إلى الجبلة أو إلى ما اختصه الله به ويظهر للناس، يبادر إلى بيان ذلك لهم، حتى لا يقتدوا به فيه فيشق ذلك عليهم، كما حدث بالنسبة إلى امتناعه عن أكل لحم الضب، أو سرده للصوم. وكما حدث عندما كان معتكفاً وخرجت من عنده إحدى نسائه، فرآها صحابيان فناداهما وأخبرهما بأنها زوجته، دفعاً للظنون السيئة قائلاً: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[1].

يقول الإمام الشاطبي مقرراً لهذه الحيثية من ثوابت أو قواعد المنهج الأساسية: «قد يسوغ أن يحمل نفسه من التكليف

(١) رواه الشيخان.

ما هو فوق الوسط، بناء على ما تقدم في أحكام الرخص، ولما كان مفتياً بقوله وفعله، كان له أن يخفي ما لعله يقتدى به فيه، فربما اقتدى به فيه من لا طاقة له بذلك العمل فينقطع، وإن اتفق ظهوره للناس نبه عليه، كما كان رسول الله ﷺ يفعل. إذ كان قد فاق الناس عبادة وخلقاً، وكان عليه السلام قدوة، فربما اتبع لظهور عمله، فكان ينهي عنه في مواضع... وربما ترك العمل خوفاً أن يعمل به الناس فيفرض عليهم»[1].

أو تعتبره الأجيال مفروضاً فتتشبث به، كما هو الحال بالنسبة إلى كثير من البدع التي أخذت في نفوس الناس وعقولهم واهتماماتهم مكان السنن، عندما غفل المقتدَى بهم؛ من العلماء والمفكرين وذوي الشأن.. عن التنبيه إلى ذلك، والتأكيد على قواعد المنهج الضابطة والموجهة لذلك!

إن قادة التغيير والتجديد المحنكين.. هم الذين يحملون الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهبون به مذهب الشدة، ولا يميلون به إلى طرف الانحلال... لأن

(١) الموافقات ٤/ ٢٦٠.

الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق:

- أما في طرف التشديد فإنه مهلكة.
- وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضاً.

لأن المستفتي ـ أو المتربى أو المتأسي أو المقلد ـ إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة ـ وهو مشاهد ـ وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة.

ويسمي العلماء صاحب هذه المرتبة الرباني، كما يضيف الشاطبي موضحاً: «ويسمى صاحب هذه المرتبة الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم والفقيه، والعاقل، لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، ومن خاصته أمران:

أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص، بخلاف

صاحب الرتبة الثانية ـ أي من هو دونه ـ فإنه إنما يجيب من رأس الكلية، من غير اعتبار الخاص.

والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات، وصاحب الثانية لا ينظر إلى ذلك ولا يبالي بالمآل»[1].

هذه هي الواقعية الحركية في الدعوة إلى الإسلام:

- تأسيساً للوعي بنسقيته العقدية والمعرفية والمنهجية.
- والتزاماً سلوكياً ذاتياً بصيراً به.
- وتجسيداً عملياً لنموذجه الحضاري في الحياة.
- ومحافظة على اطراد حركة الالتزام والدعوة والبناء.
- وحماية لمنجزات ذلك كله.

تقوم وتتحقق من خلال الوعي بـ «منظومة سلطة المصالح»، والالتزام بها في العمل الدعوي التجديدي، حيث تراعى وتحفظ مصالح كل أطراف ومكونات وأبعاد «الدورة الإنجازية» للفعل التغييري بنسب متوازنة.. بغية التدرج بالواقع الإنساني والانتقال بأوضاعه إلى الحال التي ينسجم فيها

(١) الموافقات ٤/ ٢٣٢.

تدريجياً مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وفي هذا يقول ابن القيم وهو يتحدث عن هذه الواقعية في مجال الفتوى وملاحقة مستجدات الحياة: «وعلى هذا أبداً تجيء الفتاوى في طول الأيام، فمهما تجدد في العرف فاعتبره، ومهما سقط فألغه، ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك، فلا تجره على عرف بلدك، وسله عن عرف بلده، فأجره عليه وافته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك.. فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين، وجهل بمقاصد المسلمين والسلف الماضين»[1].

ما أروع هذه التوجيهات التي تدل على حيوية هذا الدين وحركيته الفذة، التي بمقدورها أن تستوعب كل مظاهر النشاط البشري، وتوجهه نحو الكمال، لو وجدت المسلم الفقيه، الذي يستوعب النسقية المعرفية والمنهجية للإسلام؛ نظرية وتطبيقاً، وينضبط بها في بناء «الدورات الإنجازية»

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٩٩.

لأفعاله المعرفية والتربوية والاجتماعية والدعوية.

۞ ۞ ۞

الباب الثالث[1]

نحو بناء حس واقعي متوازن

(١) ويحتوي على فصلين.

الفصل الأول

من أجل ثقافة واقعية متوازنة

الفصل الثاني :

من وحي الخبرة المعرفية والحركية

تمهيد

اتضح لنا من خلال البابين السابقين، مدى الأهمية الكبيرة التي تحتلها الواقعية الحركية المنضبطة في عملية الدعوة والبناء والمواجهة، ومن ثم ضمان الأصالة والفعالية والاطراد والمصداقية لحركة التغيير والتجديد.

كما اتضح لنا بناء على ذلك، مدى الموقع الحيوي الكبير الذي يمنحه الإسلام للواقعية، على الصعيدين المعرفي والمنهجي أو الإنجازي معاً.

ولقد أمكننا من خلال كل ما سبق أن نستخلص عدة ملاحظات وتوجيهات هامة، نثبتها في هذا الباب الأخير، مساهمة منا في العمل على تأسيس وبناء الحس الواقعي لدى المسلم المعاصر، حتى تعود إليه حيويته وأصالته وفعاليته وأناقته الحضارية.

وتتمحور هذه المستخلصات حول محورين أساسين هما:

- بناء ثقافة واقعية من خلال التنبيه إلى ضرورة العناية بمجموعة من المعارف والخبرات الهامة في هذا المجال.
- إعطاء بعض العينات النموذجية من مستخلصات التجارب والخبرات السابقة في مجال التأصيل الفكري المتوازن، والخبرة الحركية الواقعية الناضجة، المستمدة من تراثنا الحضاري الذاتي، ومن الخبرة الإنسانية العامة.

وقبل الشروع في ذلك نبدأ مرة أخرى بالتنبيه إلى أن الواقعية في الدعوة إلى الإسلام لا تعني ولا يمكن أن تعني الخضوع الإرادي المختار للواقع المنحرف، والركون إلى أهله ومحاولة تبرير ذلك المسلك، من الداعية أو من غيره، كما يفعل بعض الذين يجهلون النسقية المعرفية والمنهجية للإسلام، ويريدون أن يؤصلوا وضعاً لا سبيل إلى تأصيله، بل لابد من تأصيل ضرورة تغييره.

وعليه فإن الواقعية في المنظور الإسلامي الأصيل، تعني التحرك حسب الإمكان، ووفق سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية، وبناء على ما تمليه مصلحة الدعوة، بعيداً

عن المثالية السلبية، والحرفية الجامدة، التي تثقل خطا المسلم، وتقوده إلى العزلة والانغلاق، والتعامل مع المجتمع وحركة الحياة فيه من خلال الكتب، والافتراضات الإسقاطية الذاتية البعيدة عن الحقيقة...

فالواقعية التي نعنيها في هذه الرسالة هي تلك الحركة الواعية التي تنطلق من الاستيعاب العميق للنسقية المعرفية والمنهجية للإسلام، والإحاطة الدقيقة بواقع الأفراد والمجتمعات التي يراد تغييرها ومطابقة أوضاعها مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، بالوسائل والأساليب الأكثر أصالة وفعالية وكفاءة، في إطار من الوعي العميق بمآلات الموقف الحركي وعواقبه الآنية والمستقبلية المنظورة.

۞ ۞ ۞

الفصل الأول

من أجل ثقافة واقعية متوازنة

تمهيد

نظراً للأهمية الحيوية التي تكتسيها المعرفة، في مجال تأسيس الوعي أو الحس الواقعي، وبناء القدرات الإنجازية لدى الإنسان المسلم، وتزويده بالضوابط والآليات المنهجية التي تساعده على ذلك. نشير في هذا الفصل إلى مجموعة هامة من العلوم والمعارف والخبرات التي من شأنها أن تعزز بناء الوعي، ومن ثم الحس الواقعي المتوازن لدى الإنسان المسلم، وتنتشله من متاهات الاهتلاك الفكري والسلوكي الذي يبدد طاقته، ويهدر إمكانات المجتمع والأمة دون طائل.

قواعد أساسية في التأهيل الرسالي

وقبل الشروع في الحديث عن بعض الحقول الثقافية المساعدة على بناء الحس الواقعي المتوازن لدى المسلم عامة،

والإسلامي خاصة! أود أن أشير إلى بعض القواعد المنهجية الأساسية، التي يجب أن تراعى في عملية التكوين التربوي لأجيال الدعوة، حتى يمنحهم هذا التكوين، **الواقعية الفكرية والحركية المنضبطة**، التي تطبع حركتهم الالتزامية والدعوية والتغييرية.. بالأصالة والفعالية والقابلية للاطراد.

وسأقتصر هنا على ثلاث قواعد أساسية فقط وهي:

تنوع مصادر التكوين الثقافي:

على اعتبار أن حاجات الواقع وتحدياته شديدة التنوع، والاجتهادات المتصلة باستيعاب ذلك متعددة ومتنوعة كذلك، فإن المتصدي لعملية الدعوة والتغيير والإصلاح الاجتماعي، يجد نفسه في حاجة ماسة إلى أرضية ثقافية متنوعة، تتيح له وعياً متكاملاً ومتوازناً، يمنحه القدرة على مواكبة الأحداث، والتأثير الإيجابي الفعال فيها.

من يتوق إلى الحظوة بشرف الانخراط في قافلة الدعاة والمصلحين الرساليين، عليه أن يوسع دائرة ثقافته وينوعها، ثم يعمقها في مجال اختصاصي معين، ولا يضيِّق على نفسه،

يأخذ من كل مسلم مخلص صادق ناضج، ما فتح الله به عليه، دون تعصب لأحد أو تحامل على أحد منهم، وشعاره «**كلٌّ يُؤخذ من كلامه ويُرد إلّا صاحب هذا القبر**» أي رسول الله ﷺ، فالصواب غاية المسلم، والنفع مطلبه أنى وجده تلقفه ودعا بالخير لصاحبه.

وفي هذا السياق يجب على الداعي إلى الله سبحانه وتعالى أن يحترم: «**قانون اقتباس أو استيحاء**» التجارب، وألا يخرج عنه بأي حال من الأحوال، لأن في تجاهله والخروج عنه:

- مخالفة للشرع من جهة.
- وتخريب للأعمال من جهة أخرى.
- وعرقلة لسير العمل واطراده من جهة ثالثة.

وهذا القانون يقضي بأن يدرك المسلم جيداً أن الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصة بها، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية.

ومن حقائق علم الحياة أن عملية نقل الدم مثلاً تخضع لشروط وقواعد دقيقة، ينبغي مراعاتها مخافة أن يؤدي الأمر إلى زلزلة الجسم المتلقي والفتك به، فليس كل عنصر من عناصر الدم بقابل ليحل محل الآخر، لما بين فصائله من اختلاف عضوي يرجع في الحقيقة إلى اختلاف الأبدان.

هذه الحقيقة ذات الطابع الحيوي صادقة فيما يتعلق بالمجال العضوي التاريخي. فالعناصر الاجتماعية التي تسم الثقافات المختلفة ليست كلها قابلة للتداول[1].

فالدارس لكتب فقه الدعوة، عليه أن يستوعب جيداً هذا القانون، وأن يوقن أنّ كثيراً من أنواع التجارب ذات الطابع الفني - أو بعضها على الأقل - التي نقرؤها أو نسمع عنها، تشبه الصيغة الكمياوية:

[هيدروجين ٢ (H_2) + أوكسجين ١ (O)= ماء(H_2O)]

فهي صحيحة من حيث التحليل، ولكن لنفترض أن أحداً من الناس قبسها هكذا ليطبقها في الحصول على الماء،

(١) مالك بن النبي، وجهة العالم الإسلامي ٨٧.

فإنه لن يصل إلى شيء، إذ ينقصه عند التطبيق عنصر جوهري هو: «المركب»، الذي لم تعبر عنه الصيغة، ولا يمكن أن تعبر عنه، لأنها من حيث كانت تعبيراً عن علاقات كمية بين عنصري الإيدروجين والأكسجين اللذين يكونان الماء، تعد صحيحة على وجه الدقة. فهي صحيحة ولكنها غير قابلة للتطبيق في يد من لا يجد في ذهنه مايكملها.

وإذن فلكي يستفيد الداعي من بحوث ودراسات فقه الدعوة، ينبغي له ألا يقتصر عمله على مجرد البحث عن التجارب التي تأكدت صحتها وصلاحيتها في بيئتها، والتحمس لنقلها وفرضها على بيئته الخاصة، دون فطنة إلى ما فيها من عناصر محلية وخصوصيات، وليدة الأوضاع النفسية و الاجتماعية للوسط الحضاري الذي تخلقت فيه، قد لا تكون متوافرة في الوسط الحضاري المنقولة إليه [1]، وإلى مافيها من نقائص ذاتية خفية صاحبت تخلقها ونموها، لايستحسن زرعها في بيئة أخرى قد تكون أصح منها.

(١) انظر تحليلاً هاماً في: ميلاد مجتمع لابن نبي ٩٥ وما بعده.

وعليه فإنه لا يجوز لأي مسلم يسعى للمساهمة في دعم عمليات التغيير الإسلامي المنشود، أن يضع الحلول والمناهج ـ وأن يقتبس التجارب الفنية ـ مغفلاً مكان مجتمعه ومركزه وظروفه.. بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها مجتمعه»[1].

ومن هذا يعلم كما يقول الإمام الشاطبي أنه: «ليس كل مايعلم مما هو حق يطلب نشره وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم، فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة، ومنه مالا يطلب نشره بإطلاق، أو لايطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص»[2].

فالقائم بعملية الدعوة والتجديد، مطالب في هذا المجال بتحويل ذهنه إلى مركز تحليل وفرز وتصنيف وترتيب وإخراج جديد للمعلومات التي ترد على ذهنه، بواسطة القراءة والسماع والمشاهدة والتأمل... وفق ما تسمح به وتتحمله:

---

(١) شروط النهضة ٧٠ بتصرف.

(٢) الموافقات ٤/ ١٨٩.

- توجيهات ومقاصد الشريعة.
- وظروف وأوضاع المجتمع أو الأفراد.
- والوسائل والإمكانيات المتوافرة.

بخلاف ما هو عليه حال بعض العاملين، ممن حول ذهنه إلى مجرد جهاز استقبال وإرسال للمعلومات كما هي، معطلا بذلك ما منحه الله من إمكانيات، وزوده به من طاقات عقلية جبارة، ليحلل ويصنف ويرتب ويفسر ويتوقع ويبدع... خدمة لدينه وتمكيناً له في النفوس والعقول، والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية...

إن من تمام النضج العقلي والعاطفي، ومن تمام الارتباط المصيري بمصلحة الدعوة الإسلامية، ومن تمام الصدق في هذا الارتباط.. أن يحترم القائمون بعملية التغيير قانون اقتباس أو استيحاء التجارب، وأن يحققوا في نشاطهم مقتضياته، بالتحكم في توجيه عواطفهم وحبهم وصداقاتهم ومصالحهم وارتباطاتهم، وإقبالهم وإدبارهم... فلا يمضون منها إلّا ما غلب الظن على أنه يحقق مصلحة الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء ٤/ ٦٥]. وقال ﷺ: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[١].

اهمية الوعي بمناهج وتقنيات الصراع الفكري

الذي يعتبر جبهة خطيرة من جبهات الصراع الحضاري الرهيب بين الإسلام وقوى الاستكبار العالمي، بغية الحد من فعالية، وإضعاف الارتباط به، وحرمان الأمة من استثمار مافيه من ثروة سننية عظيمة، بإمكانها أن تعطي حيوية نموذجية لجهود الدعوة والبناء والمواجهة.

فهذا الصراع الفكري يستعمل بكفاءة سلاح الدعاية والتشويه والتزييف والتشكيك.. في كل ما من شأنه أن يحرر المسلم من عقد النقص، ويشعره بالاعتزاز والأستاذية في هذا العالم، ويدفعه لامتلاك زمام المبادرة والسبق في كل مجالات الحياة.

ولعل أخطر جبهة في الحياة الإسلامية، شهدت وتشهد

---

(١) رواه الترمذي.

صراعاً مريراً، هي الجبهة الفكرية الثقافية، التي تسربت منها جراثيم قتالة للذهنية والنفسية والسلوكية الإسلامية، شطرت حياة المسلم وحولته إلى مخلوق عجيب، تنخره التناقضات، وتمزقه الفوضى الفكرية والسلوكية...

وذلك عندما تمكنت قوى الكيد العالمي من التصرف في طاقته الاجتماعية، وتوجيهها لخدمة مصالحها الحيوية على حساب مصلحة الإسلام والأمة الإسلامية، بعد أن درست أوضاعنا النفسية والفكرية والسياسية و الاجتماعية دراسة عميقة، وأدركت منها مواطن الضعف، فسخرتنا لما تريد كصواريخ موجهة، تصيب بها من تشاء. فنحن لا نتصور إلى أي حد تحتال علينا قوى الكيد العالمي لكي تجعل منا أبواقاً تتحدث فيها، وأقلاماً تكتب بها[1]، وسواعد تبطش وتخرب بها.

والمخرج من هذه الدوامة التي وضعتنا فيها قوى الكيد العالمي، منوط بتخلصنا مما تستغله في نفوسنا من استعداد لخدمتها، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دامت لها سلطة

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة ٢٣٣.

خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية. وقد قال أحد المصلحين: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم»[1].

والمدخل العملي للتخلص من آثار السيطرة الفكرية على عقولنا وسلوكاتنا ومواقفنا... هو العناية بالدراسات والبحوث التي تهتم بكشف وسائل وأساليب وطرق ومناهج الصراع الفكري، وتحديد ميادينه وجبهاته وأماكن ثقله وأطرافه، وترصد نتائجه بالوثائق والأرقام والشهادات، ليطلع المسلم من خلالها على خلفيات وأسباب وأسرار ما يعيشه أو يسمعه أو يراه في الحياة من حوله، من أحداث وظواهر تؤرقه، أو تستهويه وتغريه وتجذبه إليها، ولا يعرف حقيقتها ولا مراميها...

فعندما يعرف المسلم ذلك أو بعضه، يتكثف لديه الإحساس بضرورة التوقف عند كل شيء، وتحليل كل شيء والتدقيق في كل شيء. وبذلك يتخلص من بعض الصفات

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة ٢٣٣ بتصرف.

السلبية الخطيرة التي تلازمه، مثل الإمعية، والتبسيط الساذج للأمور، والنظرة السطحية الغافلة أو الذاهلة، والزهد في الإحاطة بحركة قوى الشر.. وينتقل إلى مرحلة التفكير في شؤون دينه وأمته وواقعه، بواقعية وموضوعية وأصالة وفعالية.

أهمية العناية بالعلوم الإنسانية

إن موضوع الدعوة والتجديد والتغيير هو باستمرار:

- الإنسان وبيئته ومحيطه.
- والتصورات الاعتقادية للإنسان، وأسلوب تفكيره، وقيمه، وسلوكاته، وأنشطته اليومية، وعلاقاته مع نفسه، ومع غيره من الناس... في محيط الأسرة، والمدرسة، والجوار، والعمل...
- والأنظمة التي يقيمها لضبط وتوجيه شؤون حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والدولية...

هل هذه الأبعاد كلها تسير في اتجاه تحقيق التوافق والانسجام في حياته الفردية، والتوازن في حياته الجماعية؟ وهل هذا التوافق والانسجام على مستوى الكيان الفردي، وهذا

التوازن على مستوى حركة المجتمع، يسيران في توافق وانسجام وتوازن مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد أم لا؟

هذا هو موضوع الدعوة الإسلامية، تغييراً وتبريراً، كما رسمه القرآن الكريم وفصلته السنة والسيرة النبوية الشريفة، ومضى عليها الربانيون عبر التاريخ.

وكما هو معلوم فإن كل هذه القضايا التي تتعلق بحياة الإنسان وحركته ونشاطه من أجل السيطرة أو النفع.. محكومة بسنن وقوانين كونية نفسية وعضوية واجتماعية... لا تتأخر ولا تتحول ولا تحابي أحداً، فمن اهتدى إليها وتحرك بموجبها حقق مراده، وأدرك غايته، وإن كان ملحداً أو وثنياً، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبياً، على حد تعبير العلامة رشيد رضا[1]. قال تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر ٣٥/ ٤٣].

ولقد فقه المسلمون الأوائل هذه الحقيقة، واستوعبوها نظرياً وعملياً في حياتهم الخاصة، وعملهم الدعوي لتبليغ

(١) تفسير المنار ٤/ ١٤١، ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٣.

الإسلام وإقامة الحجة على الدنيا في المشارق والمغارب، فخططوا ونظموا وتشاوروا وتطاوعوا، وأعدوا قوة معرفية وروحية وعسكرية ضاربة، سيطروا بها على البحار، وقهروا بها من وقف في طريق الدعوة الخالصة لله تعالى، وبنوا حضارة إنسانية جديدة، تهاوت أمامها كل حضارات العالم القديم الذي ظهر فيه الإسلام.

ولكن الأمة الإسلامية أتى عليها حين من الدهر، جهلت، وابتعدت عن أسباب القوة والتمكين، فانطبقت سنن الله عليها، وسلبت منها قيادة البشرية ليتولاها غيرها من الأمم التي نشطت وأخذت بالأسباب اللازمة للقوة، فصارت غالبة بعد أن كانت مغلوبة، ومتبوعة بعد أن كانت تابعة.

لقد كان المسلمون رواداً في الدراسات النفسية والاجتماعية والأنثربولوجية... ولكنهم اليوم صاروا إلى وضع أصبحوا فيه تلاميذ لمن كانوا هم أساتذتهم بالأمس، ليأخذوا عنهم ما جد في مجال العلوم النفسية و الاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والسياسية والإدارية...

هذه العلوم التي اختصت بتفسير السلوك الإنساني وتحليل العلاقات والنظم الاجتماعية وتعليلها، وضبط منهجيات وأساليب التأثير والتغيير في حياة الإنسان ومحيطه الاجتماعي.. وقد حققوا نتائج هامة.. على المسلمين أن يستفيدوا منها دون عقدة من كبرياء أجوف أو ضعف، للصلة القوية لهذه العلوم بمجال الدعوة إلى الله تعالى.

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: وأرى أن نستفيد من هذه الدراسات على ضوء المعرفة الدقيقة بما قال الإسلام في القضايا المتشعبة.

إن العلوم الإنسانية تكون أحياناً وصّافة لأحوال النفس والمجتمع، ويتسم عملها في هذا المجال بالصدق والحياد غالباً، وقد تقرر أحكاماً حسنة تتفق مع الفطرة التي هي صفة الإسلام الأولى. وقد تشرح وسائل جيدة لأهداف يسعى إليها الدين، ويترك ما يوصل إليها لاجتهادنا العادي...

وإنما دفعني إلى الوصاية باستمرار هذه الدراسة، أنها تعرض الواقع الأدبي والمادي للبشرية كلها، ومعرفة هذا

الواقع مطلوبة. وأنها قد تتضمن مقترحات لخير الإنسانية أجود من المقترحات التي يعرضها أصحاب الدين المغشوش، أو السطحي للإصلاح العام!..»[1].

أهمية الانفتاح الاجتماعي

وهذه المعلومات والمعارف المتراكمة في ذاكرة الإنسان المسلم، مع أهميتها القصوى في المساهمة في تربية الحس الواقعي لدى القائم بعملية الدعوة والتجديد، ستظل مجرد ثقافة نظرية أو أثرية لا سلطان لها على الواقع، ما لم تؤثر تأثيراً عملياً محساً على عالم الأفكار والأشياء والأشخاص في أي محيط اجتماعي يعيش فيه المسلم.

يقول كورتوا: «النصر معقود لمن درب نفسه وجنوده على متاعب المعركة، وكان في تدريبه أقرب ما يكون إلى الواقع، رغم أن حقيقة المعركة شيء لا يمكن دراسته أو تعلمه، والدروس المستقاة من فوهات البنادق، وهدير القنابل، وتناثر الشظايا، غير دروس ميدان التدريب». ولقد

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية٤٦.

قال نابليون: «تعلموا كثيراً وبشكل جيد لتطبقوا في القتال الشيء القليل بشكل مقبول»[1].

فالممارسة الميدانية هي التي تكشف للإنسان المسلم العامل في سبيل الله عن قيمة وصلاحية أفكاره، وفعالية وسائله وأساليبه ومناهج إنجازه.. أو تفاهتها وعدم صلاحيتها لتقادم العهد بها. كما تنقله من مرحلة السماع عن المشكلات أو التفرج عليها، إلى مرحلة معاينتها ومعاناتها في الميدان، بحثاً عن حلول ناجعة لها.

وكل ذلك يعمق صلته بالحياة وفهمه لتحولاتها السلبية والإيجابية، ويثري خبرته بالناس ونفسياتهم وظروفهم، ومواطن ضعفهم وقوتهم، وأسباب إقبالهم أو إدبارهم...

كما يدرك خلفيات وأبعاد القوى والعوامل التي تؤثر في صياغة وتوجيه المجتمع، ويقف على الوسائل والأساليب والطرق التي تعتمد وتسلك للتأثير على الرأي العام، ومراكز القوى في أي محيط إنساني يعيش فيه ويتفاعل معه.

---

(١) لمحات في فن القيادة ٩٢.

إن هذه الممارسة الميدانية البصيرة المتواصلة، تمكن القائم بعملية الدعوة والتجديد من بلوغ درجة كبيرة من التوقع أو التنبؤ بنوع الاستجابة أو درجة التفاعل، وطريقة رد الفعل على أي مثير من المثيرات الفكرية أو الاجتماعية، التي يتعرض لها الإنسان في أي ظرف من الظروف، بخلاف من ينطوي على نفسه، ويسترسل في معاشرة الزاهدين ومصاحبتهم في زهدهم وتقواهم، وانقطاعهم عن الناس، ويجاريهم في تبني مواقفهم من الأوضاع التي عاشوها والمشكلات التي واجهوها، ويتجاوب معهم أكثر مما يتجاوب مع معاصريه ومشاكل بيئته!

إن مثل هذا المسلم لا يستطيع أن يؤثر في توجيه الأحداث من حوله، لضعف صلته بواقع الناس، وجهله لنفسية وعقلية وأوضاع وظروف.. من يحاول التأثير فيهم، بعزلهم عن الانحراف أو بدفعهم إلى الاستقامة.

وأكتفي هنا بإيراد نموذج تطبيقي عن ذلك من حياة رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سليمان بن صرد رضي الله عنه أنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ

ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد أحمر وجهه. فنظر إليه النبي ﷺ وقال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**». فقام إلى الرجل رجل ممن سمع رسول الله ﷺ فقال: **أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفا؟ قال: إني لست بمجنون!.**

فلاحظ كيف توقف رسول الله ﷺ على جلالة قدره وطاعة المسلمين وغيرهم له، عن مباشرة الفعل بنفسه لعلاج الموقف، واكتفى بتبليغ العلاج لمن معه من الصحابة، وتسرع أحدهم في إخبار الرجل الثائر النفس، بما قاله رسول الله ﷺ، فما كان منه إلّا أن ثار في وجهه ورده خائباً!

وهنا تظهر حكمة وحنكة رسول الله ﷺ، وخبرته الواسعة العميقة بالنفوس والأوضاع الإنسانية، وقدرته البارعة في تقدير الموقف وتوقع النتيجة قبل حدوثها.. وبساطة تفكير وتقدير غيره، وقلة خبرته بالنفوس والأوضاع البشرية، وأثر ذلك في سلبية النتيجة"[1].

---

(١) الطيب برغوث، القدوة الإسلامية.

وقد مرت معنا نماذج تطبيقية كثيرة، مثل موقف ابن سيدنا عمر بن عبد العزيز من والده لما تولى شؤون قيادة المسلمين ورد عمر عليه ذلك الرد الموضوعي الواقعي، الذي يدل على خبرة ودراية مكينة بحال الناس في زمنه.. وهو البعد الذي كان يجهله ولده الغر المتحمس التقي.

إن هذه النماذج العملية، كلها مؤشرات تدل على مدى أهمية الانفتاح الاجتماعي والممارسة الميدانية، في حياة المهتم بعملية التغيير والتجديد، الذي يتعلم من الحياة العملية أكثر مما يتعلم من الكتب وحفظ المتون والنظريات والأمثال والحكم.

وصدق رسول الله ﷺ الذي وجه أمته إلى ضرورة خوض غمار الحياة ومعاناة الخلق، واعتماد ذلك منهجاً للتربية والتكوين فقال: «**المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[1].

فمخالطة الناس والتفاعل مع مشاكلهم اليومية تفاعلاً واعياً مبصراً، هو الذي يجعل الداعي يحس بمعاناتهم،

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

ويقف على أسباب وعوامل بعدهم أو قربهم، وإقبالهم أو نفورهم من الإسلام ودعاته، فيسلك إلى توجيههم ومساعدتهم طريقاً وأسلوباً أكثر موضوعية وواقعية واتزاناً، تتكامل وتتعانق فيه مصالح مكونات وأبعاد «**الدورة الإنجازية**» للفعل الدعوي التجديدي.

أهمية إتقان فن الملاحظة

إن هدف كل داع مسلم هو تغيير واقع الأفراد والمجتمعات، وامتلاك القدرة على توجيه هذا التغيير توجيهاً إسلامياً، تتحقق به الأهداف الكبرى لهذا الدين في الأرض.

وهذا لا يتم له إلّا إذا فهم هذا الواقع فهماً دقيقاً، وتوافرت له باقي الشروط الموضوعية الأخرى، التي تمنحه القدرة على إنجاز التغيير المطلوب.

ولكي يفهم هذا الواقع فهماً موضوعياً سليماً، يجب عليه أن يدرسه جيداً، ويحاول التعرف على كل ماله صلة تأثيرية فيه أو تأثرية به، من غير تحيز أو تحكم أو تجزيئية له.

وحتى يدرس هذا الواقع، ويتعرف طبيعة تركيبه

وتفاعل مكوناته، لابد أن يجمع عليه معلومات ميدانية كافية، بوساطة وسائل جمع المعلومات الممكنة، مثل:

- الملاحظة.
- والاتصال.
- والمراسلات.
- والاستعانة بالدراسات السابقة.
- والاستعانة بذوي الخبرة العملية المتصلة بالظواهر موضع الاهتمام.
- وإتقان فن تحليل الوثائق والمعلومات والرموز والإشارات التواصلية وتفسيرها...

فتوافر المعلومات الكافية حول ظاهرة من الظواهر أو قضية من القضايا، هو المقدمة الضرورية في أي خطوة تغييرية يخطوها القائم بعملية التغيير، من دونها تكون جل محاولاته ضرباً من التخمين والرجم بالغيب.

ونظراً لأهمية الأدوات السابقة، في جمع هذه المعلومات،

سنحاول هنا إلفات النظر إلى أهمها، بالقدر الذي يسمح به حجم ومنهج هذه الرسالة، وفي مقدمة هذه الأدوات: إتقان فن الملاحظة باعتبارها الوسيلة التي نحاول بها التحقق من السلوك الظاهري للأشخاص، وذلك بمشاهدتهم وهم يعبرون عن أنفسهم في مختلف الظروف والمواقف، التي اختيرت لتمثل ظروف الحياة العادية، أو لتمثل مجموعة خاصة من العوامل[1].

فالداعي وهو أكثر الناس التصاقاً بالجماهير، في حاجة ماسة إلى إتقان فن الملاحظة وممارسته في الدعوة والتوجيه، خاصة بعد أن أصبحت هذه الملاحظة لها قواعدها وأصولها وطرقها ووسائلها وأساليبها الدقيقة، التي تكاد ترقى بها إلى مستوى العلوم ذات المناهج المستقرة.

إن إتقان فن الملاحظة واستعماله بشكل جيد في مجال العلاقات العامة والفردية، يعطي للداعي خبرة، ويكسبه فطنة، ويضع بين يديه فرصاً كثيرة للتكيف الفعال مع جميع الظروف والمواقف التي تواجهه في سياق عمله اليومي.

(١) عمر التومي الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي ٢٢٠.

وكل هذا يزيده قيمة وتقديراً في نفوس الناس، لأنه عودهم بتدخلاته المناسبة، ومواقفه المنصفة الحاسمة، المبنية على العلم والخبرة. بخلاف غيره ممن يبني مواقفه وتدخلاته على مجرد الاندفاع العاطفي والأحكام المسبقة، والملاحظات العابرة، والأخبار الواهية... فإنه عرضة للحرج المستمر، الذي يزعزع مكانته في نفوس الناس، ويؤدي به إلى الاضطراب النفسي والاجتماعي الخطير.

وسأكتفي هنا بذكر نموذج لتأكيد هذه الأمور، وإثارة الأذهان للاهتمام الجدي بها. وللقارئ الكريم أن يقيس عليه آلاف المواقف المشابهة التي كان لبعضها أثر إيجابي في سير العمل الدعوي التجديدي، ولبعضها الآخر أثر سلبي بالغ الخطورة على الدعوة والدعاة معاً.

النموذج التطبيقي: وملخصه أن كاتباً ومفكراً إسلامياً كبيراً، خرج على نفقة أحد المحسنين لقضاء شهر في إحدى الدول العربية، وفي نهاية رحلته قدمت له فاتورة النفقات ليوقع عليها، فلما أخذ يتفحصها لاحظ في إحدى زواياها

كلمة «بار»، فتوقف بعد أن همّ بالتوقيع، فلما لاحظ صاحب الفندق انتباهه إلى ذلك، بادره بالاعتذار! وراح يسترسل في تبرير الموقف بكل لباقة[1].

فلاحظْ وقدّر ما كان يمكن أن يلحق هذا المفكر ومايعمل له، من أضرار جسيمة، لولا فطنته ودقة ملاحظته.. عندما تصل هذه الفاتورة إلى هذا المحسن، ويعرف أن صاحبه قضى إجازته في البارات وملحقاتها؟!.

إن دقة الملاحظة وموضوعيتها وشموليتها أو جزئيتها في بعض الحالات، وسيلة فعالة في يد المسلم، ليتحرك التحرك المناسب والسليم، ليكسب المواقف ويعدل السلوكات، ويقوم الأعمال، ويوجه الأفكار ويهذبها... لايمكن أن يتهاون في إتقانها، لأن واجبات كثيرة قد يتوقف إنجازه والنجاح فيها عليها، وكما يقول الأصوليون فإن «مالا يتم الواجب إلّا به فهو واجب».

إنه من غير المقبول أن يصطنع القائم بعملية التجديد

(١) مالك بن نبي، الصراع الفكري..

ـ واعظاً كان أم مدرساً أم مربياً، أو مفتياً ـ الوقار فيطرق برأسه أو يغمض عينيه تخاشعاً، وهو يتحدث مع فرد أو جماعة أو جمهور، كما هو شأن بعض العاملين، لأن ذلك تكلف ممقوت يفوت عليه أموراً كثيرة لها تأثير مباشر في نجاح عملهم أو فشله.

بل عليه أن يكون حريصاً كل الحرص على تفحص وجوه الناس، والتفرس فيهم، ومراقبة نوعية استجابتهم ـ سلبية أم إيجابية ـ وكيفيتها، ليعرف مدى استجابتهم له وتفاعلهم معه أو انفعالهم منه(*)..

فعيون الناس، وأنوفهم، وجباههم، وأفواههم، وأيديهم، ومناكبهم... وسائر مكونات البيئة الخارجية المحيطة بهم، مرآة عاكسة يقرأ فيها الداعي الخبير، كثيراً من تفاصيل وإيحاءات المؤثرات السالبة والموجبة، الفاعلة في فكرهم وسلوكهم وعملهم ومواقفهم، وعلاقاتهم الأسرية والمهنية...

(*) لقد برع الغربيون في هذا المجال وأبدعوا فيه، بما يجرونه من دراسات ميدانية متخصصة لقياس درجة ونوعية وطريقة استجابة الرأي العام، ليعدلوا ويحسنوا في أساليب التعامل ووسائله.

يقول الأستاذ وايت: «إن حركات القسم العلوي من الوجه تشير إلى التعبير عن العواطف السلبية، بينما تشير حركات القسم السفلي من الوجه إلى العواطف الإيجابية»! وفي السياق نفسه يقول الأستاذ إيكمان: «إن حركات الوجه تشير إلى الخبرات المؤثرة، بينما تعطي حركات الجسم معلومات حول مستوى درجة التأثير»[1]!

وبغض النظر عن صدق وصحة ما يقرره هذان الأستاذان، فإننا نلاحظ مدى التقدم الذي أحرزه غير المسلمين في ميدان استكشاف خبايا وأغوار النفس البشرية، ليسهل عليهم أمر قيادتها وتوجيهها لخدمة مبادئهم، وتحقيق أهدافهم الاستكبارية. في حين اكتفى أكثرنا، بحفظ النصوص والمتون والدواوين، وحشو الأدمغة بالمعلومات، والقيام باستظهارها في المناسبات المختلفة، من غير التفات إلى ظروف الناس وحاجاتهم، وظروف الدعوة واحتياجاتها المرحلية!

وكل هذا أفقدنا الواقعية، وأثقل خطانا، وعزل الناس

---

(١) معن خليل عمر، الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي / ١٩٢.

عنا، وجعلنا نتورط في «متاهة التبرير»، وتعليق جل إخفاقاتنا على «مشجب الابتلاء»، مع أن الدراسة الموضوعية المعمقة ـ لو تمت ـ لثبت أن نسبة هامة من هذا الإخفاق لا يمكن تبريرها بالابتلاء، بل تبرر بعجزنا وعدم واقعيتنا في إدراك الأمور ومواجهتها.

قواعد هامة في فن الملاحظة

وفي ختام هذه الإثارة أشير إلى بعض القواعد المهمة المتعلقة بموضوع الملاحظة، تاركاً المجال للقراءات الخاصة في المراجع المتخصصة في هذا الميدان.

- **الانتباه وتركيز الاهتمام**: في أثناء القيام بالملاحظة، أمران ضروريان لا ينبغي أن يغفل عنهما الداعي.
- **الاهتمام والحرص**: لأنه من دون اهتمام تقل درجة التأهب والانتباه، وتضعف احتمالات متابعة الموقف، مما يفوت على الداعي عناصر قد يكون لها دور كبير في بلورة وتوجيه مواقف وسلوكات الشخص أو الظاهرة موضوع الاهتمام.
- **الحذر من طغيان الذاتية**: ومحاولة حصر الاهتمام في معرفة

ماله صلة بمجال تخصص الداعي، أو ما يقع في دائرة اهتمامه فقط، والغفلة عن باقي الجوانب السلوكية الأخرى.

- مراقبة النفس: في الملاحظة بالمشاركة ينبغي للداعي أن يراقب نفسه حتى لا يصدر منه قول أو فعل أو سلوك مستغرب، يؤثر في سير عملية الملاحظة، بل عليه أن يصبر ويداوم ضبط نفسه وفق مقتضيات الموقف، حتى يستكمل جمع الضروري من المعلومات حول الظاهرة[1].

- الحذر من الاندماج الكلي في الظاهرة: من خلال إقامة صداقة حميمة مع الملاحَظين، لأن ذلك يؤثر في تحليل وتفسير المعلومات. والعكس كذلك، حيث يجب على الداعي ألا يتخذ موقفاً اشمئزازياً أو عدائياً من غيره، لأن ذلك يؤثر في تحليل وتفسير المعلومات ضد الحقيقة التي يبحث عنها، والغايات التي يرمي إلى تحقيقها.

(١) راجع رسالتنا: «القدوة الإسلامية» ففيها تفاصيل هامة في هذا المجال.

أهمية إتقان فنون الاتصال الجماهيري

إن المسلم الذي وعى ذاته ودوره ورسالته، يدفعه وعيه هذا إلى الحركة الهادفة الموزونة نحو العالم الخارجي، ليقوم بدوره كخلية حية في نسيج البناء الاجتماعي، ويؤدي رسالته للناس، ويحقق شهادته عليهم.

ومن غير الممكن أن تعثر على مسلم وعى ذاته ودوره ورسالته، ثم انعزل عن الناس وعزف عن المشاركة في صنع وصياغة وتوجيه حركة الأحداث في الوسط الذي يعيش فيه، لأن هذا يتناقض مع حقيقة هذا الدين، ويتنافى مع نموذج الإنسان الذي يربّيه ويبنيه ويقدمه للبشرية.

فالمسلم قوة فاعلة متحركة ومحركة، لا تعرف السكون والاستقرار، فهو كما ينشده الإسلام: «كالغيث أينما وقع نفع»، خاصة في الظروف الصعبة التي يشعر فيها بالتحدي لإرادته ووجوده، كحاله في العصور المتأخرة، فإنه يطوي فراشه ويودع الراحة، ويقطع نفسه عن الاسترسال في الكماليات، ثم ينطلق ليؤدي دوره ويقوم برسالته في الحياة:

- التزاماً ذاتياً كاملاً بالإسلام.
- ودعوة فعالة إليه، وتجسيداً حياً لنموذجه الاجتماعي في الحياة.
- وثباتاً في الدفاع عنه، وحماية لمكاسبه ومنجزاته.

ورائده في كل خطوة يخطوها من أجل ذلك:

- خلوص النية، وصدق التوجه إلى الله تعالى.
- وصواب العمل، وأصالته وفعاليته واطراده.

هذا هو المطلوب الشرعي من المسلم، أما ما نراه في سواد الأمة من تسيب وغفلة وتشتت، وبرودة وفتور عن أخذ الكتاب بقوة، فهو من الأمراض المستجدة في المسلمين، والتي حذر منها الإسلام، وقاومها الرساليون على مر التاريخ.

كما لاحظ ذلك ابن القيم، داعياً إلى ضرورة تحقيق الاتصال الفعال بالآخرين، ومبيناً مكانة وفضل القائم بذلك عند الله تعالى:

- الشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته، وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم

والصدقة والتطوع.

- والعالم الذي قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر، مخالطته للناس، وتعليمهم ونصحهم في دينهم، أفضل من اعتزاله، وتفريغ وقته للصلاة، وقراءة القرآن والتسبيح"[1].

أما ابن الجوزي فيذهب في الاشتداد على المتزهدين المنقطعين عن الناس، المتمحورين حول ذواتهم وهمومهم الخاصة، المتفرغين لتفتيش وقمع نفوسهم إلى أبعد مدى، فيقول:

- الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعة، وإتباع جنازة، وعيادة مريض، إلّا أنها حالة الجبناء.
- أما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام"[2].

وينظر الإمام الغزالي نظرة شرعية تأصيلية في عزوف

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ٩٣.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر ٢٢٤ طبعة الغزالي .

بعض المسلمين عن الاهتمام بشؤون المجتمع، وتهاونهم في القيام بأمر الدعوة إلى الله، ويقرر أن: «كل قاعد في بيته أينما كان، فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم، وحملهم على المعروف... »[1].

فالمسلم مطالب شرعاً، بالسعي إلى تحقيق التواصل الإيجابي مع المجتمع بكل فئاته وشرائحه، ليبلغ لها ما يعوزها من جوانب الهداية الإسلامية، أسوة برسول الله ﷺ وورثته من العلماء، الذين كان الواحد منهم «إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد، أو قيام بحق، أو إتباع للأمر، سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله»[2].

أهمية إتقان فنون المقابلة وقراءة الرموز والإشارات

ولكي يكون حضور العاملين، حضوراً إيجابياً مـؤثراً في أية بيئة يحلون بها ويتحركون فيها، لابد أن يتقنوا بالإضافة إلى فن الملاحظة فن المقابلة وقراءة الرموز والإشارات، الذي يعد

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٤٢.

(٢) الراشد، المنطلق ١٢٦.

من أحسن وأهم أساليب الاتصال بالجمهور، ومعرفته ودراسته وتوجيهه، وتفجير طاقاته في سبيل الله تعالى.

ولكي ندرك أهمية هذه الوسيلة في سير أعمال الدعوة والتوجيه، يجب أن نتذكر أن استفادة العامل في سبيل الله من فن الملاحظة يتوقف عند حدود ملاحظة الظواهر من الناحية الخارجية ووصفها وصفاً ظاهرياً:

- متى حدثت؟
- وكيف حدثت؟
- ومن أحدثها؟

أما البعد الآخر الهام في فهم وتفسير الظاهرة، ومحاولة التحكم فيها عن طريق التنبؤ والتوقع، هو:

- لماذا حدثت هذه الظاهرة في هذا الزمان، وفي هذا المكان بالذات؟
- ولماذا حدثت بهذه الكيفية دون غيرها؟
- وما حقيقة محدثها؟ من حيث اعتقاداته وثقافته وأوضاعه الاجتماعية، وانتماءاته الفكرية والسياسية والعرقية...

وظروفه الصحية؟...

فكل هذه الجوانب الهامة لا تسعفنا الملاحظة، مهما كانت دقيقة وشاملة في معرفتها، إذا لم نلجأ إلى الاستعانة بفن المقابلة، وهي الاتصال المباشر بالظاهرة، ومحاورة أطرافها، وتقصي أسبابها وبواعثها؛ في أغوار النفس وأعماق المجتمع.

فالداعي، وهو يوسع دائرة اتصاله بالمجتمع، ويعمق صلاته بشرائحه المختلفة، يلاحظ ظواهر كثيرة، تطرح عليه تساؤلات مثيرة، لا تقدم لها الملاحظة أجوبة مقنعة.

- فهو يلاحظ مثلاً أصنافاً من المسلمين، ضعفت حماستهم للعمل في سبيل الله، مع أن حسهم الإسلامي متيقظ، والتزامهم بالشعائر التعبدية ظاهر ونام. فتراهم يداومون على الصلاة والأذكار والنفقة وصيام التطوع وحب المساكين.. فيتساءل عن الأسباب التي جعلت الحس الفردي ينمو على حساب الحس الجماعي عند هؤلاء؟ فلا تقدم له الملاحظة جواباً مقنعاً.

- كما يلاحظ أصنافاً أخرى من المسلمين، نما عندهم

شعور التحسس بعضهم من بعض، حتى غدا عقدة نفسية ظاهرة، فيتساءل عن سبب ذلك فلا يجده في المعطيات التي تقدمها له الملاحظة.

- ويلاحظ أيضاً ظواهر أخرى كثيرة في محيط العاملين أنفسهم، مثل الاعتداد بالرأي، وحب الظهور، والانتقاص من الآخرين، والنظرة السوداوية المتشائمة لمستقبل الأمة، والجرأة على القول في الدين دون حذر، والتطاول على العلماء والعاملين الصادقين..! فيتساءل عن الأسباب والبواعث الكامنة وراء هذه الظواهر الشاذة، فلا تعطيه الملاحظة جواباً كافياً.

- ويلاحظ فئات أخرى، قائمة بأعمال دعوية تجديدية عظيمة، فيها إحياء للنفوس وتنوير للعقول، وشحذ للهمم... ولكنها سرعان ما تذبل وتتوقف، وفي بعض الأحيان تنعطف نحو منعطفات لا تنسجم مع خط الدعوة إلى الله تعالى، فيتساءل عن سر ذلك فلا يعثر عليه في الملاحظة.

- وظواهر أخرى كثيرة، يلاحظها العامل، في محيط الأسرة، ومحيط المسجد، ومحيط المدرسة، ومحيط العمل... ولا يستطيع المساهمة في تقديم العلاج الإسلامي المطلوب لها، لأنه لا يعرف أسبابها وبواعثها، والملابسات المحيطة بها.

- وقد يحدث أن يقدِم البعض ممن لا خبرة له بهذه الأمور على إعطاء تفسير لبعض هذه الظواهر، وتقديم حلول لها، واتخاذ مواقف منها، ثم يتبين له بعد حين أنه كان متعجلاً، وأن عمله أحدث آثاراً معاكسة لما كان يتوخاه ويرجوه، والأمثلة في هذا المجال لا حصر لها[1]، أكتفي منها بالتذكير:

- بحادثة الإفك، وكيف خاض فيها قوم بغير علم، فآذوا أنفسهم، وأذوا غيرهم من البرآء، وآذوا الدعوة..[2].

- وحادثة حاطب بن أبي بلتعة، الذي اتهمه عمر بالنفاق، فنفاه عنه رسول الله ﷺ بقوله: «.. إنه قد شهد بدراً،

(١) للمزيد من التفاصيل راجع رسالتي: «القدوة الإسلامية..» و «الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية».

(٢) البخاري في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً.

وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم[1].

- وحادثة الراعي الذي قتله أسامة بن زيد مع أنه نطق بالشهادتين[2]، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء ٤/ ٩٤].

- وحادثة الوليد بن عقبة بن أبي معيط عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكاة أموالهم، فتلقوه بالترحيب، فظن بهم سوءاً، وعاد خائفاً إلى المدينة، فبعث ﷺ خالد بن الوليد في سرية من الصحابة فوجد

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٣٩٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣١٣.

أن الأمر خلاف ما أُخبر به رسول الله ﷺ"[1]، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ٦].

فهذه المواقف والتفسيرات كلها كانت مبنية على مجرد الملاحظة الخارجية، ولم تكن مؤسسة على علم دقيق بمعطيات هذه الظواهر، مما جعلها تجانب الصواب، وتثير مشكلات جديدة بدل أن تحل المشكلات القديمة أو الأصلية.

وعلى هذا الأساس فإن القائم بعملية التغيير مُطالب شرعاً، بإتقان فن الاتصال بالجمهور، ومنه فن المقابلة، الذي يستثير به معلومات أو تعبيرات أو آراء أو معتقدات شخص آخر، أو أشخاص آخرين، من أجل سبر أغوار حياتهم"[2]، والوقوف على عوامل الضعف والقوة فيها، حتى يسهل عليه التعامل معهم والتأثير فيهم، بتوجيه تفكيرهم وسلوكهم

(١) ابن القيم، التفسير القيم ٤٤٠.

(٢) الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي ٢٩٦.

وأعمالهم ومواقفهم.. في الاتجاه الذي يخدم الدعوة إلى استئناف الحياة الإسلامية، ويعينهم على الخروج من حياة العزلة واللامبالاة والتناقض والاضطراب..

وبالإضافة إلى هذه المعلومات التي يحصل عليها الداعي حول الناس وأوضاعهم النفسية و الاجتماعية، ومواقفهم الفكرية والسياسية.. وهي تدخل كلها في دائرة معرفة العامل في سبيل الله للمجتمع، والقوى المؤثرة فيه، ليكون حكمه عليه واقعياً وموضوعياً، وتعامله معه واعياً وهادفاً ومؤثراً.

بالإضافة إلى هذا الجانب، فإن الداعي يحقق بهذا الاتصال المباشر بالناس هدفاً آخر ذا أهمية كبرى في السير الآني والمستقبلي للعمل في سبيل الله، ألّا وهو تقديم نفسه للمجتمع، وعرض فكرته ومشروعه الحضاري عليه، وهذا من شأنه ـ في حالة نجاح الداعي في مهمته ـ أن يصحح النظرة المشوهة التي تكونت عند فئات كثيرة في المجتمع، حول الإسلام ودعاته الصادقين الراشدين، لظروف وملابسات ليس هذا مجال بحثها.

فالعمل الإسلامي في حاجة مستمرة إلى «القدوة الإسلامية» المتكاملة، التي تعرض الإسلام وبدائله الحضارية، عرضاً تطبيقياً حياً مؤثراً، يجذب اهتمام الناس ويدفعهم إلى التفاعل الإيجابي معه.

وهذه القدوة الإسلامية يجب أن تظهر أكثر ما تظهر، في حالات الاتصال بالناس ومحاولة التفاعل معهم، لمعرفتهم وفهمهم ومساعدتهم وتوجيههم... فهناك يمتحنُ المجتمعُ إيمانَ وعلم وفهم وإرادة وصدق ومقدرة... الداعي إلى الله تعالى، ثم يتخذ منه موقفه الموالي أو المعادي أو المحايد.

والداعي لكي يفتح هذا المجتمع ويحرر ولاءه لله ورسوله والمؤمنين، عليه أن يكون شامة في أعين الناس:

- في صدق توجهه لله تعالى.
- وفي حماسة قلبه وتعلقه بالغاية.
- وفي شمولية فهمه ودقته وسلامته.
- وفي سلامة عمله وفعاليته.
- وفي قوة شخصيته وجاذبيتها.

نحو اتصال فعال بالمجتمع:

ومما يجب على الداعي إلى الله تعالى التنبه له ومراعاته جيداً، وهو يحاور الناس ويجلس أو يسير معهم.. ما يلي:

- شروط تخص الداعي.
- وشروط تخص المدعو.
- وشروط تخص جو أو موقف الاتصال.

ولما كان غرضي من بحث هذه الموضوعات؛ **الملاحظة، والمقابلة، وتحليل المعلومات وتفسيرها**، هو مجرد إلفات الانتباه إليها، والتحريض على الاهتمام الجدي بها، لعلاقتها المباشرة بالواقعية في العمل الدعوي التجديدي، وليس هو الاستفاضة في بحثها وعرض شروطها ومستلزماتها... فإني سأكتفي بهذه الإشارات المركزة، محيلاً القارئ الكريم إلى المصادر والمراجع التي يوسع فيها معلوماته عن هذه الموضوعات الحيوية.

شروط تخص الداعي:

- بعضها يتعلق بمظهره الخارجي: كاللباس، والحركات،

وتعبيرات الوجه..

- وبعضها الآخر يتعلق بكلامه: متى يتكلم؟ وكيف يتكلم؟ وعلى أي شيء يركز؟ ولماذا يركز على ذلك؟
- وبعضها يتعلق بموقفه وسلوكه عندما يكون المدعو يتكلم: كيف يصغي إليه؟ وكيف يجيب عن أسئلته المحرجة؟ وكيف يعيده إلى صلب الموضوع عند شروده..؟ وكيف يكتشف ويركز على الكلمات أو الأفكار المفتاحية في الحديث؟
- وبعضها يتعلق بثقافته وتكوينه العلمي الواسع: الذي يؤهله لفهم النفس البشرية، ومعرفة عوامل وأسباب قيام وتماسك المجتمعات، وعوامل وأسباب تفككها وزوالها...

إلى غير ذلك من الشروط التي يجب على العامل، أن يحرص أشد الحرص على معرفتها والالتزام العملي بها"[1].

(١) للمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف: «القدوة الإسلامية..».

شروط تخص المدعو:

وهو أصناف ومستويات شتى[1]:

- الفقير والغني.
- المريض والصحيح.
- الكبير والصغير.
- الرجل والمرأة.
- الطيب الجاهل.
- والجاهل المغرور.
- والمتعلم الطيب.
- والمتعلم المغرور.
- والمنافق الإمعة.
- والمنحرف فكراً واعتقاداً وسلوكاً.
- والمنحرف فكراً واعتقاداً لا سلوكاً.
- والمنحرف سلوكاً لا فكراً واعتقاداً...

وفي كل صنف من هذه الأصناف، يوجد المهمومون

(١) زيدان، أصول الدعوة ٣٥٨.

والمكروبون والمبتهجون...

فكل فرد من جمهور الدعوة عالم قائم بذاته، له ثقافته ومزاجه، ومشكلاته، وطموحاته، ومشاريعه التي تحكم وتوجه، تفكيره وسلوكه ومواقفه في غالب الأحيان.

وهو ما يجب على الداعي الاستعداد لمواجهته، واستيعابه وتوجيهه بكل حذر واحتياط، لأن أي هفوة ستؤثر في سير عملية التفاعل، والتدرج بها نحو الاندماج التدريجي في نسيج الدعوة الجديد.

فالمدعو ينطلق ليعبر عن همومه ومواقفه ومشاعره، كما يصغي للداعي ويهتم بآرائه.. إذا استأنس به واطمأنت نفسه إليه. لذا فعلى الداعي أن يحرص دائماً على بناء علاقات ودية طيبة بينه وبين من يتصل بهم في لقاءات عابرة، أو متكررة أو دائمة.. وذلك من خلال إظهار الاهتمام بكلام ومشكلات المدعو، والتواضع له، واللطافة معه، وحسن إكرامه، والحذر من الاستخفاف بآرائه، واللطف في معارضته، والعمل على مساعدته في حل مشاكله... إلى غير ذلك من الأمور التي يجب

ألا تغيب عن الداعي وهو يقوم بعملية الاتصال، لدراسة واستكشاف وسبر مواقف وأحوال الناس.

شروط تخص جو أو موقف الاتصال:

ويتكون موقف أو جو الاتصال من ثلاثة عناصر أساسية هي:

وقت المقابلة: فلا ينبغي أن تكون في وقت محرج بالنسبة إلى المدعو والداعي على حد سواء، كوقت نومه ليلاً أو عند الظهيرة، ووقت تناول غدائه أو عشائه، ووقت عمله الخاص أو الرسمي.. كما لا يجب أن تطول أكثر من اللازم.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ [النور ٢٤/ ٥٦].

ومكان المقابلة: فلا ينبغي أن تكون في أماكن مشبوهة أو محظورة، أو كثيرة الهرج والضوضاء، أو محرجة للأهالي بسبب الضيق وكثرة الأولاد أو الضيوف، أو محرجة للداعي

أو المدعو لظروف عملهما الرسمي. كأن يكون أحدهما أو كلاهما أستاذاً أو إدارياً أو عاملاً في شركة أو متجر مكتظ بالزبائن... فهذه الأماكن كلها لا تصلح في الغالب لإجراء اتصال فعال، الأمر الذي يجعل الداعي يفكر في الأمر جيداً، ويأخذ له أهبته اللازمة.

حال المقابلة: ويقصد به الظرف والوضع الذي يكون فيه كل من الداعي أو المدعو، إذ إنّ هناك حالات كثيرة يستحسن أن يتجنب فيها الداعي قبول أو طلب مقابلة غيره، لما فيها من المحاذير التي تؤثر سلبياً على سير الاتصال، ومنها على سبيل المثال:

- سوء الأحوال الصحية.
- سوء الأحوال الجوية.
- عدم الشعور بالراحة والأمن بسبب سوء أو توتر الأحوال الأمنية في المجتمع.
- حالة الجوع أو العطش الشديدين.

- حالة مدافعة الأخبثين.
- حالة التأهب للسفر.
- انشغال الذهن وانغماسه في تنظيم وتدبير فرح أو ترح...

فهذه الحالات كلها، لا تسمح بإجراء اتصال مثمر، على الداعي أن يكتفي فيها بأمور اللياقة العامة، من إلقاء سلام ومصافحة وإبداء اهتمام وضرب موعد وتبليغ تحية... ثم الانصراف لشؤونه الأخرى.

إن مراعاة الداعي لكل هذه المعطيات، وحرصه على تحقيق هذه الشروط، سيساعده كثيراً على الاقتراب من معرفة واقع الناس، واكتشاف أسباب وعوامل استقامتهم أو انحرافهم، الأمر الذي يوفر له القدرة على التحكم في كثير من مواقفهم وسلوكاتهم وأعمالهم، ويمكنه من توجيهها أو الحد من آثارها السلبية على الأقل، فلا تؤثر تأثيراً مضراً على سير العمل الدعوي التجديدي.

أهمية إتقان فنون تحليل المعلومات وتفسيرها

إن كلّاً من الملاحظة والمقابلة تساعدان القائم بعملية التغيير، في معرفة الواقع الذي يريد التعامل معه، تغييراً أو تبريراً، سواء كان هذا الواقع ظاهرة فكرية أو سلوكية، أو اجتماعية أو سياسية.. وتقدمان له بعض الأجوبة الهامة التي تسعفه في تقديم حلول أولية للمشكلات التي يواجهها في عمله الدعوي.

غير أن هناك تساؤلات أخرى تبقى من دون جواب، لقصور كل من فني الملاحظة والمقابلة عن تقديم هذا الجواب لها، الأمر الذي يستوجب على الداعي تعميق تحليله وتفسيره لهذه المعلومات التي تجمعت لديه، ليصل إلى هدفه.

ومن هذا كان التدريب على فن تحليل المعلومات وتفسيرها أمراً ضرورياً بالنسبة إلى العامل في سبيل الله تعالى، خاصة في عالمنا المعاصر وفي ظروفنا الراهنة، التي تطورت فيها وسائل الاتصال وأساليب التأثير والدعاية تطوراً مذهلاً، جعل الدس والمكر والخداع والمراوغة

وتزوير الحقائق.. من أيسر الأمور وأبسطها!

إن الفكر السطحي التبسيطي الذي يكتفي بالمشاهدة والرواية والحفظ والتسميع والإتباع الحرفي.. ويدعو إلى ذلك، ويزهد في كل محاولة للتحليل والتعمق، والموازنة والمعايرة، والاستقراء والتفسير، والتوقع والاستنباط، ويشنع بها،[1] فكر ضرره أكثر من نفعه، لأنه يعود العقول الكسل والخمول، ويبث في النفس روح التواكل وانتظار الحلول الجاهزة، ويقضي على روح الإبداع وحب المبادرة والمنافسة في الخيرات، الذي يمثل بعداً أساسياً من أبعاد الشخصية الإسلامية النموذجية.

إن مراحل وفترات الرتابة والوتيرية الفكرية البليدة، وبساطة الحياة، وسهولة مأخذها، أخذت تترك مكانها للون جديد من التفكير، وأسلوب جديد من العمل، يتسم بالتعقيد والصعوبة والتشابك والفوضى والاضطراب والصراع.. لا تقوى عليه الوسائل والأساليب التقليدية القديمة وحدها، بل يحتاج إلى

(١) قضايا العقيدة وما ورد على سبيل التعبد والتعيين لا يحتاج إلى تأويل أو فلسفة، إلّا من حيث بيان الحكمة وأسرار التشريع.

وسائل وأساليب إضافية جديدة، تعزز الجبهة، وتمكنها من مواجهة التحدي بمثله، أو بأقوى وأشد منه كلما أمكن ذلك وتيسر.

ويحتل كل من فن التحليل والتفسير والتوقع في هذا اللون الجديد من التفكير، وهذا الأسلوب الجديد من العمل، مكانة محورية تدور عليها كثير من النجاحات أو الإخفاقات.

وفي سياق الدعوة إلى الاهتمام بهذا اللون الجديد من التفكير، وهذا الأسلوب الجديد من العمل، أحدد باختصار مضامين هذه الأدوات المنهجية الثلاث:

فن التحليل: وهو الأسلوب الذي يهتم بتحليل وتفكيك الكتل أو المركبات المعلوماتية والظاهراتية إلى عناصرها الأولية، بواسطة الفرز، والتنظيم، والترتيب، والتصنيف.. الذي يساعد القائم بعملية التغيير، على إدراك العلاقات والارتباطات، والتفاعل أو التنافر بين مختلف العناصر المعلوماتية المكونة للظواهر النفسية والسلوكية و الاجتماعية.. موضوع الاهتمام والدراسة، من خلال تأمله العميق في هذه المعلومات المرتبة والمصنفة في مجموعات فرعية حسب المكان

أو الزمان، أو العلاقات بينها، أو نماذج السلوك[1].. والمقارنة بينها، والبحث عن المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة فيها، والآليات التي تتم عبرها عمليات التفاعل والاقتران.

فوظيفة فن أو آلية التحليل إذن هي:

- البحث عن العناصر الفاعلة والمنفعلة أو المؤثرة والمتأثرة في الظواهر.
- وطريقة أو كيفية هذا التفاعل.
- وطبيعته ومداه، وأثره في النفس والمجتمع.

وأورد هنا على سبيل المثال نموذجاً لطريقة من طرق التحليل في مجال المكتوبات، والتي يمكن تعميمها على مجال الكلمة بصفة عامة، مكتوبة أو مقروءة أو منطوقة، والتي وضعها «شابين» لتحليل ونقد كافة المصادر والوثائق.

وسأقتصر على إثبات ما يخص النقد الداخلي للمقروء أو الملفوظ عامة، مع تصرف خفيف:

---

(١) محمد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع ١٢٧.

- ما الذي يعنيه الكاتب ـ المتكلم عامة ـ بعبارة معينة بالذات؟ وما معناها الحقيقي المتميز عن المعنى اللفظي لها؟
- هل صدرت العبارة ـ أو الكلمة ـ عن عقيدة صادقة؟
- هل يهتم الكاتب ـ أو المتكلم ـ بخداع القارئ ـ أو السامع عامة ـ؟
- هل كان يقع تحت ضغط التزييف؟
- هل كان متأثراً باتجاه معين، أو متعاطفاً مع تيار فكري أو حركة سياسية؟
- هل وقع الكاتب ـ أو المتكلم ـ تحت تأثير الغرور؟
- هل تأثر بالرأي العام؟
- هل توجد شواهد تشير إلى دوافع أدبية حفزته إلى تزييف الحقيقة؟
- هل العبارات صحيحة؟
- هل كان الكاتب ملاحظاً محدود القدرات، نتيجة لضعف إمكانياته الفكرية؟
- هل الكاتب ـ أو المتكلم ـ لم يستطع أن يختار الوقت

والمكان المناسبين للملاحظة؟

- هل كان غير مكترث تماماً بالأحداث؟
- هل الحقائق التي يتناولها ـ أو يتحدث عنها ـ من طبيعة يصعب ملاحظتها؟

- هل المؤلف ـ أو المتكلم ـ مجرد مشاهد أو أنه ملاحظ مدرب[1].

فعندما ندرك كل هذه القضايا، ونوفق إلى التزامها العملي في تعاطينا مع المعلومات المقروءة أو المسموعة، نكون قد قمنا بإنجاز جيد لعملية التحليل، التي ستمكننا بعد ذلك من التفسير الموضوعي الصادق لهذه الظواهر، وامتلاك القدرة على التحكم فيها، وتوجيهها قدر الاستطاعة.

فن التفسير: هو محاولة كشف الأسباب والبواعث الحقيقية التي كانت وراء تحريك الأحداث، والتفاعل معها

(١) محمد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع ٨٤.

سلباً وإيجاباً.

فنحن عندما ندرس مثلاً، تاريخ الدعوة الإسلامية، ونتأمل في سرعة انتشارها بين الشعوب، ثم نحاول إعطاء تبرير لهذه السرعة، وتعليل لقبول الناس لها، وإقبالهم عليها، وتجاوبهم معها، نكون قد أعطينا تفسيراً لهذه الظاهرة، قد يكون مقبولاً وقد يكون غير مقبول.

وعندما ندرس سير وتطور الصحوة الإسلامية المعاصرة، ونتأمل كذلك في سرعة انتشارها، وإقبال الناس عليها، وتجاوبهم معها، ثم نحاول كشف البواعث والأسباب العميقة الحقيقية التي كانت وراء ذلك، نكون قد أعطينا تفسيراً لهذه الظاهرة.

فالتفسير إذن لا يهتم فقط بمحاولة كشف:

- كيفية تحرك الأحداث وتفاعل الظواهر أو طريقتها.
- أو العناصر المحركة لها.
- أو آثارها في النفس وفي المجتمع.

بل يهتم بالإضافة إلى ذلك، بالكشف عن العلل الأولى

والبواعث العميقة، التي تمحورت حولها الأحداث، وتمت بطريقة معينة، وأثرت في كيفية معينة كشفت عنها مرحلة التحليل.

فالتفسير هو نهاية أو غاية مرحلة التحليل، وهدفه باستمرار هو الوصول إلى القوانين والسنن الفاعلة في النفس والمجتمع، وهو ما تنبني وترتكز عليه المراحل التالية في «**الدورة الإنجازية**» للفعل التغييري أو التجديدي. ولذلك فإن أي خطأ أو قصور فيه، سينعكس بقوة على أصالة وفعالية واطرادية دورة الفعل.

- **فن التوقع**: وهو نتيجة منطقية للتحليل الموضوعي الصادق، والتفسير الصحيح لحركة الأحداث وتفاعل الظواهر.

فالداعي عندما يوفق إلى التحليل الجيد للظواهر، ويتمكن من التفسير الموضوعي لها، يستطيع أن يتوقع وأن يتنبأ بحدوث أو ظهور ظواهر مماثلة لها، يتهيأ لها للاستفادة منها إن كانت إيجابية ومتسقة مع أهداف وقيم وآداب وأخلاقيات الإسلام، أو لمواجهتها والتقليل من آثارها السلبية، إن كانت لا تنسجم مع بعض أو جل أو كل

المفاهيم والقيم والأخلاقيات الإسلامية.

وكما هو معلوم، فإن نجاح أو فشل أي عامل في عمله ـ خاصة من كان في مركز حساس، كالداعي إلى الله تعالى ـ متوقف إلى حد بعيد على مدى صدق حدسه وحسن تنبؤاته أو توقعاته، وعمق النظرة التي يلقيها نحو المستقبل.. فيتوقع ما ينجم عن قراراته في المستقبل القريب والبعيد، وما سيصادفه من متاعب وعقبات في مختلف الظروف المحتملة[1].

هذه إذن جملة من الآفاق المعرفية المتكاملة، التي إذا ما تم الحرص عليها في المنظومة التكوينية لأجيال الدعوة، فإنها تمنح المسلم تكويناً معرفياً متكاملاً، يبني لديه الحس الواقعي المنضبط، الذي يقيه من المثالية السلبية المُشِلّة أو المعطلة، والواقعية الانهزامية المتسيبة، التي تسلب المسلم إرادة التغيير، وتعبّده للواقع المتخلف عن الإسلام والعصر.

(١) كورتوا، لمحات في فن القيادة ٩٣.

الفصل الثاني

من وحي الخبرة المعرفية والحركية

تمهيد

في ختام هذه الرسالة أضع بين يدي القارئ الكريم ثلاثة نماذج من الموضوعات الجيدة ذات الصلة الوثيقة بموضوع الواقعية في الدعوة والتغيير، يعتبر كل منها خلاصة مكثفة لتجربة حية، مليئة بالنصائح والتوجيهات العلمية والعملية القيمة، التي يجد فيها كل من يتصدى لعملية الدعوة والبناء والمواجهة في بيئته ومجتمعه.. كل ما يوفر له الوقت والجهد، ويجنبه بعض المزا لق الخطيرة التي قد يقع فيها، بسبب حداثة تجربته ونقص خبرته بالحياة والأحياء.

وعلى الرغم مما قد يؤخذ أو يلحظ على كل تجربة من

هذه التجارب من مآخذ وملحوظات، بسبب اختلاف الزمان والمكان، وتباين مجالات الاهتمام أحياناً، أو بسبب اختلاف وتباين المرجعيات الثقافية أحياناً أخرى، فإنها لا تخلو من فوائد جمة بالنسبة إلينا، لاستنادها إلى حقائق شرعية ونفسية واجتماعية وتجريبية.. أفادتها من الشرع والتاريخ والواقع الإنساني المعيش.

لذلك فإننا سنتأمل هذه الخبرات، وخاصة الذاتية منها، في إطار قاعدة: «**كل يؤخذ من كلامه ويرد إلّا المعصوم**» ﷺ، وقاعدة: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر ٥٩/ ١٠].

كما نتأمل الخبرة الثالثة في إطار قاعدة: «**الحكمة أو الحقيقة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها**» بغض النظر عن موقفنا العقدي أو الفكري أو السياسي.. من طبيعة مصدرها، لأن المعرفة أو الخبرة ذات النفس أو الأفق السنني الثابت، هي وضع إلهي بالأساس، ودور البشر يقتصر على اكتشاف هذه السنن،

واستثمارها في عمليات التحليل والتفسير والتوجيه أو التأطير التسخيري للظاهر والوقائع والأحداث.

ومحاولة التوسع في التفرقة بين المعارف والخبرات ذات الطابع السنني العام، أو النفس السنني القابل للتعميم، والتوقف بشأنها، أو الزهد فيها، بحجة موقفنا العقدي والفكري.. من مصدرها، تمحل لا مبرر له، قد يرتقي إلى ردٍّ أحكام الله ومضادة سننه في خلقه؛ لأن سنن الله سواء كانت سنن آفاق، أو سنن أنفس، أو سنن هداية، أو سنن تأييد، يجب احترامها، والحذر من مناقضتها، فهي في الحجية والاعتبار سواء!

وقد فضلت أن يكون النموذج الأول متصلاً بخبرتنا الإسلامية التراثية المعرفية الناضجة، والنموذج الثاني من خبرتنا الدعوية الذاتية الناضجة كذلك، والنموذج الثالث متصلاً بالخبرة الإنسانية العامة، لما في ذلك من تكامل خصب، وإثراء لخبرتنا وتجديد لها.

نموذج من خبرتنا المعرفية الذاتية المؤصلة

ونقتبسه من خبرة شيخ الإسلام ابن تيمية[1]، الذي اجتمعت فيه صفات العالم العامل، فكان لبعض ما كتب قيمته المعرفية والحركية المتميزة، التي تعلمنا أهمية المنهج والوعي المنهجي في شمولية وعمق القراءة المتكاملة لسنن الله في الآفاق، وسننه في الأنفس، وسننه في الهداية، وسننه في التأييد، وتحررنا من القراءة الوتيرية الآلية، وتمنحنا وعياً معرفياً وحركياً يتميز بالأصالة والواقعية والفعالية والقابلية للاطراد.

ونشير هنا إلى أن كل العناوين الفرعية هي من وضعنا نحن، كما أن تخريج الآيات والأحاديث، ومختلف الإحالات.. هي من عملنا كذلك. فمعذرة لمن قد يخالفنا الرأي في بعض هذه العناوين! فما أردنا منها إلّا لفت الانتباه إلى ما في هذه الرسالة الصغيرة، من كثافة فكرية وعلمية كبيرة، تحتاج إلى شرح مطول!

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٢٠ / ٤٩ وما بعدها.

مدخل إلى مشكلة تعارض الحسنات والسيئات

فصل جامع في تعارض الحسنات أو السيئات أو هما جميعاً، إذا اجتمعا ولم يمكن التفريق بينهما، بل الممكن إما فعلهما جميعاً وإما تركهما. وقد كتبت ما يشبه هذا في قاعدة الإمارة والخلافة[1]، وفي أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين، وتحصيل أعظم المفسدتين باحتمال أدناها.

المقاصد العامة للشريعة: فنقول قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة، وإن كان الواجب مستحباً وزيادة، ونهى عن أفعال محرمة أو مكروهة، والدين هو طاعته وطاعة رسوله. وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق، وكذلك حمد أفعالاً هي الحسنات، ووعد عليها وذم أفعالاً هي السيئات و أوعد عليها.

دور القدرة والاستطاعة في التكليف: وقيد الأمور

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٨.

بالقدرة والاستطاعة والوسع والطاقة، فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة٢/ ٢٨٦] . وقال تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق٦٥/ ٧].

وكل من الآيتين وإن كانت عامة فسبب الأولى المحاسبة على ما في النفوس وهو جنس أعمال القلوب، وسبب الثانية الإعطاء الواجب. وقال: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء٤/ ٨٤]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ [البقرة٢/ ١٨٥]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء٤/ ٢٨]. وقال: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم ﴾ [المائدة ٥/ ٦]. وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج٢٢/ ٧٨]. وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة ٥/ ١٠٥]. وقال: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة ٢/ ٢٨٠] وقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل

عمران ٣/ ٩٧]. وقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة ٩/ ٩١].

وقد ذكر في الصيام والإحرام والطهارة والصلاة والجهاد من هذا أنواعا، وقال في المنهيات: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام٦/ ١١٩]. وقال: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة ٢/ ١٧٣]. ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل١٦/ ١١٥]. ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة ٢/ ٢٨٦]. ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٥]. وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة ٢/ ٢١٧].

وقال في المتعارض ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة٢/ ٢١٩].

وقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة٢/ ٢١٦].

وقال: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [النساء٤/ ١٠١]. وقال: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[البقرة ٢/ ٢١٧]، وقال: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة ٢/ ٢٣٩]. ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ - إلى قوله - وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ [النساء٤/ ١٠٢].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت ٢٩/ ٨] إلى قوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان٣١/ ١٠٥].

ونقول: إذا ثبت أن الحسنات لها منافع وإن كانت

واجبة كان في تركها مضار، والسيئات فيها مضار وفي المكروه بعض حسنات.

التعارض بين الحسنات: فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح.

التعارض بين السيئات: وإما سيئتين لا يمكن الخلو منهما فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما.

التعارض بين السيئات والحسنات: وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة، فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة.

نماذج تطبيقية عن تعارض الحسنات

النموذج التطبيقي الأول: فالأول كالواجب والمستحب كفرض العين وفرض الكفاية مثل تقديم قضاء الدين المطالب به على صدقة التطوع.

النموذج التطبيقي الثاني: والثاني كتقديم نفقة الأهل على

نفقة الجهاد الذي لم يتعين، وتقديم نفقة الوالدين عليه كما في الحديث الصحيح: «أي العمل أفضل، قال الصلاة على مواقيتها، قلت ثم أي قال بر الوالدين، قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله»[1].

النموذج التطبيقي الثالث: وتقديم الجهاد على الحج كما في الكتاب والسنة، متعين على متعين ومستحب على مستحب.

النموذج التطبيقي الرابع: وتقديم قراءة القرآن على الذكر إذا استويا في عمل القلب واللسان. وتقديم الصلاة عليهما إذا شاركتهما في عمل القلب، وإلّا فقد يترجح الذكر بالفهم والوجل على القراءة التي لا تجاوز الحناجر وهذا باب واسع.

نماذج تطبيقية عن تعارض السيئات

النموذج التطبيقي الأول: والثالث كتقديم المرأة المهاجرة لسفر الهجرة بلا محرم على بقائها بدار الحرب كما فعلت أم كلثوم

---

(١) الترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل. (حديث رقم ١٥٨).

التي أنزل الله فيها آية الامتحان: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ [الممتحنة٦٠/ ١٠].

النموذج التطبيقي الثاني: وكتقديم قتل النفس على الكفر كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة٢/ ٢١٧]. فتقتل النفوس التي تحصل بها الفتنة عن الإيمان، لأن ضرر الكفر أعظم من ضرر قتل النفس.

النموذج التطبيقي الثالث: وكتقديم قطع يد السارق، ورجم الزاني، وجلد الشارب، على مضرة السرقة والزنا والشرب.. وكذلك سائر العقوبات المأمور بها؛ فإنما أمر بها مع أنها في الأصل سيئة فيها ضرر لدفع ما هو أعظم ضرراً منها وهي جرائمها، إذ لا يمكن دفع ذلك الفساد الكبير إلّا بهذا الفساد الصغير.

النموذج التطبيقي الرابع: وكذلك في باب الجهاد وإن كان قتل من لم يقاتل من النساء والصبيان وغيرهم حراماً فمتى احتيج إلى قتال قد يعمهم. مثل الرمي بالمنجنيق، والتبييت بالليل.. جاز ذلك كما جاءت فيها السنة في حصار الطائف

ورميهم بالمنجنيق، وفي أهل الدار من المشركين يبيَّتون وهو دفع لفساد الفتنة أيضاً بقتل ما لا يجوز قصد قتله.

النموذج التطبيقي الخامس: وكذلك مسألة التترس التي ذكرها الفقهاء، فإن الجهاد هو دفع فتنة الكفر، فيحصل فيها من المضرة ما هو دونها. ولهذا اتفق الفقهاء على أنه متى لم يمكن دفع الضرر عن المسلمين إلّا بما يفضي إلى قتل أولئك المتترس بهم جاز ذلك، و إن لم يخف الضرر لكن لم يمكن الجهاد إلّا بما يفضي إلى قتلهم ففيه قولان. ومن يسوغ ذلك يقول قتلهم لأجل مصلحة الجهاد مثل قتل المسلمين المقاتلين يكونون شهداء، ومثل ذلك إقامة الحد على المباذل، وقتال البغاة وغير ذلك، ومن ذلك إباحة نكاح الأمة خشية العنت، وهذا باب واسع أيضاً.

نماذج تطبيقية عن تعارض الحسنات والسيئات

النموذج التطبيقي الأول: وأما الرابع فمثل أكل الميتة عند المخمصة، فإن الأكل حسنة واجبة لا يمكن إلّا بهذه السيئة ومصلحتها راجحة.

النموذج التطبيقي الثاني: وعكسه الدواء الخبيث فإن مضرته راجحة على مصلحته من منفعة العلاج لقيام غيره مقامه، ولأن البرء لا يتيقن به، وكذلك شرب الخمر للدواء.

متى تحتمل السيئة؟ فتبين أن السيئة تحتمل في موضعين، دفع ما هو أسوأ منها إذا لم تدفع إلّا بها، وتحصل بما هو أنفع من تركها إذا لم تحصل إلّا بها.

متى تترك الحسنة؟ والحسنة تترك في موضعين، إذا كانت مفوِّتة لما هو أحسن منها، أو مستلزمة لسيئة تزيد مضرتها على منفعة الحسنة. هذا فيما يتعلق بالموازنات الدينية.

وأما سقوط الواجب لمضرة في الدنيا و إباحة المحرم لحاجة في الدنيا، كسقوط الصيام لأجل السفر، وسقوط محظورات الإحرام، و أركان الصلاة لأجل المرض، فهذا باب آخر يدخل في سعة الدين ورفع الحرج الذي قد تختلف فيه الشرائع، بخلاف الباب الأول فإن جنسه مما لا يمكن اختلاف الشرائع فيه، وإن اختلفت في أعيانه، بل ذلك ثابت في العقل كما يقال: «ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر

إنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين» ويُنشد:

إنّ اللبيـب إذا بــدا من جســمـه
مرضـــان مختـلفـان داوى الأخطــرا.

المفاسد الجزئية لا تمنع جلب المصالح الكلية: وهذا ثابت في سائر الأمور.

النموذج التطبيقي الأول: فإن الطبيب مثلاً يحتاج إلى تقوية القوة ودفع المرض، والفساد أداة تزيدهما معاً، فإنه يرجح عند وفور القوة تركه إضعافاً للمرض، وعند ضعف القوة فعله لأن منفعة إبقاء القوة والمرض أولى من إذهابها جميعاً، فإن ذهاب القوة مستلزمة للهلاك! ولهذا استقر في عقول الناس أنه عند الجدب يكون نزول المطر لهم رحمة، وإن كان يتقوى بما ينبته أقوام على ظلمهم! لكن عدمه أشد ضرراً عليهم.

النموذج التطبيقي الثاني: ويرجحون وجود السلطان مع ظلمه على عدم السلطان كما قال بعض العقلاء: ستون سنة من سلطان ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان! ثم السلطان يؤاخذ على ما يفعله من العدوان ويفرط فيه من الحقوق مع التمكن.

النموذج التطبيقي الثالث: لكن أقول هنا إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه؛ كالإمارة و الولاية و القضاء و نحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك ما لا يفعله غيره قصدا وقدرة، جازت له الولاية وربما وجبت! وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها من جهاد العدو، وقسم الفيء، و إقامة الحدود، وأمن السبيل.. كان فعلها واجباً. فإذا كان ذلك مستلزماً لتولية بعض من لا يستحق، وأخذ بعض ما لا يحل، و إعطاء بعض من لا ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك، صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلّا به فيكون واجباً أو مستحباً، إذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم، ومن تولاها أقام الظلم حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها و دفع أكثره باحتمال أيسره، كان ذلك حسناً مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيداً.

النموذج التطبيقي الرابع: وهذا باب يختلف باختلاف

النيات والمقاصد، فمن طلب منه ظالم قادر وألزمه مالاً، فتوسط رجل بينهما ليدفع عن المظلوم كثرة الظلم، وأخذ منه وأعطى الظالم، مع اختياره أن لا يظلم، ودفعه ذلك لو أمكن، كان محسناً.

ولو توسط إعانة للظالم كان مسيئاً، وإنما الغالب في هذه الأشياء فساد النية والعمل، أما النية فبقصده السلطان والمال! وأما العمل فبفعل المحرمات، وبترك الواجبات، لا لأجل التعارض، ولا لقصد الأنفع والأصلح. ثم الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة أو واجبة.. فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب أو أحب، فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوباً تارة واستحباباً أخرى.

النموذج التطبيقي الخامس: ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض، وكان هو وقومه كفاراً كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾

[غافر٤٠/ ٣٤]. وقال تعالى عنه ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ [يوسف١٢/ ٣٩-٤٠].

ومعلوم أنه مع كفرهم لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان ونال بالسلطان؛ من إكرام المؤمنين من أهل بيته، ما لم يكن يمكن أن يناله من دون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن ٦٤/ ١٦].

ازدحام الواجبات وإعمال قاعدة الأولويات: فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في

الحقيقة! وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلّا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر!

ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو لضرورة أو لدفع ما هو أحرم. وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء. هذا وقد قال النبي: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها إلّا ذلك**»[1].

كثرة التعارض في أزمنة الانحراف عن منهج النبوة:

وهذا باب التعارض باب واسع جداً، ولاسيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل. ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة! فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام

(١) البخاري، حديث رقم ٥٦٢. ومسلم، حديث رقم١١٠٢، ١١٠٣.

قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء! ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[1].

العلماء والموازنات الصعبة: فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب في بعضها، كما بينته فيما تقدم، العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء لا التحليل والإسقاط.

النموذج التطبيقي الأول: مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية. مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم، فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه.

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

النموذج التطبيقي الثاني: ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي خوفاً أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله، مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر.

قواعد في التنزيل الاجتماعي للأحكام

العالم تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهي أو الإباحة، كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح، أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح كما تقدم بحسب الإمكان.

قاعدة الإرجاء لحين التمكن: فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن؛ إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: «إن من المسائل مسائل جوابها السكوت». كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء، والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر. فالعالم في البيان و البلاغ كذلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما

أخر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله، تسليماً إلى بيانها.

قاعدة العلم والقدرة: يبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء ١٧/ ١٥]. والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به. فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل، فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله، كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه؛ كالمجنون مثلاً.

قاعدة التدرج في البيان والتغيير: وهذه أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما، كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة

جملة، كما يقال: «إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع».

فكذلك المجدد لدينه المحيي لسنته، لا يبلغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد.. لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول عما عفا عنه إلى وقت بيانه.

التدرج لا يعني إقرار الانحراف: ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع.

قاعدة لا إلزام مع العجز: ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل، لعدم

إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي، وإن كان واجباً في الأصل. والله أعلم.

قاعدة تنوع الاجتهادات وتكاملها: ومما يدخل في هذه الأمور الاجتهادية علماً وعملاً، أن ما قاله العالم أو الأمير، أو فعله باجتهاد أو تقليد. فإذا لم ير العالم الآخر والأمير الآخر رأي الأول، فإنه لا يأمر به، أو لا يأمر إلّا بما يراه مصلحة، ولا ينهى عنه إذ ليس له أن ينهى غيره عن إتباع اجتهاده، ولا أن يوجب عليه إتباعه، فهذه الأمور في حقه من الأعمال المعفوة، لا يأمر بها ولا ينهى عنها، بل بين الإباحة والعفو، وهذا باب واسع جدا فتتبعه.

۞ ۞ ۞

نموذج
من الخبرة الدعوية الذاتية الناضجة

ونقتبسه من خبرة الشيخ (عبد البديع صقر) رحمه الله، الذي واكب فترة خصبة من مسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة بالمشرق العربي، وشارك في جهاد الدعوة والتربية والإصلاح.. زمناً طويلاً، مع قيادات رسالية كبيرة وكثيرة، خرج منها بحصيلة أو ثروة هامة من الخبرات الثمينة، كما تدل على ذلك هذه التوجيهات القيمة، التي يسديها لأجيال الدعوة. والتي نستعرضها فيما يلي:

- إن أسلوب التحدي ولو بالحجة الدامغة، يبغض صاحبه للآخرين، فيجب التلطف لأن كسب القلوب أولى من كسب المواقف.
- إذا كان لك هدف ترجو الوصول إليه فاختر له أقرب الطرق وأرجاها... فرب كلمة يغني عنها سواها.
- في كل مجتمع توجد موازين قوى لابد أن يحسب حسابها... لصالح الدعوة، مع التسليم بخشية الله قبل كل شيء.

- ليست الإجابة المباشرة ولا النقد المر، هو السبيل لتعليم الجاهلين، إنما يجب التعريف بحقيقة الألوهية والنبوة وخصائصها... حتى تتضح وتعرف أولاً.

إياك وتبديد الطاقة الإنسانية:

بمعالجة الأمور التافهة.

أو بالجدل الذي لا يفيد.

أو بالجمود على شيء معين والاعتماد على النقول الضعيفة.

أو بالخروج عن الموضوع والإملال.

- من سنة الله أن الحياة للمبصرين لا للجاهلين.

- الذين يملكون المال ويقدرون على الإصلاح، قلما يحضرون لدروس الوعظ، وقلما يعمرون المساجد.

ولهذا كانت الحركة من ألزم واجبات الدعاة، فلا تلوموا الذين لم يحضروا إليكم... ولكن لوموا أنفسكم إذا لم تتصلوا أنتم بهم.

- السكر أنواع... وشرها سكر الهوى... والغرور.

- إن الرقاع في ثوب عمر لم تنقص قدره، وإن الحرير في ثوب رستم لم يمنعه من الهزيمة.
- يخطئ الداعية حين يظن أنه بإلقاء خطبة، أو بإعلان رأي قد نقل الناس من جهة إلى أخرى.
- إنما تتم الاستجابة بعوامل شتى منها: المودة، والوقت، والحاجة الشخصية... ومن قبل ذلك توفيق الله.
- ليس المهم صلاحية جهاز الإرسال... إنما المهم إصلاح جهاز الاستقبال، وقد يتخلى عنك الرأي العام وهو يعلم أنك صاحب الحق.. ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ [يوسف١٢/ ٣٥].
- افترض فيمن تدعوه أنه ذكي وعالم، فلا تتورط فيما يؤخذ عليك... ولا تضايق غيرك بالإطناب في إيراد البديهيات.
- لا تلجأ لاستعراض عيوب الآخرين، ولا تلجأ للشكوى باعتبارها من مواد الخطابة، إلّا إذا كان ذلك مدخلاً ضرورياً لشرح ما يمكن السامع أن يقوم به. وليكن خلط

القصة بالحديث بمقدار ما تخلط التوابل بالطعام.

- ويعتقد الناس عادة أنك أنت الدعوة، ويصعب عليهم أن يفرقوا بينكما، فحاذر من الوقوع في التناقض.
- الداعية مهندس وبناء، فهو ليس ممثلاً يحرص على استدرار إعجاب المشاهدين، كما أنه ليس فنانا هدفه تقديم التسلية لهم.
- في المجتمعات الصعبة يجب أن يكون التعامل بمهارة نادرة، كما يكون التعامل في الدول الفقيرة بالعملة الصعبة.
- تجنب التزام اللون الواحد من جوانب التفكير، حتى لا تشتهر به وتغفل عما سواه، فالدين شيء كبير متكامل.
- تعرف على تاريخ الحركات، فأنت لا تعمل في فراغ، واعلم أن الحياة ماض وحاضر ومستقبل.
- لا تتحدى الأمر الواقع ولا تصطدم بالعلم الثابت.
- ورتب الأهميات، فلا تضح بالأهم لأجل ما هو دونه في الأهمية.

- ليس كل ما يعرف يقال، ولكل مقام مقال.
- خاطب الناس بما يمكنهم تنفيذه، أو بما يمكنهم تفاديه، ولا تشطح كثيراً في الخيال، وزن ألفاظك جيداً، فقد تعد الأخطاء وتنسى الحسنات.
- إن نجاح القضايا يحتاج سلامة الشكل وصحة الموضوع معاً، فقد تعظ إنساناً بقول لا جدال فيه، فيسلم لك بالحق من الناحية العقلية، ولكنه يرفضه من الناحية العاطفية، لأنك أحرجته أمام غيره مثلاً، وكان الانفراد به أولى.
- درج الناس على تقدير الشخص باعتبار الوظيفة التي يشغلها، أو المكانة الاجتماعية التي وصل إليها.. وهذا مقياس قائم ومفروض علينا، ولكنه في غاية الفساد، فقد يشغل المنصب من لا يستحقه، ويحتل المكانة من استعمل للوصول إليها كل سبيل، إنما المقياس الصحيح رقة القلب، وسلامة العقل، وتقوى الله..﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ١٣] [1].

(١) انظر الكتاب الهام: «كيف ندعو إلى الإسلام» لعبد البديع صقر.

نموذج
من الخبرة الإنسانية العامة

نأخذ النموذج الثاني من الخبرة الإنسانية العامة، من تجربة أحد القادة العسكريين والسياسيين الكبار، وهو (ج.كورتوا)، الذي لخص الكثير من تجاربه الهامة، في هذه التوجيهات القيمة التي نستعرضها فيما يلي، واثقين من أن القراء الكرام سوف لن يعوزهم التفطن إلى بعض ما قد لا يتناغم مع رؤيتنا الإسلامية ومنهجيتها في الدعوة والبناء والمواجهة، مما يورده المؤلف من أفكار ونظريات، استوحى فيها ثقافته وحضارة عصره:

- الفكرة الحسنة والأهداف السياسية أمور جيدة، ولكنها لا تكفي إذا بقيت في حيز الأفكار والأحلام. إن علينا أن ننقلها إلى الواقع.
- على كل رئيس أن يتعرف الجهة الواقعية للأمور، حتى لا يكون بين أفكاره المثالية وبين الحياة العملية هوة كبيرة.
- يتلقى الرئيس في حياته العملية صدمات جساماً،

لا يستطيع تحملها إن كان من الحالمين الذين يبنون قصوراً من الرمال.

- لا تلائم مهنة القيادة، المتشائمين الذين لا يرون إلّا الوجه القبيح للرجال والحوادث، وتعمى أبصارهم عن رؤية الإمكانات الخفية عند ظهورها.
- لا تلائم مهنة القيادة المتفائلين المتهورين، الذين يلقيهم فرط ثقتهم بالناس بين براثن الخبثاء.
- لا تلائم مهنة القيادة المتكلمين الذين يعتقدون بأن حل الأمور «ممكن» بالأقوال، متناسين بأن من يزرع الأقوال لا يحصد إلّا الأوهام.
- تتطلب مهنة القيادة رئيساً واقعياً، لأن عدم الانسجام مع الواقع أول خطوة لفقدان زمام الأمور.
- تؤثر النظريات الفلسفية، والتربية المدرسية النظرية البعيدة عن الواقع على عقول الناس، فيصبح الذكاء بنظرهم بحثاً وتأملاً وفلسفة، بدلاً من أن يكون قدرة على رؤية الحقيقة وحل معضلاتها، حتى إنهم يقولون

عمن يناقش جيداً: «رجل ذكي».

- هناك كثير من العبقريات الإدارية والاقتصادية والعسكرية عاشت في جو من النظريات والأفكار، ولم تحتك مع حقائق الناس العملية، فأضاعت بذلك قدرتها على الحكم السديد.

- الواقعية هي معرفة الحقيقة المجردة، بمحاسنها ومساوئها، واستنباط الفوائد التي يمكن أن تقدمها في الحاضر والمستقبل.

- على الرئيس أن يرى الحقيقة بوضوح ودقة، لأن رؤية المرء للأمور كما يريدها أن تكون، وليس كما هي في الحقيقة، يسيء إلى أحكامه وتصرفاته وقراراته.

- يقول المارشال (فوشن): «لا تكتفوا بما يقال لكم، بل انظروا بأنفسكم، ثم أعلموني عن حقيقة الأمر كما ترون، لا كما تظنون، فالمعضلات لا تحل بالعواطف والظنون».

- تتمثل الواقعية في معرفة الفرد لنفسه وإمكاناتها وحدودها، ووضعها في مكانها الذي تستحقه لا الذي ترغب فيه.

- ليست الواقعية في رؤية المرؤوسين على حقيقتهم، واكتشاف أخطائهم، ثم التذمر من نقائصهم، ولكنها معرفتهم بعمق، والإفادة منهم حسب إمكاناتهم.
- الواقعية ابتعاد عن النظريات الجامدة والحلول الجاهزة، إذا كان لكل حالة لبوسها ولكل مشكلة حلها، يجب دراسة كل حالة وفق معطياتها، وما تطبيق الحلول الجاهزة سوى تخريب يقوم به من لا يجرؤون على التفكير أو الإبداع، ويقلدون تقليداً أعمى، ويطبقون الروتين، مضيعين بذلك جهوداً هائلة للحصول على نتائج هزيلة.
- على الرئيس أن يبقى على احتكاك دائم مع واقع رجاله وعمله، حتى يعدل مشاريعه حسب تطورات الحياة، وحسب الشروط التي تفرضها الحوادث عليه، لأن من اعتبر تنظيمه غير قابل للتعديل استسلم للروتين، وفقد احتكاكه مع الحقائق، وغدا تائهاً بين الحقيقة والخيال.
- يهزم الرئيس ويفقد أكثر قيمته، في اللحظة التي يعجز فيها عن تجديد أفكاره أو حلوله أو آفاقه.

- العمل بحاجة دائمة للتجديد في الروح والطريقة، وهو يبدأ غالباً باندفاع كبير يخف مع الزمن، حتى يغدو آلياً لا نفع منه.

- يتعاون الرئيس العاقل مع مجموعة من المفكرين المبدعين، مهمتهم المحافظة على اندفاع العمل وإدامة شعلة التجديد فيه، وهذا ما يفسر ضرورة زيادة عدد المهتمين بالدراسات والتجارب والبحوث.

- على الرئيس ألا يتمسك بالقديم تمسكاً جامداً، كما عليه ألا يقلب كل شيء عند استلامه زمام الأمور لمجرد التغيير والتطور، فقد يكون في أعمال السلف أشياء كثيرة معقولة يمكن الإفادة منها والبناء عليها.

إن عليه أن يحتفظ لنفسه دائماً بحق التبديل والتطور الذي يقبله المنطق، وتظهر الدراسة والتجربة فائدته.

- لا يقول الرئيس الناجح مطلقاً: «هذا ما وجدنا عليه من كانوا قبلنا»، فالماضي مفيد في تفسير الحاضر، وتوضيح خطوطه، ولكنه لا يستطيع إيقاف من يود بناء مستقبل أفضل.

- الواقعية الصحيحة هي تفهم الأمر، ومقارنته مع غيره، بغية معرفة قيمته النسبية، حتى لا نهمل أهميته أو نضعفها، وتعيين العلاقات البعيدة والقريبة التي تجمعه مع غيره.

- هنالك قواعد نفسية واجتماعية يعتبرها ذوو الفكر المحدود غير قابلة للتعديل، متناسين أن تطبيقها متعذر إذا ما تغيرت ظروف المشكلة المعروضة، ومتجاهلين أن القواعد الثابتة لا تكفي لحل المعضلات المتحولة.

- يقول نابليون «لا يمكن أبداً استخدام الحلول الجاهزة والأحكام المطلقة في القتال».

- يتطلب حل المعضلات إلماماً وليونة وتلاؤماً مع الواقع، ونظرة شمولية لا تعرقلها الدقائق، وثقافة عامة كافية لتفهم كل شيء، وتركيزاً ذهنياً لجميع العلاقات والخيوط القريبة والبعيدة.

- الحل الواقعي هو من رأى الطريق القويم عند الأحداث الطارئة منذ أول نظرة، واتخذ القرارات الجديدة الملائمة للمواقف الجديدة.

- الواقعية صنع أشياء مستعملة من أشياء غير قابلة للاستعمال.
- لا يجب الاندفاع بتهور ودون روية، اعتماداً على الشجاعة وحسن الحظ، وليس على دراسة الإمكانات والوسائل العدوة والصديقة. قال نابليون: «تفيدنا الشجاعة بالشروع بأي عمل، ولكنها غير كافية لإنهائه».
- هناك من لا يرى إلّا المتاعب، وهناك من يتجاهلها، والأفضل رؤية المحاسن والمساوئ على حقيقتها، واستنباط القوة من الأولى لقمع الثانية.
- يتقبل الرجل الواقعي الأمور كما هي، ثم يعمل لتحسينها وجعلها أفضل مما هي عليه وكما يجب أن تكون.
- هنالك أفكار حسنة وأنظمة جيدة، ولكنها غير صالحة للتطبيق في زمان معين أو بيئة معينة، والرئيس الصالح هو من استطاع التمييز بين الممكن وغير الممكن[1].

۞ ۞ ۞

(١) انظر الكتاب الهام: لمحات في فن القيادة، ج.كورتوا ٦١.

خاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذه الجولة في موضوع الواقعية في الدعوة إلى الإسلام، أن هذه الواقعية بمفهومها الإسلامي المبدئي والوظيفي المحددين المتميزين، إحدى أهم خصائص الدعوة الإسلامية باعتبارها شرعة ومنهاجاً، وأهم خصائص العقلية الإسلامية، وأقوى مقومات العمل الإسلامي وموجهاته، من دونها لن يحقق المسلم شيئا ذا بال، بل سيكون عقبة كأَدَاء في طريق اطراد ونماء الأعمال، وتقدمِ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، كما دل على ذلك الواقع التاريخي، وعززته مواقف وسلوكات وأعمال بعض من يدعون الانتساب إلى الإسلام والالتواء تحت ألوية الدعوة الإسلامية!

إن الواقعية كما تاقت هذه الرسالة إلى عرضها، تتجاوز نطاق كونها مجرد أداة أو أسلوب موضوعي فعال في التعامل

مع الواقع الإنساني، إلى نطاق كونها قانوناً أو سنة كلية من قوانين وسنن البناء والتجديد الحضاري الكبرى، التي يجب أن تولى عناية دائمة في استراتيجياتنا الثقافية والتربوية والسياسية والاجتماعية.. وصولاً إلى العقلية الإسلامية الواقعية المتوازنة، والشخصية الإسلامية الواقعية المبدعة، والحركة الإسلامية الواقعية الفعالة، التي ستتوقف عليها جميعاً، أصالة وفعالية واطرادية الجهود التي تبذلها الأمة على كل الساحات.. من أجل تغيير وتجديد نفسها، وتجاوز الضعف والتخلف والغثائية المهينة، واستعادة دورها كمضغة توازن عالمية وكونية محورية، كما جاء تحديد ذلك صراحة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ٢/ ١٤٣].

وهذه الواقعية التي تحقق لنا هذه الأصالة والفعالية والاطرادية في الجهد، وتمكننا من مواجهة تحديات الدعوة والبناء والوقاية الشاملة لحركة التغيير والمحافظة على

منجزاتها، هي باستمرار ـ كما حاولت هذه الدراسة تبيانه ـ محصلة وعي معرفي ومنهجي وتسخيري متكامل، بأبعاد ومكونات وآليات «**الدورة الإنجازية**» للفعل الدعوي أو البنائي أو الوقائي، التي كثيراً ما تستوعبنا ـ مع كل أسف ـ بعض أبعاده أو مكوناته أو آلياته.. وتُحجب عنا بقية الأبعاد والمكونات والآليات الأخرى الفاعلة فيها، ويتهمش اهتمامنا بها، الأمر الذي يؤثر بشدة في أصالة «**الدورة الإنجازية**» للفعل، ويقلل من فعالية مردوديتها، ويحرمها من إمكانية الاطراد.

لذا فقد جهدت هذه الدراسة وغيرها[1]، في محاولة إعادة بناء الوعي بضرورة مراعاة توازن الاهتمام بأبعاد ومكونات وآليات «**الدورة الإنجازية**» للفعل الدعوي والبنائي والوقائي، عبر العناية المتكاملة بما أسميناه «**منظومة سلطة المصالح**» التي تتوزع نفوذ بناء «**الدورة الإنجازية**» لأي فعل إنساني، وتطبعه **بالفعالية البنائية التكاملية العادية**،

(١) انظر للمؤلف: «الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية» و «مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية» و «الفعالية الحضارية والثقافة السننية»...

أو بالفعالية البنائية التكاملية النموذجية، أو بالفعالية البنائية التكاملية النموذجية القصوى، أو تنزلق به في متاهات الفعالية الاهتلاكية الهدمية المعاكسة للمستويات الثلاثة السابقة من الفعالية.

فكل «دورة إنجازية» لأي فعل إنساني، تحتاج إلى وعي معرفي وتسخيري بمنظومة سنن الآفاق، ووعي معرفي وتسخيري بمنظومة سنن الأنفس، ووعي معرفي وتسخيري بمنظومة سنن الهداية، ووعي معرفي وتسخيري بمنظومة سنن التأييد، وبناء على مدى هذا الوعي ومستواه، تتحدد طبيعة الفعالية الإنجازية للفرد والمجتمع والأمة.. ويتقرر دورها ومصيرها في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، المحركة للصيرورات الحضارية لحركة التاريخ.

فهذا الوعي المعرفي والتسخيري المتكامل، بمنظومات سنن التسخير الأربعة من جهة، والعلائق الوظيفية المتكاملة بينها من جهة أخرى، هو الذي يمنح الجهد الدعوي أو البنائي أو الوقائي.. واقعيته الإنجازية أو الحركية المتوازنة، التي تمنحه

بدورها أصالته وفعاليته العادية، أو النموذجية، أو النموذجية القصوى، بعد أن تتجاوز أو تجتاز به مأزق التناقض والتعارض بين هذه المنظومات التسخيرية المتكاملة، الذي كثيراً ما تورطت فيه المنظومات الفكرية والحركية التجزيئية المتنافرة، التي لم يسلم منها تاريخنا وواقعنا الإسلامي، الذي شغلته بل فتنته بدعة تعارض العقل والنقل! وما انجر عنها من بدع فكرية وسياسية مهلكة، لعل آخرها بدعة العلمانية الدخيلة! التي استنزفت طاقات الأمة الثمينة في معارك صبت مردوديتها على هامش حركة التاريخ!

وقد مر معنا في الفصل الثاني من الباب الأول، المخطط البياني لقانون «**الدورة الإنجازية للواقعية الحركية المنضبطة**» والمعطيات الأساسية التي ينتظمها هذا القانون القاعدي، الذي إذا ما تمت مراعاة معطياته بصورة شاملة ومتكاملة، وأُعطي كل معطى أو بعد منها حقه من الإعداد والجاهزية، واحتُرمت سلطته في مجال وظيفته الأساسية في «**الدورة الإنجازية**» للفعل، ولم يبتسر دوره، أو يهمش، أو يضخم..

مَنحت حركة الأفراد والمجتمع والأمة.. واقعيتها الفكرية والحركية النموذجية، وهيأت الشروط الموضوعية للفعالية الإنجازية النموذجية القصوى، التي تعزز إنجازات حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وتدعم وضع الأمة في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

فـ«الدورة الإنجازية» للواقعية الفكرية والحركية المنضبطة، كما انتهت إليها هذه الدراسة، تحتاج باستمرار إلى وعي شامل ومتكامل ومتجدد، لأبعاد القانون الستة المبينة في التصميم البياني، لارتباط أصالة الجهد الدعوي وفعاليته واطراديته، بمدى استيفاء «دوراتها الإنجازية» لهذه الأبعاد مجتمعة. وكل قصور أو اختلال في التوازن بين هذه الأبعاد أو المعطيات المحورية، سينعكس مباشرة على أصالة وفعالية الأداء الحضاري للأفراد والمجتمع والأمة، ويضعف مردوديته الاجتماعية في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المحتدمة في الأرض، ويعرض كرامة المسلم، ومقدرات الأمة ووجودها الحضاري.. لأخطار جسام!

ومن هذه المنطلقات، فإن هذه الرسالة المتواضعة، استهدفت، بالإضافة إلى التأسيس والتأصيل الفكري للوعي بقانون الواقعية، دعوة المهتمين بالتغيير والتجديد الحضاري للأمة، إلى العناية الخاصة بتحقيق الانتقال بحركة الدعوة والتجديد من:

- مرحلة الأحلام والأماني، والتعالي الأجوف على الواقع، أو الرضا بالأمر الواقع، والاستكانة له والذوبان فيه، إلى مرحلة العزم على التغيير وإصلاح الأوضاع، عبر مواجهة الحياة بانفتاح وصبر، وأناة وثبات واحتساب، وتوازن في النظرة والمواقف، والمبادرات وبرامج الإنجاز..
- ومن مرحلة المراهقة الفكرية أو الروحية، إلى مرحلة النضوج والتكامل العقلي والنفسي والسلوكي والحركي المبكر، الذي يوطن علاقة النخب الرسالية للمجتمع والأمة.. بسنن التسخير والاستخلاف؛ **في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، ويرفع مستوى التحكم

الاستثماري فيها، لمواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

- ومن مرحلة إدانة الواقع وتجهيله وتكفيره وتفسيقه.. والدعوة إلى اعتزاله ومفاصلته والبراءة منه، وتعميق تعفنه وتعقده، إلى مرحلة الاقتراب منه، والانفتاح عليه، بل والتوغل فيه لتلمس أسباب وعوامل الانحراف فيه عن قرب ومن داخله، ومحاولة ترتيب الاستراتيجيات والخطط الواقعية المتوازنة والمتكاملة لتغيير أوضاعه، وإصلاح شأنه تدريجياً أو فورياً، أو مزاوجة بين المنهجين، حسب ما تمليه الحاجة والمصلحة، وتسمح به الظروف المحيطة بالتغيير، وتتيحه الإمكانات المتوافرة أو القابلة للتوافر.

- ومن مرحلة الفوضى والعفوية والارتجالية والفردية والزعامية.. إلى مرحلة المنهج والنظام والضبط الدقيق للأهداف، والمراحل والأساليب والوسائل، وآليات المتابعة والمراجعة والتقويم المؤسسية المتطورة، التي لا تتأثر بتبدل أو تغير الأشخاص وانحرافهم، ولا تزول

بزوالهم أو غيابهم على مسرح الأحداث.

- ومن مرحلة التواكل والتسويف والإرجائية المفتوحة على المزيد من التسيب والاسترخاء المُشِلّ.. إلى مرحلة التوكل والعزم والمبادرة الإنجازية المتوازنة، التي تبدأ ببذل الجهد واستفراغ الوسع في رصد الأوضاع وتحليلها وفهمها، واستكمال شروط الإعداد والاستعداد لتغييرها، وتمر بالحذر من الغفلة والغرور والتسويف، وتتوج بمباشرة الإنجاز بكل جدية ويقظة، وتنتهي بتفويض الأمر لله بعد ذلك ليقرر ما يراه خيراً وبركة، ويقدر النتيجة المرجوة. كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران ٣/ ١٥٩].

- ومن مرحلة التنافر والإقصاء والاهتلاك والتآكل في الجهود والمبادرات... إلى مرحلة التوافق والتنسيق والتكامل، بين هذه الجهود والمبادرات التغييرية والإصلاحية العامة للمجتمع والأمة، التي تجمع كل

الجهود المبذولة في هذا السبيل، وتكتلها حول أهداف استراتيجية ومرحلية محددة، يقصدها ويستهدفها الجميع، كل حسب طاقته واستعداده، مهما اختلفت أو تباينت وتعددت مواقع هذه الجهود والمبادرات التغييرية. كما قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال ٨/ ٤٦].

- ومن مرحلة الأنانية الفردية القطبية المستبدة، التي تقتل روح المغايرة والتميز والمبادرة في الآخرين، وتكرس فيهم روح المريدية والإمعية والغثائية المُشِلّة، إلى مرحلة الفردية التكاملية المبدعة، أو «النحن» أو الكل الجماعي المتكامل، التي يتنازل فيها الأفراد عن آرائهم ومواقفهم دون حرج، عندما لا تكون منسجمة مع رأي أو موقف المجموع الراشد، ويجتهدون في إقناعه أو إقناع أنفسهم بالصواب والأفضلية بشكل دائم، محافظة على قوة الحركة وفعالة أدائها، المرتبط بوحدة الموقف والصف،

وإن تعددت الآليات الإجرائية لتجسيده.

- ومن مرحلة الفكر الموسوعي العمومي الادعائي المسطح، الذي يحاول تسجيل حضوره الشكلي أو الشرفي في كل شيء، وفي كل موقع وساحة، وعلى كل صعيد، إلى مرحلة الفكر المتخصص المتعمق، الذي يؤكد حضوره ويفرض وجوده فعلاً عندما يتعلق الأمر بميدان عمله، ومجال تفرغه أو مرابطته، أما خارج ذلك الإطار فهو يدع الأمر لأهله، ويتحول إلى متعلم مستفيد، أو منفذ فعال، دون عقدة شعور بنقص أو استكبار..

- ومن مرحلة الجهد أو الاجتهاد الفردي المحدود، إلى مرحلة الجهد أو الاجتهاد الجماعي المؤسساتي المتكامل، الذي تتلاقى وتتفاعل فيه العبقريات الفردية والجماعية، لتمنح الجماعة والمجتمع والأمة.. خلاصات الخبرة المعرفية والمنهجية والتسخيرية المتوازنة.

- ومن مرحلة الارتباط العاطفي بالأشخاص والمؤسسات والهيئات والشعارات، والولاء الجاهلي المجهول لها! إلى

مرحلة الارتباط البصير بالمبادئ والأفكار والمؤسسات، والولاء للموازين الشرعية والموضوعية المنضبطة، التي بها يعرف الحق ويوزن الخلق، ويوالون أو يقوّمون، أو يهجرون أو يعادون..

- **ومن مرحلة الوثوقية الجزمية أو الحدية الاكتفائية** المغلقة، التي يعتقد فيها بعض الناس، أو بعض المؤسسات الفكرية والدعوية.. بأنهم قد أحاطوا بحقائق الأمور، ووصلوا إلى مستويات التجلي والكمال في مجال الصواب، وأنهم قد تبوؤوا مقامات المرجعية المطلقة، التي تخولهم حق وصلاحية الحكم والمعايرة والتقويم.. الذي لا يقبل المراجعة والنقض، لما سواهم؛ لتجهيل هذا وتفسيق ذلك، وتضليل ذاك، وتكفير أولئك..! إلى مرحلة التواضع العلمي، والإشفاق على النفس من هذا المرتقى الصعب، وتبني رؤية المساهمة المنفتحة على كافة آفاق الحقيقة والقوة، التي قد تكون عند المخالف لي أو المجهول عندي، كما كان دأب أئمة

الهدى العظام، الذين كانوا يرون بكل تواضع أن: **«رأيهم صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيرهم خطأ في نظرهم يحتمل الصواب»**!.

- ومن مرحلة الحلول الطفرية المتعسفة، والإصرار على منطق أخذ الإسلام جملة أو تركه جملة، على الصعيد العملي أو التطبيقي، دون مبررات موضوعية مسوغة، أو مراعاة لسنن التغيير الاجتماعي، إلى مرحلة الحلول البنائية التكاملية المتدرجة، التي تبني صرح الوعي الإسلامي أولا بأول، وتنجز مشروعه الحضاري الكوني لبنة لبنة، وتنتقل بالأفراد والمجتمعات من حال إلى أخرى أقرب إلى الاستقامة والرشد والفعالية.. في انسجام مع سنن الله في الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، وهكذا حتى تصل بهم إلى الوضع الإسلامي المقبول أو المطلوب. استرشادا بالتوجيه النبوي البالغ الأهمية في هذا المجال، والذي رواه أنس بن مالك ﷺ:

«إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برق»[1].

- ومن مرحلة الإصرار على تبرير الأخطاء، ومحاولة تطبيعها والتكيف معها، وتوريثها بوعي ومن دون وعي للأجيال الإسلامية! إلى مرحلة الاعتراف بها والمبادرة السريعة إلى كشف أسباب التقصير وعوامل الإخفاق، وتبصير الناس بها، وتحذيرهم من عواقبها، شفقة على ضياع الجهود، وحرصاً على سد أبواب الفرقة والتنافر والاهتلاك... . كما قال ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[2].

- ومن مرحلة الخوف من النقد والمراجعة، ومناهضة كل رؤية فكرية أو طرح حركي، مغاير ومكمل ومخصب

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم١٦٩١.

للرؤى والتجارب الموجودة، واستفراغ الوسع في محاصرته ومقاتلته! إلى مرحلة الانفتاح النقدي الواثق على كل المبادرات والاجتهادات والإضافات المكملة بل والمغايرة، وتحويل ذلك إلى مناخ ثقافي وعرف اجتماعي راسخ، يقاوم الانحراف والخطأ، وينفي الضعف بشكل منهجي صحي سلس، لا عنت فيه ولا مماحكة أو خبث..

إن حركة تجديد الأمة، بلغت مرحلة حساسة من مسيرتها، تستوجب تكاتف جهود صفواتها الرسالية المقتدرة، لوضع حد:

- لمنطق العفوية والارتجالية، وردود الأفعال العاطفية الساذجة..

- والجمود والإمعية والغثائية والاتباعية الآلية أو الوتيرية البليدة..

وإفساح المجال واسعاً من جديد؛ في برامجنا التربوية والثقافية، ومشاريعنا الاجتماعية والسياسية.. لاستنبات:

- الروح الانضباطية النقدية المبدعة لدى أجيال الأمة.

- عقلية الحساب والتقدير والتوقع والتخطيط.. التي تتحرك بالإسلام من موقع إلى آخر أكثر تقدماً على ضوء:
  - ثوابت الشرع ومحكماته، والآفاق الحضارية الكبرى التي يستهدف تحقيقها في الخلق.
  - ومعطيات الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي المعيش للأفراد والمجتمعات؛ محلياً وعالمياً.
  - ووفق الإمكانات المادية والبشرية المتوافرة؛ أي وفق القاعدة الجليلة التي كانت منطلقاً لهذه الرسالة المتواضعة: «**لا تعدنَّ عدةً لا تثق من نفسك بإنجازها**».
  - والوعي المتجدد بفقه المآلات والعواقب التي تترتب؛ آنياً ومرحلياً ومستقبلياً.. على مبادرات ومواقف حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

فهل يعطي قادة الدعوة والتجديد لهذه القضايا الحيوية الهامة، ما تستحقه من عناية، ويتمكنوا من مساعدة أجيال الصحوة الحضارية للأمة، لتجاوز هذه الحواجز النفسية والضغوطات الاجتماعية.. التي تدفع ببعض هذه الأجيال إلى

مواقف وسلوكات وأعمال غير واقعية وغير موضوعية، تبدد جزءاً عزيزاً من الإمكانات الحضارية للأمة دون طائل، بسبب ضيق الأفق، وضعف الوعي بسنن التسخير والاستخلاف، والتمحور المرضي حول الذاتية، والاستجابة السلبية للمؤثرات الخارجية المستفزة..؟

وهل نتمكن في النهاية من تجسيد ما نعرفه جميعاً من كون «**الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها**»؟ ومن أن هذه الحقيقة يصعب الوصول إليها والإحاطة بها بالجهد الفردي مهما كانت عبقريته، ولكن الجهد أو الاجتهاد الجماعي المتكامل، ييسر الوصول إليها والإحاطة العامة بالضروري منها على الأقل.

وهل نعي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد ١٣/ ١١] ويكيفوا حركة حياتهم مع سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، المهيمنة على الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ، ويوطنوا وعيهم بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، الفاعلة في المنظومة السننية السابقة؟

وهل نعي أن من مقتضيات الواقعية الحركية الفاعلة في الحياة، أن «ما لا يُدرك كله لا يُترك جله» وأن التسديد والمقاربة، واستثمار الفرص المتاحة، والدأب في متابعة الإنجاز، والمراجعة النقدية المتكاملة والمستمرة للأعمال، وتطوير مناهج ووسائل الإنجاز باطراد.. هي أصول هذه الحركية المتوازنة الفاعلة في الحياة؟

وأخيراً نتضرع إلى الله تعالى، أن يتجاوز عما قد يكون وقع منا من سهو، أو خطأ، أو تجاوز في حق الإسلام، وحق رسول الله ﷺ وسنته الشريفة، وحق أجيال الدعوة عبر التاريخ، وحق كل من تعنيه أو تشمله هذه الدراسة المتواضعة.. وأن يلهمنا مراشد أمورنا، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود ١١/ ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع الكتاب

- الألوسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن وسبع المثاني، (إدارة الطباعة المنيرية، د، ت).
- ابن عاشور الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٨٤).
- ابن كثير عماد الدين أبي الفداء، تفسير القرآن العظيم، ط٢، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٠).
- ـــــــ، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط٢، (القاهرة: عيسى الحلبي، ١٩٧٣).
- ابن هشام أبو عبد الله محمد، السيرة النبوية، ط١، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥).
- برغوث الطيب الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية، ط١، (كوالالمبور: مركز التفاهم الحضاري والتربية، ١٩٩٩).

- ـــــ، القدوة الإسلامية: فرضيتها - ضرورتها - السبيل إليها، ط١، (الجزائر: دار الشهاب للطباعة والنشر، ١٩٨٤).
- ـــــ، الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية، ط١، (الجزائر، دار البعث، ١٩٨٥).
- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود الفرات، معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمان، (بيروت: ط١، دار المعرفة، ١٩٨٦).
- بن نبي مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥).
- ـــــ، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٤، (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٧هـ).
- ـــــ، مشكلة الثقافة، ط٤، (دمشق: دار الفكر ١٤٠٤هـ).
- ـــــ، ميلاد المجتمع، ط٢، (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٤).
- ـــــ، وجهة العالم الإسلامي، ط ٥، (دمشق: دار الفكر ١٩٦٨).
- البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق: عبد الرحمان عثمان، ط١، (القاهرة: مطابع دار النصر، ١٩٧٣).
- الجوزية ابن القيم شمس الدين، التفسير القيم، تحقيق: محمد حامد

الفقي، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧).

- ـــــ، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٧ هـ).
- ـــــ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٣).
- ـــــ، زاد المعاد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ).
- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، ط٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩).
- الراشد محمد أحمد، العوائق، ط٣، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨).
- ـــــ، المنطلق، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧).
- الزرقا محمد أنس، صياغة إسلامية لدالة المصلحة الاجتماعية، (المسلم المعاصر: العدد: ١٦/ ١٩٨٧)
- السباعي مصطفى، من روائع حضارتنا، ط٣، (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٢).
- الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق:

عبد الله دراز، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).

- الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، ط٢، (القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٩٨٣).
- الطالبي عمار، ابن باديس، حياته وآثاره، ط١، (بيروت: دار اليقظة العربية، د.ت).
- العسقلاني ابن حجر أحمد بن علي، الإصابة، (القاهرة: مطبعة مصطفى محمد، ١٩٣٩).
- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ط١، (بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠).
- القرافي، الفروق، (مصر: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٤٤هـ)
- القرطبي أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، ط١، (بيروت، الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧)
- قطب سيد، خصائص التصور الإسلامي، (بيروت: دار الشروق، د.ت).
- ـــــ، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٩٨٨).

- ـــ، معالم في الطريق، (بيروت: دار الشروق،، د.ت).
- ـــ، هذا الدين، (بيروت: دار الشروق، د.ت).
- قطب محمد، منهج التربية الإسلامية، (القاهرة: طبعة دار القلم، د. ت).
- الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، (القاهرة: الدار القومية، د.ت).
- الكندهلوي محمد يوسف، حياة الصحابة، تحقيق: محمد علي العباس دولة، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٣).
- غوستاف لبون، حضارة العرب، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠).
- القرضاوي يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، (قطر: رئاسة محاكم الشرعية والشؤون الدينية الإسلامية، ١٩٨٤).
- ـــ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، (القاهرة: مكتبة الوهبة، ١٩٧٧).
- مالك بن أنس، الموطأ، ط١٠، (بيروت:دار النفائس، ١٩٨٧).
- المباركفوري صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ط١، (جدة: مؤسسة

الطباعة، ١٩٨٠).

- المودودي سيد الأعلى، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ترجمة: كاظم سباق، ط١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩).
- النووي، رياض الصالحين، (طبعة دار الفكر).

٭ ٭ ٭

فهـرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

المـوضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

۞ ۞ ۞

الأستاذ الطيب برغوث من مواليد ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٥١م، بالقطر الجزائري، لأبوين مجاهدين شاركا في أحداث الثورة التحريرية الجزائرية.

متزوج وله ثلاثة أولاد. فقد زوجته في ظروف مأساوية في خضم تداعيات المحنة الوطنية الكبرى.

درس العلوم الشرعية، ونال شهادة (الليسانس) في علم الاجتماع سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٩. وواصل دراساته الجامعية العليا في علم الاجتماع الثقافي، ونال المرحلة الأولى من الدراسة بأطروحة أولية عن: (نظرية مالك بن نبي في الثقافة) سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

اشتغل بعد تخرجه من الجامعة سنة ١٩٧٩ في حقل الإعلام الإسلامي، وأشرف على مجلة الرسالة، وكان عضواً في هيئة تحرير جريدة العصر ومجلة الأصالة. وبدأ الكتابة الصحفية منذ أن كان طالباً في نهاية مرحلة التعليم المتوسط، حيث نشر عدة مقالات في جرائد ومجلات جزائرية مختلفة. وكانت القراءة والكتابة.. حبه وهمه ومتعته الكبرى منذ صغره.

التحق بقسم الدراسات العليا، بمعهد الشريعة وأصول الدين بجامعة الجزائر، وأنجز أطروحة أولية عن: (التدابير الوقائية من الطلاق في الإسلام) سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

التحق بهيئة التدريس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة منذ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. كان عضواً بالمجلس العلمي بمديرية الشؤون الدينية بولاية قسنطينة منذ تأسيسه، وشغل بالجامعة عدة مناصب علمية وإدارية، منها نائب مدير معهد مكلف بالدارسات العليا في معهد الدعوة وأصول الدين، وعضو دائم بمجلسه العلمي، ونائب مدير مركز الأبحاث والدراسات التابع للجامعة. كان عضواً مؤسساً بجمعية أصدقاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

تحصل على شهادة الماجستير في مناهج الدعوة سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م. وأنهى إنجاز شهادة دكتوراه الدولة في نفس التخصص سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م. وإن لم يناقشها بعد، بسبب الظروف الصعبة التي مر بها في السنوات الأخيرة التي تعرضت فيها الجزائر لمحنة كبرى.

متأثر بالإمام العلامة عبد الحميد بن باديس، وبالإمام العلامة البشير الإبراهيمي.

ويرى في التجربة التاريخية لـ(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) نموذجاً ناجحاً في الوعي والفعل الحركي الفعال، كان على الحركة الإسلامية في الجزائر أن تستثمره وتجدده في إطار استراتيجية التكاملية المتجددة للخبرة الوطنية التأصيلية.

انخرط منذ وقت مبكر من دراسته بالجامعة في حركة البناء الحضاري الإسلامية، والعمل الدعوي الفكري التربوي. وأسس مع نخبة من إطارات الصحوة في الجزائر (الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري) سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م، للمساهمة في النهوض بأعباء الدعوة والتربية والإصلاح الفكري والاجتماعي والسياسي. وساهم في حركة بناء الصحوة وترشيد مسيرتها من خلال تجربته المبكرة في ميدان الدعوة، فإنه يرى أن الدعوة بمفهومها الثقافي التربوي الاجتماعي الشامل، فريضة شرعية لإحياء الدين في النفوس، وضرورة حيوية للإصلاح الاجتماعي لأوضاع الأمة، وتمكينها من مبارحة مستنقعات الإمعية والغثائية والتبعية، واستعادة دورها في التواصل والتكامل الحضاري الفعال مع الحضارات البشرية الأخرى.

يعيش منذ عام ١٩٩٥م خارج الجزائر، بعد أن غادرها لتحضير شهادة الدكتوراه، واستمراراً في أداء مهمته في المجال الفكري والتربوي والدعوي وحوار الأديان والثقافات والحضارات. يدير بالخارج جمعية مهتمة برعاية شؤون الجالية المسلمة المتكونة من أكثر من ثلاثين جنسية إسلامية مختلفة، ويساهم في حركة تبليغ الإسلام والتعريف به، وحوار غير المسلمين بشأنه وشأن تجربته وخبرته الحضارية الغنية.

امتنع عن المشاركة المباشرة في العمل السياسي الحزبي، داخل الجزائر وخارجها،

وتفرغ للعمل الفكري والتربوي والدعوي، اقتناعاً منه بأن ذلك هو المجال الأكثر خصوبة.ويرى بأن عمق الأزمة الوطنية ثقافي تربوي أخلاقي منهجي، قبل أن يكون سياسياً، أو اجتماعياً اقتصادياً مفتعلاً..

ساهمت كتاباته وأفكاره ومحاضراته ونشاطاته الفكرية والدعوية والأكاديمية في تكوين وعي حضاري لدى نخبة مثقفة ولدى قطاع كبير من حملة الشهادات العليا والمهتمين بإثراء التجربة الإسلامية بالوعي والأفكار الحضارية المتوازنة والمعتدلة.

أطروحاته وآراؤه تدعو إلى الحوار والإحسان إلى الآخرين ونبذ العنف والابتعاد عن التطرف والتزام التوسط والاعتدال والتوازن في الأقوال والأعمال والمواقف. مهتم بنظريات الفعالية الحضارية من منظورها الإسلامي السنني الإنساني الكوني المتكامل.

- أعماله ومؤلفاته:

ألف ونشر الكثير من الكتب، كما درج على نشر مقالات ودراسات في موضوعات متنوعة في الكثير من المجلات والجرائد.

- القدوة الإسلامية في خط الفعالية الحضارية.
- الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية.
- التغيير الإسلامي خصائصه وضوابطه.
- معالم هادية على طريق الدعوة.
- الخطاب الإسلامي المعاصر وموقف المسلمين منه.
- محورية البعد الثقافي من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في (جزأين: ماجستير + دكتوراه).
- الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري.

- الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية.
- مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- الفعالية الحضارية والثقافة السننية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- التغيير الحضاري وقانون الاستقلالية النوعية التكاملية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- مدخل إلى تجربة جماعة البناء الحضاري الإسلامية في الجزائر.
- حركة تجديد الأمة ومشكلات في الوعي والمنهج.
- حركة التجديد على خط الفعالية الاجتماعية.
- مفاصل في الوقاية الاستراتيجية للصحوة.
- صفحات من تجربة حركة البناء الحضاري الإسلامية الجزائرية.
- زواج المسلمة بغير المسلم: تكريم أم حرمان.
- الأسرة المسلمة على طريق النهضة الحضارية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- مدخل للتعريف بالإسلام.
- العالم: رجل وامرأة وطفل وفكرة.

والمتبع للتطور التاريخي والفكري للأستاذ الطيب يستطيع أن يميز على الأقل مرحلتين بارزتين.

- الأولى: هي مرحلة التأسيس والتنظير.
- والثانية: هي مرحلة الإنضاج والتعميق.

ومن أهم الكتب التي تعبر عن هذه المرحلة الثانية: الفعالية الحضارية والثقافة السُننية، التجديد الحضاري وقانون الواقعية، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية: قراءة في سنن التغيير الاجتماعي، الأبعاد المنهجية للدعوة في الحركة النبوية، التغيير الحضاري وضرورة المنهج...